محمد إبراهيم مبروك

ثلاثون عامًا من التشرد

(ريان يا فجل)



الحضارة العربية

ثلاثون عامًا
من التشرد
(ريان يا فجل)

- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.

- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.

- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.

- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.

- الآراء الواردة فى ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

◆ ◆ ◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

◆ ◆ ◆

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

E.mail: hadaraa1990@gmail.com

محمد إبراهيم مبروك

ثلاثون عامًا من التشرد

(ريان يا فجل)

مركز الحضارة العربية

الكتـــاب: **ثلاثون عامًا من التـــشرد**
(ريان يا فجل)

المؤلف: **محمد إبراهيم مبروك**

النـــاشر: **مركـــز الحضـارة العربيـة**

الطبعة الأولى: **القاهرة ٢٠١٨**

الجمع والصف الإلكترونى: وحدة الحاسوب بالمركز
تصميم وجرافيك: محمد النوبي

رقم الإيداع: ٢٠١٨/٣٧٨٨

الترقيم الدولي: 978-977-496-363-6

مبروك، محمد إبراهيم.
محمد إبراهيم مبروك: ثلاثون عامًا من التـــشـرد (ريان يا فجـل). _ ط١ . _ الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠١٨
٤٠٠ ص؛ ٢٤ سم
تدمك: ٦ _ ٣٦٣ _ ٤٩٦ _ ٩٧٧ _ ٩٧٨
١ - الإسلام ـ مبادئ عامة.
٢ـ الاجتهاد (فقة إسلامى).
أ- العنوان
٢١١

بسم الله الرحمن الرحيم

إشارات

- أقـول للذين اعترضوا علي هذا الكتاب، وعلى عنوانه بوجه خاص هذا الكتاب واحد من أهم كتبي .
- الثلاثون عاما المذكورة في العنوان ــ والتي هي في الحقيقة أكثر من ثلاثين ــ ليس المقصود منها الثلاثين عاما من حكم مبارك.
- توجـد في هذا الكتاب إشـارات كثيرة للقصـة المحورية في حياة الكاتـب والتـي لا يرغـب في ذكرهـا هنا، ولايحتوي الكتـاب إلا على شذرات منها.
- هنـاك مسـارات للتعبيـر الفلسـفي غير مسـارات أرسـطو النظرية العقلانيـة المجـردة ــ والتـي حـذا حذوها أغلب الفلاسـفة بعده - مثل المحاورات لأفلاطون، وكليلة ودمنة لبيديا الفيلسـوف، وحي بـن يقظان لابـن طفيل وغيـره، وفاوسـت لجوته، وهـكـذا تحدث زرادشت لنيتشه.
- كل الأشـخاص المذكوريـن فـي هـذا الكتـاب هـم أشـخاص حقيقيـون، وكذلـك كل الأحـداث التـي تم ذكرها هـي أحداث حقيقية تمامًا.

- هذا الكتاب يخرج عن التصنيفات التقليدية للكتب.
- أيا كانت المادة المكتوبة في هذا الكتاب: أدب، دين، فلسفة، سياسة، علم نفس، أو باراسيكولوجي، فقد قصد في كتابتها أن تكتب من إنسان إلى أي إنسان في كل مكان.

محمد إبراهيم مبروك

٠١١٥١٨٠٢٠٦٠

٠١٠٠١٤٩٠٤٩٩

من أين ؟ وإلى أين ؟

عـلام يمضي العالم؟ ليس على الأرض شـيء، دُمَـى تتحرك، وضباب لا يُرى يحيط كل شيء، وخواء يسكن العالم وكأنه أفرغ من وجوده.

يمضي هائمًا بلا هدف، تغشاه اللامبالاة والقنوط .

ربما لو سأل حينذاك من يكون؟ لم يستطع أن يجيب .

كل شـيء كان قد انتهى ولم يبق سـوى التردي في العذاب والكآبة إلى نهاية العالم. لم يبق سوى العطش اللانهائي ولا رغبة حتى في الارتواء .

ذبح حلمه أمام عينيه منذ أكثر من عامين ولم تبق سوى نظرات العجز اليائسة يتبادلانها بين الحين والحين في انتظار الاحتضار الاخير.

وفـي ظـل هـذا القنـوط المشـل والمحبط عن فعل أي شـيء تسـربت أحلامه الأخرى من يديه فأقصى ما يسـتطيع أن يفعل هو أن يحافظ على مجرد كونه حي.

بعـد ذلـك الحين بسـنوات قليلـة وصفه شـقيق أحد أصدقائـه ــ كما حكى له هذا الصديق ــ حين رآه في أحد الشوارع أنه يبدو وكأنه خارجًا للتو من القبر، أما في هذه اللحظة، فقد كان يعيش في القبر بالفعل ..

قبر غير منظور يمضي به في كل مكان.

لـم يكـن خياره أنـه يتوق للمطلـق، هـكذا وجد نفسـه منذ أن كان طفلاً.

هو يريد منتهى كل شيء، منتهى كل شيء مثالي لا مادي .. النبوغ.. الحق .. العدل .. الخير .. الجمال، يتوق لكل هذا دون أن تحكمه الأغلال المكدسة للعالم المادي الذي يحيط به .

ومنذ أن كان طفلاً تدرج في هذا الأخير حتى رآها فكان هاتفه الداخلي الذي ملأ روحه منذ اللحظة الأولى: هذا هو المنتهى الذي أتوق إليه.

ومنذ تلك اللحظة لم يخطئ إدراكه هذا أبدًا .

كان هذا في الحادية عشر من العمر، وظل يقاوم الانجراف للجنون لمدة عامين ولكنه استسلم له في النهاية.

لماذا كان هذا جنونا؟

لانه يستحيل التحقيق، فهو على الرغم من نبوغه مازال يبدو طفلاً، أما هي ـ والتي كانت تكبره بعام رغم انتظامهما معًا في نفس العام الدراسي ـ فقد كانت امرأة مكتملة تثير الجنون في النفوس ويتقاتل عليها الرجال، وتسال من أجلها الدماء بلا أية مبالغة.

فلم يكن له طموح الظفر بها على الإطلاق، فبكل بديهيات العالم فإن احتمالية حدوث ذلك هو أمر مستحيل، لكن هذا لم يكن يعني عدم استسلامه للجنون، لأنه لم يكن يملك سوى الاستسلام له.

وكل ما كان يأمله هو أن يستسلم هو لمصيره، وحلمه يمضي في طريقه الطبيعي المفترض في الحياة، فتحيا الحياة اللائقة بها كما يعيش الناس .

لكن الحلم غدا كابوسا ذبحت فيه أجمل زهرات الوجود وألقيت في صفيحة القمامة، والمطلق الجمالي البشري تم تسليمه إلى المسخ.

والعجز الكامل يلف كل شيء.

كان حينذاك في الثامنة عشر من العمر حين كان يمشي هائمًا في منطقة وسط البلد في شبه غياب تام عن العالم .

تتداخل في عينيه الأشياء، تنشق الأرض والأسوار المحيطة بالشوارع

عن مشـاهد ذبحها ونظـرات العجز والقنـوط بينهمـا ، وتتداخل أصوات السـيارات في الشـوارع مع العزف الجنائزي لرحيلها ، وتحتشـد مشاهد ذكريات جموع المتصارعين حولها داخل الشوارع الفارغة أمامه.

روح تنزف تمشي على قدمين .

روح ترى ولا ترى، وتسمع ولا تسمع، وتعي ولا تعي.

لك أن تغيب . أن تذهب .. أن ترتاح للجنون .. ولكن ليس لك أن تموت.

إن كنـت تبصـر أمامـك _ إذا كان لديـك أمـام _ فلا تبصر سـوى صحراء من الاكتئاب، ولكن ليس لك أن تموت.

تمضي لا غاية لك .. وكل شيء يفتقد المعنى، ولكن ما معنى المعنى؟ وما المهم في ذلك من الأساس، ولكن أيضًا ليس لك أن تموت.

لماذا ليس لي أن أموت؟!

لأنك حين اتجهت إلى الموت وجدت .. اللّه ..

يا اللّه أسألك وحدك .

إذا كان لابد عليَّ أن أمضي.

فإلى أين أمضي؟.

ولكنه كان مازال يمضي بين تداخل الأشياء.

أوقفته أكوام من الكتب على أحد الأرصفة.

حاول أن يقرأ العناوين لكنها تداخلت فيما بينها.

ما الذي يمكن أن تستطيعه لك تلك الكتب.

هل ستوقف انجرافك إلى الهوة السحيقة التي تهبط إليها؟.

يا اللّه.

أخرجني مما أنا فيه.

إن كان عليَّ أن أمضي.

فإلى أين أمضي.

ولكنه كان مازال يمضي بين تداخل الأشياء.

يا اللّه ..

أعلم أنه ليس عدلاً أن أكون أنا أنا ، وأنولها هي هي .

ليس عدلاً أن يأخذ الإنسان كل شيء.

إن أكبر خلل في فهم البشر هو اعتقادهم بأن أصحاب النعم الكبرى يجب أن تكون حظوظهم في الحياة بما يكافئ تلك النعم، ويظنون أن ذلك هو العدل، وأي خلل في ذلك لديهم هو الظلم ذاته.

إن هؤلاء الذين لا يرون إلا أنفسهم ولا يرون البشر والعالم من حولهم، ينظرون إلى العدل بحكم ذاتي أناني بالغ الغباء والقسوة في نفس الوقت.

من تكون أنت لتاخذ كل شيء ولا تترك لغيرك من البشر شيئًا .

أنت الذي تريد بهذا أن تخل بالتوازن الرهيب الذي يحكم كل الأشياء.

زيادة في شيء ونقص في شيء.

هذا هو التوازن الرهيب الذي يحكم كل الأشياء.

"يعطي الحلق للي بلا ودان".

إذا قلتها اعتراضًا فقد كفرت بالخالق صاحب العطاء. وإذا قلتها إقرارًا بعظمته فقلت: سبحانه يعطي الحلق للي بلا ودان.. فقد سبحته وعيًا منك بغاية عدله.

نعم إنه يعطي الحلق للي بلا ودان.

فيكـون لهـذا حلق، ولهـذا آذان، وذاك مقتضى عدلـه فإذا لم يكن هذا، ما الذي يكون؟

أيأخذ هذا الحلق والآذان معًا ولا يأخذ الآخر شيئًا؟.

أهذا هو العدل بالنسبة لكم يا من لا ترون إلا أنفسكم؟.

هذا حلق وهذا آذان.

هذا نقص وزيادة، وهذا نقص وزيادة.

وذلك مقتضى عدله وحكمته.

يا الله ....

ولكنها ذبحت ذبحًا؟

وكم ذبحت هي؟

ألم تعش بين الناس تريد أن تكون إلهة عليهم وتريد منهم السجود لها.

الـم تسـهم في ضياع هـذا وفقدان مسـتقبل ذاك؟ وإرسـال هؤلاء إلى مستشـفى المجانيـن؟ لا انحرافًـا منها ولكـن فقط إرضـاء لكبريائها الذي لا يرويه شيء.

لقد كانت طفلة أو أقرب إلى الطفلة وتعيش في غابة دون أدنى توجيه.

الآن صارت طفلة! ألم تقل أنت أنها كانت امرأة مكتملة ألسم تسبق أقرانها شكلا وعقلا؟.

لكني لا أعلم امرأة في الوجود ضربت ضربة كهذه.

لقد حطمتها تحطيما وسحقتها سحقًا.

إن المسخ الذي سلمت إليه حولها هي نفسها إلى مسخ داخلي.

من أنت لكي تكون الحاكم في هذه الأسرار؟!

أتكون أنت أعدل منه؟!

أتكون انت أكثر رحمة منه هو .. من الله ....

من أنت لكي تعي كل أسـرار هذا الوجود وتجعل من نفسك حكمًا عليها؟!...

حتى ولو كنت فيلسوف الفلاسفة ـ وأنت مازلت في مبتدأ الطريق ـ فماذا فعل أعظم الفلاسفة في فهم هذه الأسرار؟

إن غايـة مـا يتحدثون فيه هو كون الإنسـان مسـير أم مخير.. غاية ما يفكـرون فيـه هو مدى مسئولية الإنسـان عـن فعله في مواجهـة الثواب والعقـاب ـ وأنت لك اجتهادك في هذا ـ لكن المسـألة أكبر من ذلك كثيرًا .. إن أسرار القضاء والقدر لا تنتهي .. وأنت لا تنسى قول الفيلسوف الـرازي إن القضاء والقدر إحدى القضايا التي عجز وسـيعجز الفلاسـفة عن بلوغ أسرارها على الإطلاق.

وجاء الإسـلام فجعل من القضاء والقدر أحد أركانه الإيمانية لأن ما يعجز الإنسـان عن بلوغ أسـراره فليس له فيه إلا الإيمـان بما أبلغه الله به عن هذه الأسرار.

فاعلم حجم نفسك جيدا .. وقف عند حدود عجزها.

وكان مازال يمضي بين تداخل الأشياء.

يا ألله ....

ولكن ما يعنيه وجودي هذا؟..

إلى أين أمضي أنا؟

وكيف أطيق هذه الحياة بعد هذا الذي حدث؟!.

شعر بشيء مختلف بين الأشياء المتداخلة التي تراها عيناه ويشعر بها وجوده.. انتبه لما حوله جيدًا.. حقًا إنه شيء مختلف .. إنه في شارع الأزهر.

كم الساعة الآن؟ .. لقد اقتربت صلاة العصر.. هي فرصة أن أصلي في الأزهر .. لكن ما هذا السلم العجيب .. إنه يؤدي إلى مسجد آخر قبل الأزهر .. لقد اقتربت الصلاة، فلأصلي في هذا المسجد.

صعد السلم للصلاة في المسجد العلوي، كان لهذا المسجد القديم جوه الروحي الذي أخرجه كثيرًا من حالة الغياب الحضور التي كان يعيشها، ولكن قبل الصلاة وبعد الصلاة استرعاه شيء آخر خالص .....

رأى شخصًا تمتد ذراعه وأصابعه المشوهتان بشكل أفقي في وضع متصلب تتصلب معه رقبته وكتفه المائلان عليهما وينشد أحد فكيه أيضًا إلى كتفه المائل فيعجزه عن نطق أنصاف الكلمات، بينما لا تستطيع قدماه المعوجتان أيضًا إلا السير بنصف دائرة.

لم يسترعه هذا المنظر تحديدًا وإنما الذي استرعاه أن صاحب هذا الحال كان يمارس عمله (كان خادمًا للمسجد تقريبًا) برضى كامل ويؤدي عبادته في رضى وخشوع وتذلل صاف (شاهد ما يماثل هذا أكثر من مرة بعد ذلك).

جذبه المشهد من حاله إلى حال الرجل.

لم يعد هو في حاله .. هو الآن في حال الرجل.

تجسد حاله في صيغة سؤال أوحد:

أترضى أن تكون هذا الرجل ولك ما تريد؟؟؟؟؟؟؟.

***

في مغارة خالد

دوره فـي حياتـي أكبر مـن أن يذكر في هـذه الهوامـش. ولكن ما سأذكره هنا هو بعض الحوادث المتعلقة به التي يصعب ذكر تفاصيلها مع النسيج العام للقصة المحورية إذا تمت حكايتها.

هو الآن أمر مختلف لدرجة كبيرة من كل النواحي بحسب تقديري، كان وسـيمًا للغاية، فتىً وشـابًا، قوي البنية متوسـط الطول نسـبيًا مع ميـل للقصر في سـاقيه _ لم ألحظـه وإنما ذكره لي هو نفسـه في أحد الأحاديث وإن كنت قد شـعرت بخلل ما في بنيانه رغم وسامته الشديدة بوجه عام _ ذا ملامح شقراء أبيض برتقالي وعيون خضراء وشعر تضرب فيه الصفرة، يقاسـم بذلك مصريين كثيرين ميراث بعض أجدادهم من الأتـراك والشـركس مع سـمات عربية أصيلة مـن الثقة والعـزة والنخوة والسماحة. ينتمي لعائلة من كبرى عائلات البلدة يتدرج أبناؤها بين الفقر والغنـى المفرط ويعرف عنهم قوة المراس والشـكيمة وكان ينتمي إلي فـرع وسـط في هذه العائلة انزلق به الحـال إلي أن أصبح أقرب إلي الفقر من اليسر، وقد رسمت هذه الحالة المادية المتدهورة ملامحها علي بيتهم الكبير الذي كانوا يقطنونه، فلسوف ينطبع لديك من اللحظات الأولي لمشاهدته أن هذا البيت كان بيت عز وأتى عليه الزمان.

ولنـا مـع وصف هذا البيت العجيب أمر يطول قد أرويه في قصة أخرى ولكـن مـا يهمنا هنـا هو إن نقـول: أن هـذا البيت كان يعيش في شـبه عزلـة، فهـو يقف علـي طرف البلـدة وتفصله عـن البيـوت الأخرى بعض الأماكن الخربة التي تنتمي إلي البيت نفسه، ويتكون المبنى الأساسي

من دورين، الدور الأعلي منهما ما زال صالحًا للمعيشة وهو الذي تسكن به العائلة أما الأسفل فشبه مغارة غابت معالمها استقلت منها بالكاد غرفتان وصالة قذرة ودورة مياه مهجورة، أما حوائط المغارة فقد كانت متصدعة تسرح فيها الشروخ والشقوق واستطاع صديقنا ـ والذي كان يبدو أكثر مثالية في التعامل مع أهله من إخوانه المشاكسين ـ باستقلاله بهذا الدور السفلي عمليًا لاستكمال دراسته التعليمية ثم لممارسة نشاطه الثقافي بعد ذلك ليمثل بمكانه هذا حالة ثقافية فريدة علي مستوى البلدة بل ويندر حدوثها علي مستوى القطر جميعه.

كان يكبرني بحوالي ثلاث سنوات ونصف وأول معرفتي به (ويالا المقارفة في ذلك) عندما كان ذاهبًا إلي صلاة الجمعة وكنت ألعب الكرة مع أخيه الأصغر الذي يكبره بحوالي خمس سنوات وكنت عند ذلك في نحو الثانية عشر من عمري فإذا به يعاتبنا علي عدم مبادرتنا بالذهاب للصلاة وترك اللعب.

وفي وقت قريب من ذلك خطف مني أحد أصدقائي أول قصيدة كتبتها في حياتي وقال سأذهب بها إلي خالد ـ هذا إن جاز أن تسمى قصيدة أصلاً ـ وهو مبهور بها إبهارًا شديدًا حيث كان شيئًا مدهشًا لأمثالنا أن يجرؤ طفل علي كتابة ذلك، وكان مطلعها علي حسب ما أتذكر:

لو بيدى لجعلت الناس سعداء كرماء في الدنيا أحباء

ولم يلبث كثيرًا حتى عاد وفي وجهه خيبة الأمل وهو يقول:

ـ خالد لا يعجبه شئ ويقول إنها كلام عادى جدًا.

من هنا بدأت تتكشف لديّ شخصية خالد. فهو لم ينظر للكلام المشار إليه عن مدى قيمة صدوره من طفل في الثانية عشر من العمر

وإنمـا ينظر إليه علي أنه قصيدة مفترضة طلب منه كناقد متخصص أن يَّقيمهـا ، ومن ناحيـة أخرى فقد مثَّل له الأمر فرصة نادرًا ما تتكرر تتيح لـه بطلب مـن أقرانه ـ وكان صديقي أخًا لأحدهم ـ ودون تعمد منه أن يكشف عن مدى ثقافته وعمق ذكائه.

نعم كناقد متخصص.

فعندمـا أتذكر ما كان يقوله في لقاءاتي الطويلة معه من أراء نقدية أثق أن خالدًا كان يملك مهارات ناقد متخصص في الشـعر والأدب عند بلوغه العشـرين مـن العمر . واعتقد أنه كان في الثامنة عشـر من العمر مطلعًا علي الشـعر العربي من أول أمرئ القيس وعنترة بن شـداد إلي أمل دنقـل ومحمـود درويش مـع إلمام كبيـر بالرواية العربية بـكل أعلامها واطـلاع بـالأدب والفكـر العالمييـن وقراءة دؤوبة لطه حسـين وحسـين هيكل والعقاد بوجه خاص.

ولقد كان لاعتزازه الشديد بهذا الأخير بالذات أثره القوى علي إبراز أسوأ صفاته هو ألا وهى الأنا والذاتية الشديدة بشكل كان يطغى علي كل صفاتـه الأخـرى ـ وإن لـم يمحهـا ـ وكانت تبلغ به الأمـور أحيانًا تحـت تأثيـر تلك الصفة أن يتجاوز في حديثه أي قـدر من المنطق ويجعل المتمسكين بصداقته عند الاستماع له في تلك الأحايين يقاومون بكل قواهم عدم الانفجار في الضحك .

وأذكر أنني بعد مشـكلتي الأخيرة معـه والتي جعلت علاقتي به بعد ذلـك فاتـرة تمامًا ، ولـم يقلل فتورهـا كثيرًا من جهتـه محاولاتي لإعادة بعض الصداقة القديمة ـ قد أرسلت إليه صديقًا لي ـ وقد كان هو نفس الصديق الذي أشرت إليه أولاً ـ وكنا عند ذلك في الثالثة والعشرين من

العمـر ـ لحل المشـكلة بيننا ، فعـاد إليّ هذه المرة بعد مـدة من الزمن بخيبة أمل أكبر كثيرًا من المشـار إليها في الطفولة ، فقلت له محاولاً التخفيف عنه:

ـ أنا عارف أن خالدًا مشكلته الأساسية مع ربنا أنه لم يجعله نبيًا

ـ فإذا بصديقي يرد علي قائلاً :

ـ لا أبدًا ليسـت هذه المشـكلة. ولكن مشـكلته الحقيقية مع ربنا هي أنه لم يجعله أكثر من ذلك!!!

والسـمة الوحيدة المنافسـة لسـمة الذاتية (اسـتخدم هنا هـذا اللفظ العامي للتعبير عن الشـعور بالعظمـة وليس الأنانية وإن يكن اللفظ ليس دقيقًـا لدرجـة كبيـرة من الناحيـة العلمية) أقـول السـمة الوحيدة لذلك هـي صفـة الإدراك الانفعالي وتحديده للمواقف والقرارات (سيكتشـف القـارئ لاحقًـا أهمية تحليلي لشـخصية خالد لما سـيترتب علي ذلك من أحداث وكنموذج هام له ما يشابهه في السـاحة الثقافية في العالم العربي والإسـلامي).

أو كما قال هو لي عن نفسه في أحدي المرات:

ـ الأمور عندي لا تأخذ بالحسـابات المنطقية وإنما تأخذ (كداهه) مرة واحدة..

ـ قـال هـذا وهو يرفع يده المرسـلة من أسـفل لأعلي قابضًـا لها في الهواء.

إي أن الانطبـاع الشـعوري للأمور هو الذي يحـدد رؤاه ومواقفه وبقدر كبير قراراته أيضًا وليس الترتيب العقلي أو العلل المنطقية لها.

وهكـذا انتقـل خالد إلـي الجامعـة طالبًا بكليـة الآداب ليكون من

السهل للغاية أن تهيئ له ثقافته الواسعة وشخصيته الوقادة الالتقاء ــ ومن ثـم الارتبـاط ــ بأحد أهم أسـاتذة الكلية حينذاك وأحـد أهم المثقفين العرب منذ ذلك الحين (عام ١٩٨٠) وحتى الآن.

هذا فضلاً عما التقى بهم من أسـاتذة آخرين لتلك الكلية التي تحفل بالرؤى والمواقف المتمردة علي الفكر الإسلامي العام منذ عدة عقود.

وإذا بحالـة الانبهـار الثقافي التي اقتحمها خالد مـرة واحدة ــ بعد أن كان مجرد مثقف منعزل نادرًا ما يلتقي بمثقفين آخرين فضلاً عن أعلام الثقافـة وقادتهـا ــ تقلـب الأمور فـي رؤاه ومواقفه رأسًـا علـي عقب وما كانـت نقمته علي شئ مثلما كانت نقمته علي العقـاد بالذات فبعد أن كان عبقرى العباقرة والمرجعية النهائية له صار تافهًا وسطحيًا وحمارًا.

وعلي القارئ أن يتصور مدى معاناة من يحاور خالدًا ــ خصوصًا فيما يتعلـق بمقاومـة الرغبة في الضحك ــ حيث يكون عليه أن يتقبل مجاريًا له كمسلمة لا تقبل الشك أن العقاد كان حمارًا.

ولأن الركيـزة الدينيـة لـدى خالـد كانـت تقـوم فـي الأسـاس علي طه حسـين وحسـين هيكل والعقاد فـكان من الطبيعـي أن يطيح ذلك الانقـلاب الفكـري بهذه الركيـزة المهتزة أساسًـا بسـهولة فليس لطه حسـين من هذه الركيزة سـوى الشـكوك والشـقوق، وهيكل والعقاد لم يقدما بنياناً إسـلاميًا خالصًا أبدًا والأخير استطاع أن يرضى بشكل كبير طرفي الصراع الفكري الدائم في هذه الأمة منذ حوالي قرنين من الزمان أي الإسـلاميين والعلمانييـن معًا، وربما هذا ما حجب عنه جدارة التفرد الحقيقي مقارنة بمنظري الفكر الإسلامي الذين سنتحدث عنهم فيما بعد.

بدايــة اكتشــافي لما ســبق كان عندما كنت أتحـدث بإعجاب عن كتاب الله للعقاد فإذا هو ينتابه الاستنكار والنفور ويشير لي علي أحد الكتب المنثورة علي المكتب (الذي هو ترابيزة طبعًا) وهو يقول: أفضل حاجة قرأتها في هذه المواضيع هو ما كتبه هذا الرجل.

ومع أن قوله (أفضل ما قرأت) لا يعنى كونه يقر بما في الكتاب فقد كان ذلك الكتاب جديرًا بالثناء حقًا، فالكتاب هو (الإســلام يتحدى) للعلامة وحيد الدين خان وقد كان الرجل يمثل تجسيدًا حقيقيًا للمفكر المتفرد وهى النقلة النوعية التي لم يستطع أن يحققها العقاد.

كنــت حين ذلك الحين فــي الأجازة بين الأولــي والثانية ثانوي وكان خالد بين الأولي والثانية جامعة ويكون من المناسب جدًا ـ إن لم يكن مــن الضــروري ـ إلقــاء بعض الأضــواء علي الطـرف الآخـر ـ الذي هو كاتب هذه الســطور ـ حتى نســتطيع أن تقدم الصــورة للقارئ مكتملة بقدر المستطاع.

ومــا أود ذكــره هنــا هــو أننــي إذا كنت ذكـرت أو ســأذكر بعض المثالب أو الانحرافات عن الســوية في شــخصية خالد أو من كان حولنا مــن المثقفين فلا يعنى ذلك أني كنــت مبرأ من ذلك فقد كنت ـ تأثرًا ـ بالبعديــن الأساســيين فــي القصــة المحورية (البعـد العاطفــي والبعد العائلي) أتقطر ألمًا أو كما يقال بالعامية المصرية (أشُر ألم) وكنت الأكثـر توتـرًا داخليًـا علي الدوام، أما المســافة لدي بيــن إدراك قوة الذات والنرجســية وكبرياء الذات فلا اســتطيع أن أحكم عليها أنا، وإنما يحكم عليها غيري.

الأمــر الآخر المهم ذكره هــو أنه كانت تؤرقني كثيرًا جدًا في هذه

المرحلـة المسـافة الكبيرة في التراكـم المعرفي والثقافـي بينى وبين خالد ففضلاً عن الثلاث سنوات ونصف الممثلة للفارق السني بيني وبينه والتـي تعني فارقًا معرفيًا في الكتب المحصلة في هذه المرحلة العمرية يصل إلي مئات الكتب فإن بداية تكريس الوقت المتاح للقراءة المعرفية كان يعد متأخرًا عن خالد بعدة سنوات.

فـإذا كان هـذا التكريس قد بدأ في الخامسـة عشـر والنصف فإنه يبدو أنه قد بدأ مع خالد منذ أن كان طفلاً. ولم استطع ملء هذه الفجوة وتجاوزهـا في بعض الأبعاد ـ بحسـب تقديري ـ إلا بعد أن انقطعت بعد ذلـك (وعلـي الرغم مـن أنفي) عن الجامعة ثلاث سـنوات وانتسـبت إليها ثلاث سنوات أخرى لم أكن أحضر فيها المحاضرات إلا نادرًا.

وبعد أشـهر قليلة من الزلزال الذي حدث في حياتي كانت المدرسـة الثانوية (الأورمان للأوائل وقتها) قد أقامت مسابقة في الشعر وأرادت أن اشـترك فيهـا بإحدى القصائد، فذهبت بها إليـه لأخذ رأيه فيها وأذكر مقطعها الأخير كالتالي: ـ

ها أنت ملكة علي العرش الكبير

ها أنت وهج الضوء المنير

اسطورة من دنيا الاساطير

وها أنا فقير

في الدنيا فقير

لست ملكا .. بل لست أمير

وهيهات لمثلي للوهم يشير

أو يقترب من عروش النور

أو يدور حول أسوار القصور
بل ليس له حق الظهور
علي مسرح المال والجاه
فلست أملك سوى الحياة

فتحدث خالد متأففًا عما في القصيدة من رومانسية وعن عدم علاقتها بالواقع الذي نعيش فيه وعن سيطرة مدرسة أبولو علي أشعاري، ولكن مع ذلك فيمكن تقدمي بالقصيدة للمسابقة نظرًا لأنه من غير المفترض أن يكون مستوى الأشعار المقدمة لها أفضل من ذلك.

وطبعًا القصيدة خسرت المسابقة علي الرغم من كون حكمها الأستاذ مختار أبو بكر الصديق (مدرس أول اللغة العربية بالأورمان الثانوية النموذجية) كان صديقي وكان رجلاً من الطراز العلمي والأخلاقي النموذجي القديم وقد تنبأ لي من قبل ذلك بعام عندما عرضت عليه قصيدة أخرى أقل من هذه في المستوى بأنني سأكون شاعرًا جيدًا ولكنه علق هذه المرة ـ نظرًا لجدية الموقف ووجود مسابقة هو حكمها ـ قائلاً:

ـ مشكلتك الوزن

الطريف أن الفائز في المسابقة قال لي أيضًا بعد أن تعرف بعضنا علي البعض:

ـ قصيدتك أفضل من قصيدتي ولكن مشكلتك الوزن.

أما الغريب في الموضوع أن خالدًا نفسه عندما علم بنتيجة المسابقة علق علي ذلك أسفًا بقوله:

ـ لماذا؟! لقد كانت قصيدة جيدة.

قلت في نفســي: ما هذا؟! خالد يقول عن قصيدة لي أنها جيدة ولماذا لم يقل هذا من قبل، ولكنني سريعًا ما أجبته:

ـ سقطت بسبب فقدانها للوزن.

وعلي الرغم من أن خالدًا ظل أستاذي في فن الشعر لعدة سنوات تالية إلا أنــه لـم يبد اهتمامًا كبيرًا بمســألة الوزن هذه علــي الرغم من كونه يكتب شعرًا موزونًا.

إلا أنــه تحــدث أكثر من مرة عــن رغبته في كتابة شــعر بلا وزن ولا قافية.

وحتــى لــو كان توجهــه غير ذلك فلــم اقتنع مــن جهتي بهــذه القضية أبدًا ، لا في ذلك الوقت أو بعد ذلك وكان من بين اطلاعي علي الأشــعار المعاصــرة فــي هذا الاتجاه شــاعران نثرييــن هما غادة الســمان ومحمد الماغوط وبعيدًا عن توجههما الفكري فقد بهرت بأســلوبهما الفني إلي درجــة كبيرة وأضحت القصيدة النثرية هي الصيغة التعبيرية الأســاســية لــي في كتابة الشــعر واعتقد أن هناك بعدًا فلســفيًا آخر يســتبطن هذه المســألة عندي وهو انســجام هذه التوجه مــع روح التحرر التي تتملكني من أي قيد باستثناء المقدس فإذا كنا في مجال إبداع الشعر فينبغي أن يكون ذلك علي أشد ما يكون .

وأعتقــد أنــه يكون مــن الغفلة لمــن أطلع علــي ما كتبتــه من كتب وأدرك مــا درســت من علــوم أن يوجه لي الاتهــام المعتاد لمــن يذهب إلي التحرر من أوزان الشــعر بعدم دراســته لعلم العروض أو امتلاكه القدرة علــي النظم من خلالها ولكن بعد دراســتي المتكــررة لهذا العلم كان مجــرد التفكيــر في محاولــة إفراغ طاقتي الشــعرية داخل تلــك القوالب

الجامدة تشـعرني بالزيف إلي درجة الغثيان وأذهب إلى أنه عليّ أن أخرج هذه القوالب من رأسي أو تجاهلها تمامًا لو أردت أن أكتب شعرًا حقيقيًا.

وأذكـر أنـه قد حدث منذ زمـن بعيد أن اتهمني أحـد الأصدقاء هذا الاتهام.

فقلـت لـه: أذكـر أي بيتين مـن أي بحر تحب وسـوف أنظـم لك على منوالهما علي الفور.

وحدث هذا بالفعل في خلال بضع دقائق فاقتنع الرجل بصدق موقفي.

والنتيجـة الحاصلة عن ذلك هي انعدام الأمل في اعتراف الإسـلاميين بشـعري هـذا منذ ذلك الحيـن وحتى الآن أى منذ أكثر مـن ثلاثين عامًا فحتى هذا الحين لا أعرف أحدًا من الإسـلاميين يعترف بالشـعر النثري أما حكاية ارتباط الشـكل بالمضمون التي تخيف الإسلاميين أن يحتم التعبيـر من خلال هذا الشـكل الانقياد للمضمـون التفكيكي الغربي المرتبط به فأكذوبة مزيفة قد نناقشها في موضع آخر ولكني أشير هنا إلـي أن العلمانيين يرددون هذه الأكذوبـة حفاظًا منهم علي احتكارهم لهذا الفن دون الإسلاميين ويرددها الإسلاميون أيضًا رهبة من الوقوع في شـك مفترض أشـرنا إليه وقد تم تكذيب ذلك عمليًا في موضوع الشـعر الحديث (شـعر التفعيلة) فقد كان الإسـلاميون من أمثال محمود حسن إسـماعيل وهارون هاشـم رشـيد وعلي أحمد باكثير من أوائل الشـعراء الذين أبدعوا شـعر التفعيلة بعكس ما يتصور البعض، وكثيرًا ما يقال إن محمود حسـن إسـماعيل هـو أول من أبدع شـعر التفعيلـة تحديدًا في الثلاثينات.

كنـت استمع لخالـد وهو يتحـدث عن فن الشـعر في هذه السـنوات

مبهورًا. لم يكن يقل عن النقاد الكبار الذين كنت استمع إليهم حينها مثل الدكتور ماهر فريد والدكتور فخري قسطنطين أو عن النقاد الكبار ومنظري الأدب الذين كنت أقرأ لهم أو قرأت لهم بعد ذلك مثال شوقي ضيف وشكري عياد وصلاح قلنصوة.

كانت أهم نقطة يركز عليها خالد في نقده للأشعار أو حديثه عن الشعر بوجه عام هي الواقعية والواقعية المعاصرة تحديدًا فليس من المهم أن تكتب بعظمة شعر عنترة ابن شداد أو حتى أفضل منه ولكن المهم أن تعبر عن واقعك المعاصر وليس واقعه هو.

وتحت تأثير الرؤية الماركسية للوجود التي تأثر بها تأثرًا شديدًا من خلال عالمه الجامعي الجديد فإن هذه الواقعية المعاصرة التي كان يقصدها هي الواقعية المرتبطة بعالمه المادي المحيط به أو المتفاعل معه تحديدًا (طبعًا الواقعية عندي تتجاوز ذلك الإطار المادي إلي واقع الإنسان الوجودي الداخلي والخارجي بوجه عام).

في السابعة عشر كتبت أول قصيدة تعبر عن القالب الأسلوبي النثري وهي قصيدة «حديث خاص إلي الموت» (نشرت في ديواني، دمي علي يديك)

حيث علق عليها خالد قائلاً: إنها قصيدة تتفوق علي ما قبلها بخمس سنوات.

تقول القصيدة :

أيها الموت المتكرر في كل خطوة ورؤيا

عندما يثقل الدمع الحبيس

في عيون تلفحها نيران الشوق والظمأ

لأن تشرب مرة.
ألا أيها الموت الجائع لنا.
لماذا أراك على حافة كل طريق
تنسج في نبضي الخوف والتردد؟
وتبكيني ألف مرة أمام اليم
حتى أخجل أن أشرب!
سئمت غموضك المنسوج في عيني.
وخطوتي الملوية المجهولة المصير.
ورعشة يدي وأنا أترنح في مشنقة عينيها
وهي لا تألو أن تزيد الشد علي حدة.
سئمت الدمع والحصاد والدمع والحصاد
والدمع والحصاد
وتجاهل عناق عيني لها
والنار المتأججة خلف دخان الرماد.
سئمت عدك وحصدك ورفضك وقبولك
فلتبعد عني مرة.
كي أعرف كيف أختار طريقي
دون الشعور بالعدم
عند اصطناع كل بداية.
أيها الموت المتكرر في كل خطوة ورؤيا
لمَ أحلم.
إما بالموت أو الأسطورة

وإذا كانت القصيدة قد أعجبت خالدًا فإنها قد أبهرت حسن.

وحسـن هو الأخ الأصغر لخالد وصديقي قبله الذي أشـرت إليه سـابقًا ، ورغـم صغـر سـنه وثقافتـه المتواضعـة (كان أغلبهـا سـماعي بحكم حضـوره الدائـم لقـاءات خالـد مـع رفاقـه الآخريـن) كان رأي حسـن فـي الشـعر هامًـا جدًا وذلك لسـبب بسـيط للغاية هـو أن هنـاك اعترافًا ضمنيًـا بيـن كل المثقفين الذيـن يتوافدون علي مغارة خالـد الثقافية ـ وكان بينهم مشاهير في هذا الوقت ـ إن حسن هو أشعر شعراء العامية علـي الأقل في الجوقة الشـعرية التي كانـت تتلاقى في هذا المكان إن لم يكن علي مستوى مصر كلها باستثناء نجوم الشعر الكبار وهذا ما تحقق بالفعل رسميًا بعد ذلك بنحو عشرين عامًا.

مـا أبهر حسـن في القصيدة هـو الحالـة .. أي الحالة الشـعورية .. لقد اسـتطاعت القصيدة أن تنقل إليه الحالة الشعورية التي أرادتها والتي هـي قريبـة منه هو شـخصيًا ، إنهـا قصيدة أقرب إليه هو مني أنا نفسـي فهي تـكاد تمثل تجسـيدًا لحالة شـعورية بلا ضفاف وهذا هـو النموذج الفني الذي يرتجيه حسـن دائما ، بل يكاد يكون هذا معياره للشـعر ولأن هذه الحالة الشـعورية قد تشرذمت تمامًا في ظل واقعه الفكري والاجتماعي المتمزق فقد توافق شـعره المعبر عـن ذلك مع قادة الثقافة المصرية ألما بعـد حداثيين فـي الفترة التالية فنال كبرى الجوائز اسـتحقاقًا للموهبة وانسجامًا مع هذا التوجه.

كان حسـن شـخصًا عاديًا في كل شـئ بما في ذلك كونه شـخصًا أذكـى كثيرًا من الشـخص المتوسـط الذكاء ، فقد كان ذلك شـيئًا عاديًا في بلدتنا في ذلك الوقت ، لكنه لم يكن من المتفوقين أو النابغين الذين يشار إليهم بالبنان ، والشئ الوحيد الذي كان يمتاز به عن الآخرين هو أنه كان يتقطر شعرًا.

كان شاعرًا بالكامل... شاعرًا (من ساسه لراسه) أو ما يشبه ما يقال في كتب تراث الأدب العربي(شاعر مطبوع)

أحب منذ الطفولة تلميذة في المنزل المقابل كانت من علامات الجميلات اللواتي يتصارع حولهن الكثيرون، ولم يكن حسن يحمل من التميز ما يثير إعجاب أمثالها هذا بالإضافة إلي مستقبله المادي الميئوس منه هذا ما جعل نجاح العلاقة بينهما احتمالاً منعدمًا ولم يكن يحتاج حسن تفكيرًا كثيرًا لإدراك ذلك ولهذا قُتلت قصة حبه الأولي ـ والأخيرة أيضًا فيما اعتقد ـ سريعًا جدًا في مراحلها الأولي دون دماء كثيرة وتركت تغوص في أعماق نفسه شبه منسية حيث لا ينعكس انبعاثها مرة أخرى في شعره سوى مرات محدودة جدًا.

أما هي فعلي الرغم من أنها قد صنعت بجمالها قصصًا كثيرة ـ طبعًا تتضاءل كثيرًا جدًا أمام ما صنعته اسطورة قصتنا المحورية ـ إلا أنها مثلها مثل أغلب الجميلات. فقد عاشت حياتها ـ بحسب ما بلغني من أخبارها وأخبار أسرتها بعد ذلك ـ حياة مأساوية وأذكر أنه كان من بين عشاقها أحد أبناء أغنى رجال المنطقة وأقواهم شكيمة وكان هذا الفتى مدللاً من والده إلي الدرجة التي يكاد يقول له معها: إفعل ما تشاء سأكون بجانبك، الأمر الذي أضر هذا الفتى وصنع منه شخصًا مندفعًا متعاركًا منحرفًا مما أدى ذلك إلي فساد وسامته وذكائه الطبيعيين وحاول أن يتقرب إليها من دون أن يتخلص من هذه الطبائع فنظرت إليه كوحش أبله وأغلق الطريق بينهما اعتدائه علي أحد أخواتها، ومن غرائب الأمور أن هذا الشخص الطاغية قد ذكرها لي بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات والدموع تسيل من عينيه، والأغرب من ذلك أن هذا الشخص يضرب به المثل الآن في الوسامة واللطافة والذوق والأخلاق وفن التعامل

مـع النـاس، أقول هـذا وما زال هناك من يدرسـون بعـض نظريات علماء النفس في تقسيم الطبائع والميول وأنماط الشخصية.

ولأن حسـن كان أصغـر أخوتـه فقـد كان رسـول الأسـرة في جلب الاحتياجـات اليومية إلي الشـارع ومن ثم فقـد كان الأكثر احتكاكًا بالنـاس والواقع وربما بالأزمات المالية المتتابعة لأسـرته وكل ذلك ربما زاده أكثر حساسية ويأسًا وكان قليلاً ما يتبادل الكلام مع رواد المقهى المجاور لحوش البيت الذين كان ينتمي الكثيرون منهم لعائلات كبيرة نسـبيًا في البلدة ولـم تكن في بلدتنا عائلة يمكن أن تسـمى أكثر من ذلك: كبيرة نسبيا.

وقدِّر له يومًا أن يسـامر هؤلاء، وكان من بينهم شـياطين يأنفون أن يكون هناك من يمتاز عليهم ولو بالثقافة وكتابة الشـعر حتى ولو كان مسـكينًا فـي حاله كحسـن ، فانتهزوهـا فرصة ليضغطـوا على نقطة ضعفه _ وكان هو في السادسة عشر حينذاك _ فسألوه:

_ ماذا تنوي أن تعمل يا حسن في المستقبل؟

_ سأعمل شاعرًا.

فاتخذوها نكتة يتندرون بها في كل مكان.

كان الوجه المناظر لحسن شعوريًا في مغارة خالد الثقافية هو الأستاذ أحمد فهمي بل كان يفوقه كثيرًا من حيث البراءة والتسامح الإنساني. فهو ليس شـاعرًا فقط من حيث الإبداع الشـعري، وإنما شاعر أيضًا من حيث التعامل الإنسـاني، كان يكبرنا جميعًا بمرحلة من العمر فهو قد يكبرني أنا بأكثر من عشـر سـنوات، وكان الأشهر إعلاميًا بين رواد المغـارة مـن أهل البلدة، ومـن أوائل الذين حصلوا في بلدتنا على شـهادة

عليـا ارتقى من خلالها بدرجات ثابتة في السـلك الوظيفي هذا بالإضافة إلى كتاباته النقدية التي برز فيها بشكل لافت، ومع كل ما سبق كان يتحدث مع كل منا أيًا كان سنه أو وضعه على أنه (عشرة عمره وزميله في الشلة).

لـم يكن أحمـد فهمي وذلك علـى النقيض من خالـد ومحمد الخولي الذي سـأذكره لاحقًا رجلاً أيديولوجيًا أو حتى سياسـيًا بالمعنى الدقيق. كانـت أيديولوجيتـه الوحيدة هـي الحرية الكاملة التي ينشـدها فيما يفعـل أو يكتب ولـم يكن هذا يعني بأية حال جنوحـه للحرية الإباحية، فلـم يعـرف عنه فـي البلدة شـيء من ذلـك على الإطـلاق وإنما هـو يريد التحـرر من تلك القيود والتقاليد الاجتماعية البليدة والتي تحرم الإنسـان من أبسـط القواعد في حرية تفكيره تلك القيود والتقاليد والتي كثيرًا ما تلتبس ظلمًا بالإسـلام فتمتد الثورة عليها في بعض الأحيان إلى الثورة على القواعد الإسلامية نفسها.

ويمكـن القـول إن محمـد الخولي هو أحـد أضلاع التـوازن في الثقة بالنفـس في مغارة خالد وإن يكـن حضوره فيها كان قليلاً جدًا ولكنه مؤثـر للغايـة وكأنـه يضع النقـاط على الحـروف مع تسـليم الآخرين ـ غيري ـ بذلك، فقد كان أحد المتفوقين النابغين في الدراسـة .. طالبًا في كلية الطب، وأوسط ثلاثة كلهم من المتفوقين. وقد كانت البلدة تعطي اهتمامًا فائقًا لهؤلاء المتفوقين حتى ذلك الوقت. وكانت الأسـرة من سـكان البلدة القدامى وليسـت من أهلها، ويبدو من السـكن الذي كانـت تقطنه وظاهر معيشـتها أن عائلها كان مـن الموظفين القدامى حاملي الشـهادات وإنهم من فئة الميسورين الذين بدأوا يشعرون بالمعاناة مع النصف الثاني من العهد الساداتي.

كان البعد الثقافي لمحمد الخولي هو السياسة ولكنها ليست السياسة المتعلقة بالأحداث الجارية التي يتناولها المثقفون بوجه عام، وإنما السياسة بأبعادها العميقة الفلسفية والاقتصادية والاجتماعية، وطبعًا كانت الماركسية هي اللون الأيديولوجي الوحيد الشائع الذي يحمل كل هذه الأبعاد الثقافية في ذلك الحين، وهنا تبرز المعاناة الفكرية لذاك الجيل من الشباب المسلم في تلك المرحلة في الوقت الذي كان يسيطر فيه الماركسيون على الساحة الثقافية الرسمية منذ الستينات ثم غير الرسمية بعد ذلك وقد غدت الماركسية هي الأيديولوجية الأكثر قبولاً وانتشارًا لدى الكثير من الشباب بعد مبادرة السلام. وفضلاً عما كان لهؤلاء من مفكرين بارزين على الساحة العربية، فقد كان لديهم الرصيد الفكري من النظريات الفلسفية والأيديولوجية التي تتناول الواقع الحديث والمعاصر والمتمثلة في كتب ماركس وانجلز ولينين ومنظري الماركسية التاليين أمثال بوليتزر وشيبتولين وجارودي أما نحن فما الذي كان لدينا؟

إنها مسئولية أمام الله أن أقول: إنه لم يكن لدينا ـ وأقصد هنا من ينتمون للاتجاه الديني في مصر ـ سوى كلام فارغ. وإذا قلت غير ذلك فأنا كاذب مضلل أشارك في المسيرة القذرة للتضليل الفكري والسياسي للكثيرين من قادة هذا الاتجاه لابنائه.

ـ فج جدًا هذا اللفظ.

أعرف أن البعض سيعلق بذلك ولكن هذا اللفظ أقل بكثير من تقديري للأمر.

ما هي التساؤلات الفكرية التي كان الشباب يحتاج الإجابة عنها في

ذلك الوقت والتي أغلبها مازال الاحتياج إليه مستمرًا حتى الآن؟

إنها التساؤلات المتعلقة بالإيمان والإلحاد والرؤى الفلسفية المعاصرة للإسلام وللأديان عمومًا والقدرة على نقد هذه الرؤى ونقد هذه الفلسفات نفسها ثم ما هو المشروع الإسلامي البديل للواقع الذي نعانيه وللمشاريع التي تطرحها الفلسفات المقابلة في كل مناحي الحياة الأيديولوجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وما غير ذلك.

كان جمال الدين الأفغاني قد صنع طفرة فكرية في نهاية القرن الثالث عشر الهجري حاول وصل ما انقطع من تطور فكري إسلامي في نهاية القرن الثامن بموت ابن خلدون والشاطبي .

بلغت هذه المرحلة التأسيسية فورتها بموت محمد فريد وجدي في أوائل الخمسينات من القرن العشرين الميلادي، ولم تكن قد أنجزت بعد كل الاستجابات الوافية للاحتياجات الفكرية التي تتطلبتها تلك الفترة الطويلة من الانقطاع إلا في بعض الامتدادات المجهولة لمفكري الظل العظام من علماء الأزهر الشريف مثل محمد عبد اللّه دراز، محمد صادق العرجون، عبد الوهاب النجار، محمد البهي .

كلا التراثين (من الأفغاني لفريد ــ وما بعد فريد إلى البهي) قد تحالف على تجاهله ــ بل وموراته ــ التيار الديني المؤسسي السائد والتيار الديني غير المؤسسي السائد وكلا التيارين لا يحملان سوى التسطيح قدرة وغاية.. قدرة بمعنى افتقادهما لأصحاب القدرات الفكرية العميقة، وغاية بمعنى أن صناعة الوعي الفكري لدى الشعوب يهدد مصالح كلا التيارين وأهدافهما .

حقًا كان هناك الغزالي والشعراوي ومصطفى محمود ولكن كل

هؤلاء كان من أصحاب النظرات الفكرية الذكية وليس من المفكرين المرجعيين الذين يمكن الاعتماد عليهم في تطاحن الأفكار والمذاهب أو في طرح المشروع الحضاري العريض . وما كان حتى هؤلاء من يتم توجيه الشباب إليهم من أغلب التيارات الإسلامية السائدة.

كان هناك مفكر واحد يتم توجيه الشباب إليه غير كل هؤلاء على أن لديه سر أسرار الإسلام في الإجابة على كل الأفكار التي يطرحها العصر، هذا المفكر هو سيد قطب ولهذا السبب _ كما يشاع _ اغتالته يد العدوان لتحرم الإسلام من عبقريته ونبوغه حتى أن الشعراوي نفسه في محاضراته في تفسير القرآن كان يشير إلى فضل سيد قطب عليه في تفسير بعض المواضع (لاحظ أن الشعراوي كان يمتدح سيد قطب وطه حسين معًا).

أقبلت على كتب سيد قطب مثل الذين أقبلوا ، وملأتني الحماسة والنشوة والحرارة الإيمانية منذ إطلاعي على كتبه الأولى ثم ما بعد ذلك؟ هو نفس ما قبل ذلك، ثم ما بعد ذلك؟ لا شيء .. ولا شيء هنا تحديدًا هو فيما يتعلق بالأصالة الفكرية الكبرى التي أشرنا إليها.

أقول هذا وقد قرأت تقريبًا كل كتب سيد قطب باستثناء كتابٍ أو اثنين وكذلك مجلدين من تفسيره أيضًا. وأذكر أنه حين توددت علاقتي بالمفكر السياسي والاقتصادي عادل حسين بعد ذلك بست أو سبع سنوات وكان يعمل على أن يكون له مركز قيادي في الحركة الإسلامية ، ذكر لي في تلك الفترة سأنه يحاول مواصلة قراءة كتب سيد قطب ولكنه يجده لا يتحدث إلا عن شيء واحد هو الإسلام والجاهلية ، ولكن الغريب أن كاتبًا من الجيل التالي لنا ذكر أمامي أنه لا يطيق قراءة سيد قطب فهو لا يجد فيه سوى الفراغ.

أما أطرف ما قيل في فكر سـيد قطب فهو ما قاله صديقنا المفكر السياسـي الدكتور محمد مورو فبعد أن ذكر التكرار في فكره قال إن ذلك أشـبه ما يكون براوٍ نشـر رواية في كتـاب كبير، وتحدث في أولهـا عـن ذلـك الفارس الـذي بلغه أن هناك مـن يحاولـون الاعتداء على زوجته التي تبعد عنه مئات الأميال في الصحراء فامتشـق سـيفه وامتطى جـواده ومضـى يسـابق الرياح فـي الصحراء، وصـوت الجـواد يقول وهو يجري: دري جن .. دري جن .. دري جن ....

وظل يكتب إلى آخر الكتاب كلمة دري جن .. دري جن .. دري جن.

وما أراه أن الأستاذ سيد قطب ـ رحمة الله عليه ـ لم يكن مفكرًا، إنمـا هو أديب وشـاعر، متوقد القلـم، وناقد، أديبًا فـذًا، يعرف كيف يغوص إلى عمق المعنى ويحدد قيمته (وإن كان في تاريخه النقدي جنوح مـن التحيز ـ خصوصًا لأسـتاذه العقاد ـ وقد عومـل بالمثل) والتراكم المعرفي لتكوينه الثقافي (الإسـلامي وغير الإسـلامي) قام أساسًا على ذلـك. فلم يكن لديه التراكم المعرفي الـذي يتطلبه التكوين الثقافي للمفكـر من الأصل، سـواء فيمـا يتعلق بالعلوم الشـرعية الإسـلامية أو بالفلسفات والمذاهب المقابلة القديمة والمعاصرة.

أما المشـكلة الكبرى التي صنعها سـيد قطب فهي ذهابه في معالم في الطريق إلى وجوب الاستيلاء على السلطة أولاً ثم يتم إدراك المشروع الإسلامي من خلال الممارسة.

إن هـذه الفكـرة أدت إلـى جمود الفكر الإسـلامي لمدة نصف قرن حيث لم يعد مهمًا تبعًا لفكرته تلك الاجتهاد في إبداع هذا المشروع.

ثـم أن فكرتـه هـذه هيـأت المجـال للمدعيـن أن يطالبـوا النـاس

بمسـاعدتهم في الاسـتيلاء على السـلطة ثم يقدموا لهم أي مشروع زائف ويقولون لهم هذه هو المشـروع الإسـلامي لأن الناس لم يطلعوا على هذا المشروع من قبل حتى يأمنوا الغدر بهم.

ومـع كل ما سـبق فقـد كان مـن الممكن الاسـتفادة مـن العاطفة الجياشة الموجودة في كتب سيد قطب في دفع الناس إلى التقرب أكثر من الإسـلام وذلك بالتعامل مع كتب سـيد قطب على أنها كتب عاطفة وحماس وليست كتب قواعد وأحكام.

رحم الله سيد قطب

فـي ظـل هذا الواقـع الثقافي تقدمت لخالـد بهذه القصيـدة في أوائل الثمانينات والتي هي :

أحزان الفارس الآتي

كيف عصرتك آلاف القرون؟

أنت يا من تهذى بالأطياف التي تحوم في الفضا .
بالحدائق التي تتلون كلما آتتك عيون العصافير التي تعشقها.
بالمساء الذي يجمعك في لقائك الكوني المثير.
حين يهديك الوجود لتحلم مع الأزهار.
والعصافير والحقول.
وترسم من وجدك المجنون آلاف القصور الخضر ،
فوق أجنحة الخلود الذي ينقلك من حمق تكوين العوالم ،
للغز اسرار القبور.

***

وأراك تمضي بين البساتين.

تتغنى بأول الأناشيد التي هجرتها الأطفال تحت سياط آبائهم.
تأكل من الأوراق التي عافتها الذئاب.
تسكن في الكهوف التي تأوى الوحش.
تحاول ترويض الوحوش التي تلوك اجزاء جسدك.
فتلوذ بالطيور التي نذرتك أن تهجر الوديان التي
تتعارك الأشجار فيها.
فتحوم حول وجهك.
تنقل أسرار دمعك.
تنشر كل صراخك الدموى بين صفحات الفضا.
ثم تهجرك الطيور.

***

أنت الآن ترتاد المدائن
وتلوذ بالصمت المحنك.
ويحوم وجهك.
ويحوم وجهك
بين أضواء القصور الشاهقات.
والضباب المكثف في الوجوه.
بين وجوه الصبايا الفائتات
والشباب الذي صهرته النشوة المجنونة
بين إحباط الضلوع الضامرات
وتغيب في ضجة العريان.
ثم تصحو على صرخة الأطفال الذين تتساقط أجسادهم
من الإعياء.

تتمزق بين دنيا الله التي سكنتك
والزيف المحنط في الصدور
تمضى كالسر..........
وتوقفك كل شارات المرور.

***

وأراك تبدو هازئًا.
تسخر من قضاتك الماجنين.
من المقت الراجم في نظرات الجهلاء.
من القهر الذي استوطن الناس.
وينهشك الصراخ الذي يضيع بين الجموع سُدى.
سوف تتبادلك السجون ، القيود ،
ألسنة النساء العاهرات.
سوف يهجوك كل أبناء الغيوم
وتنام منهوك القوى
فتزورك الأحلام التي تصحبك كل مساء.
فتصحو منهوك الشعور.

***

سوف تمضي صارخًا
تلعن الكلمات التي أخرسها البكاء
تلعن الأيام التي تمضي دونما يبذر في الأرض غرس.
تلعن الضوء الذي يخفي الحقائق
ويطاردك سادة القوم والسفهاء بالأحجار.
تتناقل كلماتك الأطفال.

فتفجر الكبت المرصع في الصدور.
سوف يرضى عنك بعض الناس .
وتعيش بين مطاردة الأماكن.
بين كونك المرجوم.
وكونك الصاعد في السماء.
وتعيش منهوك الشعور.

قرأ خالد القصيدة وهو ينظر إليها بتعجب ثم قال:

ـ قصيدة رائعة .. النهاردة ميلاد شاعر .

ثم أعطاها لرواد المغارة الذين كانوا موجودين في هذا الوقت والذي كان من بينهم أخوه حسن على الأغلب فأقروه على رأيه . ولا شك أن الأستاذ أحمد فهمي اطلع على القصيدة وذهب لنفس الرأي وإن كنت لا أتذكر متى كان هذا الوقت بالضبط.

أخذ خالد يزرع أرض الغرفة والصالة المظلمة ذهابًا وجيئة وهو يترنم: يتغنى بأول الأناشيد التي هجرتها الأطفال تحت سياط أبائهم.

لم يمر وقت طويل حتى زار المغارة محمد الخولي . في أحد اللقاءات المحدودة التي قابلته فيها هناك دفع خالد بالقصيدة إلى محمد الخولي في نشوة من الانتصار بأن أحد تلاميذه في الشعر كتب مثل هذه القصيدة ، لكن بعد أن أعلن الخولي إعجابه بالقصيدة قال تعليقا يعبر بشكل خاص عن وعيه الفكري:

ـ رغم شاعرية القصيدة لكن العجيب أنها تنطوي في نفس الوقت عن بنية فكرية قوية جدًا.

فرحت بتعليق الخولي هذا .. فقد وجدت فيه فهمًا عميقًا لما أفكر فيه.

ثم اتجه الخولي بحديثه إلى خالد قائلاً:

لقد رأيت مكتبته .. إنها مكتبة عجيبة تجمع اتجاهات شتى.

كانت لثقافة خالد العميقة وشخصيته الجذابة الأثر البالغ في تعدد علاقاته واتساعها بما لم أشهد له مثيلاً في حياتي بالنسبة لشاب مثله مازال في أوائل العشرينات من العمر. كان يزوره في مغارته في ذلك الوقت عدد من مشاهير الثقافة في مصر، وكان من بينهم أشهر وأهم شاعر عامية في مصر والذي كانت تربطه بخالد صلة صداقة وثيقة، ومن جملة القول أنه لو لم يكن خالد عقلية ثقافية فريدة ما كان قد لاقى كل هذا الاهتمام من هذه الشخصيات. وما يحزنني حقًا أن هذه الثقافة العميقة التي تمتع بها خالد في شبابه الأول لم يتجسد حتى الآن في تحقيق المكانة الأدبية أو الموقع الثقافي الذي يتناسب معها.

كانت هي المرة الوحيدة التي قابلت فيها هذا الشاعر الكبير قدرًا في مغارة خالد وكان يتحلق حوله حينذاك عدد كبير من المثقفين من رواد المغارة. بادر خالد بتعريفي للرجل بقدر كبير من المبالغة كعادة المثقفين في تقديم أصدقائهم حتى المخالفين منهم لهم في الاتجاه.

_ هذا الشاب صديقنا محمد قد يصبح خوميني مصر.

_ حقيقي هذا؟ .. إنت إخوان ياحاج محمد؟

_ لست من الإخوان، بل واختلف معهم كثيرا جدا، ولكني ذو توجه إسلامي.

عاد خالد ليقول:

ـ المشكلة إنه شاعر إيضًا.

ـ إذن أريد أن أسمع.

ـ إقرأ له يا محمد قصيدة (أحزان الفارس الآتي) ..

قرأت القصيدة بين صمت تام من الحاضرين.

لم يعلق الشاعر الكبير إلا بشيء واحد . قال بتعجب:

ـ أين استطعت أن تكتب هذا الكلام.

ـ في الشارع.

ـ حقًا هذا الكلام لا يمكن كتابته إلا في الشارع.

ولكن أين أنت كبديل؟ أريدك أن تعيد المقطع الأخير مرة أخرى.

وبعد أن أعادت المقطع قال:

ـ هنا فعلاً البديل الذي تقدمه.

بعد تدخل من الحاضرين في النقاش عاد الشاعر الكبير ليسألني:

ـ ولكن قل لي .. أتأمل حقًا في تغيير هذا الشعب ابن (..........)

ـ نعم.

ـ إنك تحلم (إذا كنا احنا يا كفرة مش قادرين عليه، حتقدروا عليه انتم يامؤمنين).

لم يمر وقت طويل على هذا اللقاء، حتى تورط ثلاثتنا (أنا وخالد وأحمد الخولي) في الدخول في هذا الحوار، وذلك بحضور بعض رواد المغارة الآخرين الأقل سنًا.

وأغلب الظن أن وجود الخولي ذاك السياسي الأيديولوجي الماكر كان وراء ذلك التورط.

وأعتقد أنني لن أستطيع أن أذكر مادة نسيج هذا الحوار العميق والمكشوف بيننا جيدًا ولا حتى محاوره الأساسية . ولكني سأحاول جهدي أن أذكر أهم هذه الأمور وأعمل على إعادة نسجها في سرد تحاوري أجتهد أن يكون هو الأقرب إلى الحقيقة.

***

أغلب الظن أن وجود محمد الخولي هو الذي استدعى هذا الحوار ولنفترض أنه هو الذي بدأ :

_ ليس معقولا أنى كلما أحدثك في أي أمر من الأمور تقول لي الدين يقول كذا أو لا يقول كذا. ضع قضية الإيمان باللّه جانبًا الآن. مشاكلنا هي أن الناس يعيشون في قهر ولا يجدون ما يأكلونه والإمبريالية العالمية بقيادة أمريكا و إسرائيل تحتل أراضينا وتقتل أهلنا هذه هي المشاكل التي يجب أن نواجهها.

_ كيف أترك مسألة الإيمان جانبًا ، إن مسألة الإيمان أو عدمه هي التي تحدد الموقف من باقي المسائل الأخرى.

الذى يحدد المواقف هي مصالحك من حيث إنك تملك أو لا تملك. الأغنياء هم الذين يتحالفون مع الاستبداد ، من يملكون هم الذين يصنعون لك هذا الدين الذي تتشبث به لتدخل الجنة وتترك لهم الدنيا التي يتمتعون بها.

_ بل قواعد الدين هي التي تحدد مسارات الثروة وكيفية الاغتناء وحدوده ووظائفه مثلما تحكم باقي مسارات الحياة ، أما ذلك الدين المنعزل الذي لا ينعكس على الواقع المادي للحياة فهو هناك في أوروبا التي جاءت منها هذه الفلسفات.

ـ وماذا فعل الإسلام هنا للمقهورين والجائعين.

ـ وهل الإسلام هو الذى يسود هنا لتسأله عن ذلك.

ـ إنكم تريدون محاكمة الإسلام لأنه لا يعالج المشاكل التي أفرزتها لنظم وقواعد الفلسفات والحضارات الأخرى التي تحكم المجتمع الآن. ومع ذلك فلولا وجود بعض التطبيقات الإسلامية لزاد القهر والفقر استفحالاً في مجتمعاتنا هذه ولأكل الناس بعضهم بعضًا.

ـ وهل الشريعة التي تتحدثون عنها لو طبقت هي التي ستنقذ الفقراء من خلال الصدقات؟ نحن لدينا نظام اقتصادي نريد تطبيقه لكن الإسلام لا علاقة له بالاقتصاد غير بعض الإرشادات الأخلاقية التي يتم بها الضحك على الذقون.

ـ أنت تتحدث في الشكل المزيف من الدين.

ـ الإسلام أو غيره تعاليم يتلاعب بها البشر كما يريدون . الدين بحسب استخدامه.

ـ لا...الإسلام حقيقة ثابتة له قواعد ثابتة وليس تعاليما في الهواء الطلق يصنع بها البشر كما يريدون، هذه الفكرة التي تفهمونها أو تريدون الناس أن يفهموها ، الإسلام ليس بسلبية دين الحضارة الغربية من الحياة والتى جاءت بهذه الفلسفات. فى الاقتصاد مثلا ليست المسألة مجرد صدقات أو تعاليم أخلاقية ، التي يجب أن تمضى فيها مسارات استغلالها ، الإسلام يحدد ماهى الملكيات العامة وماهى الملكيات الخاصة وماهي الأهداف التي يجب أن تنمى هذه الملكيات لتحقيقها ، الإسلام ليس كالشرق فى

الاقتصار على الملكيات العامة. وليس كالغرب فى القتصار على الملكيات الخاصة.

الإسلام هو الذى يحدد علاقات الإنتاج وليست علاقات الإنتاج هي التي تحدد الدين كما تعتقدون.وهو الذى يحدد الأهداف التي يجب أن توظف لها هذه الملكيات وهذه الأهداف تخالف الجانبين معًا في أن المسألة ليست مجرد تحقيق.

التراكم المادى وإنما تحقيق غايات الإسلام نفسه فى إعانة الناس على تحقيق العبودية للّه وليس مجرد السعي إلى تحقيق رفاهية الإستهلاك، خذ مثلاً فكرة معاداة الإسلام للترف.الترف والمترفون لا يأتي ذكرهما في القرآن إلا مع اللعنات والهدف البديل هو الحياة الطيبة التي تعين الإنسان على العبودية للّه، والإلتزام بهذا الهدف فى نفس الوقت الذى يضيق الخناق على كنز المال وتحقيق مثل هذا الهدف يعنى الدفع بفائض الثروة للدوران في حركة المجتمع كله. هذا غير الكثير من القواعد والأحكام فمسألة موقف الإسلام من الاقتصاد كبيرة جدًا. (الرؤية المذكورة هنا أقل كثيرا من الرؤية التي قدمناها للاقتصاد الإسلامي في كتابنا نقد الليبرالية وأكبر من تصوري لها حينذاك) .

ـ لكننا نحن نستطيع أن نلخص موقفنا..الفقراء لن ينتظروا تحقيق كلامك هذا حتى ولو كان حقيقيًا فالمسألة لدينا واضحة، هناك أغنياء يعيشون فى رفاهية وغطرسة كاملة وهناك فقراء لايجدون بما يأكلونه، إذن لابد من ثورة هؤلاء على هؤلاء لتقسيم الثروة تقسيمًا عادلاً أما أنتم فتخدرون الناس عن ذلك بأوهام لا يمكن تحقيقها.

ـ دعني أسـألك أنت أو فكرك أو من يريد من الناس الثورة الطبقية علـى الطبقات المسـتغلة وكلنا نعلم أن هـذه الطبقات هي الأقوى وهـي المدعومـة مـن القـوى الإمبرياليـة كمـا تقولـون. إذن كم ستكلف هذه الثورة من البشر ومن الذي يضمن لها النجاح.

ـ إن أي خطـوة ثوريـة حتى ولو لم تنجح فهـي بمثابة رافعة للثورة التي تليها أى أنها لا تذهب هدرًا.

ـ ولمـاذا يموت هذا الجيل فى سـبيل مصالح قد تعود أو لا تعود على الجيل الذى بعده.

ـ مـن أجـل المبادئ الإنسـانية من أجـل الكرامة من اجل أن يشـعر الإنسان بإنسانيته.

ـ يادكتـور أأنتم الذين تعتزون دائما بأنكـم ماديّون وواقعيون، أنا شـخصيا مع الواقعية جدًا، خصوصًا انهـا فرضت علىّ فى حياتى فرضًـا. والواقعية تقـول أن كل هذا الكلام الذى تتحدث عنه هو مجرد يوتوبيا «ميتافيزيقا» سـمه ماشئت، لكن ليس لها أي تأثير حقيقي بين الرغبة والرهبة وليس من أجل شئ آخر.

أمـا العقيـدة التي تريـد أن تنفيها أو تنحيها جانبًا فهـى الدافع الوحيد للتضحيـة، إنك أشـرت إلـى الإحتـلال الصهيونـى والأمريكى فكيف نسـتطيع ان نقدم ضحايـا للتخلص من ذلك دون ان تكـون هناك عقيدة دافعة لذلك.

ـ لمـاذا تتصور هـذا الإرتباط الأحادي بيـن العقيـدة الدينية والعمل الإنسـاني والتضحية. النظام موجود في روسيا والغرب دون إحتياج للتعاليـم الأخلاقيـة والدينيـة. الروس قدمـوا ملايين البشـر فداءً

للشـيوعية. المسـألة الآن أصبحت قوانين علمية تحكم كل شئ ولا حاجة لتلك الميتافيزيقيات التي تتحدثون عنها.

صدقنـي ولـو على المستوى الشـخصي أنـا اكثر منـك واقعية وأنت الميتافـزيقى، أى نظام او مبادئ إنسانية تلك التي تتحدث عنها. الجرائم التـي حدثـت عندما قطـع النور فى امريـكا أو اليابـان أضعاف أضعاف التي تحدث فى الظروف العادية، ستالين روسيا قتل عشرين مليونًا لـكي تنصاع الناس للمبادئ الشـيوعية ثم تحدثنى عـن الملايين التي ماتت من أجـل الدفـاع عنها فى الحرب، الناس كانوا يسـاقون للمـوت فمنهم من كان يقاتـل خوفًا أو إقتناعًا بعقيدة أخـرى وإن كنت لا أنكر أن هناك من يموت إستغفالاً بمثل تلك الأفكار التي تتحدث عنها.

- إنـك بهذا تنكر المبادئ الإنسـانية، أذا تم إنـكار العقائد وبهذا تسقط فى معنى سئ جدًا هو أننا من غير العقيدة الدينية نعيش فى غابـة وكأنكم تقولون لنا إما أن تعيشـوا فـى غابة، وإما أن نلغى حريتكم ونكرّس مظالمكم وإما يأكل بعضكم بعضًا.

تدخل خالد:

- صحيـح .كيـف يتم التوافق بيـن العقيدة و بين الحرية الإنسـانية.. الفـن مثـلاً لا يمكـن أن يكـون فنًـا إلا اذا كـان طليقًـا بلا قيود والعقيـدة تعنـى مجموعة من القواعـد والمحددات.والإسـلام على وجه التحديد يدّخر بالإحكام والحلال والحرام فكيف يتفق ذلك مع حرية الفن. أم أن علينا جميعًا ألا نكتب شعرًا إلا كشعر الإمام الشـافعى والقعقاع بن عمرو، وإلا نكون بغير ذلك كفرة نكتب شعرًا منافيا للدين ومتحديًا بأحكامه.

ـ أنت قلت أن الإسـلام به الـكثير مـن الأحـكام وطبعا إختلف معك حجم هذه الأحكام فالمسـألة تختلف بحسب الناظر إليها هل هو من الداخل أم من الخارج.

ومـع ذلـك فـأى كان حجم فقـد عاش المسـلمون فـي أرقـى العهود وخالفـوا هـذه الأحـكام ولـم يكونـوا بذلـك كفـارا لأن كل إبن آدم خطـاء، وكذلـك الفن يصح ويخطئ مثل المسـلم ذاته يصح ويخطئ ولا يخرج بذلك عن الإسلام.

ـ أنـت تتناقـض فى هـذا الـكلام٠ فهناك شـعراء يتحـدون اللّٰه أو ينـكرونـه فـى أشـعارهم، والـكثير يسـخرون من كل الشـرائع الدينية والحلال والحرام. فهل هم

فى ذلك يظلون مع ذلك مسلمين.

ـ كونهـم مسـلمين أم غيـر مسـلمين تلك مسـألة أخرى لهـا قواعد عديـدة ولكن سـؤالنا هو هل يدخل هذا في نطاق الإسـلام أم لا؟ والإجابة هي نفسها في الفرق بين علاقة المسلم بالشرائع من حيث الإقـرار والمخالفة، فإذا اجتمع الاثنان فـكان بها وإن هذا أمر لا يكتمـل إلا مـع الأنبيـاء، وإذا اجتمـع الإصرار مـع المخالفة قلت هـي أم كثـرت كان من بين النـاس، أما اذا اجتمـع الإنكار مع المخالفة أو حتى انفرد بنفسه فهذا يخرج عن نطاق الإسلام.

خالد متوجهًا لمحمد الخولى ومشيرًا إلىّ:

ـ مشكلة هذا الولد إن لديه إدراج مثل كانط.

ـ ما الذى تعنيه بذلك.

ـ أي أن أفـكارك منعزلة عـن بعضها البعض، وكأن كل منها فى

درج غيـر الآخر، وهذا الذى أقوله ليسـت شـتيمة لـك، فقد كان كذلـك (ملحوظة قرأت كثيرًا لكانط وعنه منذ ذلك الوقت ولم تقابلني حكاية إدراجه تلك).

ـ إذا كان هـذا المعنى الـذى تقصده فلا أعتقد أنى كذلك أيضا ٠ ولكـن المسـألة أن تصوراتكـم الخاطئـة عـن إسـلام متناقـض تعتقـدون أنـه حقيقيًا هـو الذى يجعلكـم تتهمون مـن يقدم لكم الإسلام بصورته الحقيقية انه متناقض.

عاد محمد الخولي ليقول:

ـ بل الذى أراه أن قراءته لسارتر التي أثرت عليه، وأنا أقول له فلتترك الفلسـفات جميعًـا وليكن علينا العمل المشـترك مـن إنهاض تلك الطبقات المعدمـة وتحرير أراضينا من الإمبريالية العالمية، بعيدًا عن الفلسفات فليس لنا سوى العمل المشترك الآن العمل المشترك وحتى لو نجحنا ما هي صيغة العدل المقترحة.

ـ كل يعمل بحسب طاقته ويأخذ بحسب حاجته.

ـ هـذه هي منتهـى الطوباوية إنه كلام أقرب إلى الشـعر، والواقعية الحقيقية

تقول أن الإنسان يريد كل شئ، ودون أن يعمل شيئًا وحتى لو استطعنا تقسـيم الثروة بالمساواة فإن هذا ليس عدلاً لأن باقي المميزات الطبيعية كالقـوة والذكاء والجمال والصحة وغير ذلك غير مقسـمة بالمسـاواة. مفهوم العدل نفسه مجرد كلام مطلق ولم يتفق عليه اثنان من الفلاسفة فكيف سـنطبق العدل، بدون العقيدة لن نسـتطيع أن نضع مفهوما حتى للعـدل وبـدون عقيدة لن تقدم هنـاك تضحية من أجل رفـع المظالم .ولن

تكون هناك تضحية من أجل التحرير ومواجهة الإمبريالية.

ياسيدى أنا أٌقدم التضحية من اجل اللّه فإذا لم يكن هناك اللّه فلماذا إذًا أُقدم التضحية.

ـ العالم المتقدم يعمل من غير اللّه.

ـ العالم المتقدم يعمل من اجل المصالح التي يحكمها خوف النظام فإذا غاب ذلك لأى سبب من الأسباب فلا يرتدع احد عن شئ.

مع الإقرار بأن هناك من بين هؤلاء من لهم عقائد أيضا يعملون من أجلها.

الخلاصة هي كما يقول سارتر وكما قال دستويفسكي أعظم محلل نفسى

في تاريخ الإنسانية: إذا لم يكن اللّه موجود فكل شئ مباح.

تدخل خالد ضاحكًا:

ـ هذا الولد خطير، لو لم يكن مؤمنًا لكان قد فجر.

عاد الخولى ليقول:

ـ كلامك هذا غريب، ما الذى يعنيه هذا؟ هل يعنى هذا انه من غير إيمان باللّه نضع ايدينا على خدودنا؟ أليس من الافضل من ذلك أن نستفيد من القوانين التي تحكم تطور المجتمعات لصالحنا؟

ـ من الذى قال أن هذه القوانين التي تتحدث عنها انها صحيحة؟، غن ماركس فيلسوف مثل كل الفلاسفة يخطئ ويصح أما جعل أفكاره قوانين علمية فذلك هو منتهى الميتافيزيقا، والأهم هو لماذا كل هذا اذا كان فقدان الإيمان

يُفقد القدرة على التضحية و يُفقد معنى العدل و يُفقد حتى معنى

المعنى.

ـ معنى ما تقوله اننا اذا فقدنا الايمان فلنا أن نفعل أى شئ وتتحول الدنيا الى عبث فى عبث.

ـ نعم تتحول الدنيا الى عبث فى عبث ، أو يمضى الناس فى الإستغراق فى المتعة لإلهاء نفسها عن هذا العبث وهذا ما يحدث بالفعل.

تدخل خالد محاولا ان يوارى ما إنتابه من فزع بابتسامة كبيرة وهو يقول:

ـ يعنى إذا فُقد الايمان نفعل ما نشاء أى أنني من الممكن أن أعيش أشرب الخمر على طول. وسّع يابني إنت وهو ، الولد محمد هذا يقول كل واحد يعمل ما يريد أن يعمله وأنا صراحة غاوى أشرب خمرًا طول العمر ، و أكتب شعرًا طول العمر ، و أريح رأسى من كلامكم كلكم.

ربما لم ألتق مع رواد المغارة فى لقاء مثل هذا مرة أخرى ، وانقطعت علاقتي بخالد بعدها بحوالي عامين ، أما احمد فهمى فكان لي معه عدة لقاءات بعد ذلك بأكثر من إثنى عشر عامًا ، وكنت بصدد إصداري لديواني الأول «**أنت أعطيتى البراءة لقاتلينا**» وأردت أن أطلع على رأيه فيه ، وكان قدرًا فى الله أنه أبتلى وقت ذلك بفقدان والدته فصدم صدمة شديدة ألزمته بيته. وعكف على قراءة القرآن ودراسته. وأذكر أثناء ذلك أن ذكرت إحدى الآيات أمامى فشكك فى صحة ذكرى لها وما لبس أن ذكرني بالنص الصحيح. وقد شكى لى أثناء ذلك اتهام الوسط الثقافى له بالدروشة ، ثم أخذتنا ظروف الحياة بعيدًا بعد تركى للبلدة وهو الان احد اعلام الواقع الثقافى المصرى شاعرًا وناقدًا.

أمـا حسـن فأخـذ مكانته منذ أكثر من عشـر سـنوات كأحد أهم شـعراء العاميـة وإن لم يخرج عن السـياق الـذى كان يكتب فيه منذ ان كان صغيـرًا ولـم نتقابـل الا مـرات محـدودة جـداص كان آخرها منذ أكثر من إثنى عشـر سـنةا، ولم أشعر أن حسن قد تغير خلالها كثيرًا ، وان كان أتقن كيف يكون مدرسـا وزوجًا تقليديًا ويظل شـاعرًا مابعد حداثيّا فى نفس الوقت.

وربمـا لـم أقابـل الخولـى إلا مـرة واحـدة بعـد ذلك بإثنى عشـر سـنة وحدثنى فيها عن حصوله على الدكتوراه من الإتحاد السـوفيتى وكيف انه اشـترك فى ثورة يلسـن ضد الانقلاب الشـيوعى على جورباتشوف (يا سـبحان الله أى ان الخولى إشـترك فى الثورة على الشيوعية وليس الثورة من أجل الشيوعية التي كان يتحدث عنها) وكيف أن العساكر تركت لهـم الدبابـات عندمـا شـعروا بأولـى الانتفاضـات الجدية للثـورة، و أما أغرب ما حدثني عنه هو أن موضوع رسـالته للدكتوراة كان عن التنويم المغناطيسـى فأبديـت لـه دهشـتى من ذلك وتشـككى فـى الموضوع نفسـه و أننـى أريد أن أقيم التجربة على نفسـى: هل تسـتطيع تنويمى أنا مغناطيسيًا؟ أريد أن اجرب ذلك. فوعدنى بهذا ولم أره بعدها أبدًا.

والغريب أننى دخلت على جوجل عند كتابتى هذه السـطور باحثًا عن أى معطيات لاسمه فلم أجد شيئًا.

أمـا خالد صديقيي العزيز فقد حاول اسـترضائي بعد خلافنا (خلاف آخـر لا علاقـة لـه بالحوار الـذى ذكرته)عـام أربعة وثمانيـن، وحاولت استرضاءه بعد ذلك فلم يقبل.

لاقيته فى المعرض قدرا حوالى عام تسعة وتسعين و أدركت أنه يعمل

فى السـعودية فى احدى دور النشـر الكبرى وبدا شـريكا فى دور نشر أخـرى هنا فى القاهـرة، وحصل على جائزة مصر التشـجيعية فى مجال آخر غير الشعر، وعاملنى جيدا وساعدنى على توزيع كتبى فيما يخصه من دور نشر، ولكن ما لاحظته أنه قد بدا أكثر تواضعا ليس من سابق عهـده ولكـن مما يمكـن أن يُطلب منه مـن تواضع ولاحظـت أيضا فى نفس الوقت أنه مازالت لديه مسافة شعورية بيننا.

لم أعلم عنه شيئا بعد ذلك إلا منذ حوالي عامين، فقد قال رفيق له فى السـعودية أنه على لقاء دائم فى السعودية ثم أخبرنى بعدها بأيام قليلة أن خالد هنا فى القاهرة وقد أجرى عملية فى القلب منذ عدة أيام، و انه أتى الىّ برقم هاتفه، اتصلت بخالد على الفور:

ـ ألو

ـ تـرى من هذا السـمج الـذى يتصل بك بعد أكثر من خمس عشـرة سنة قرب منتصف الليل وأنت ما زلت تعانى من أثر تلك العملية التي أجريت لك منذ أيام قليلة؟

فأجاب خالد على الفور:

ـ ليس هناك أحد يفعل ذلك سوى شخص عاطفي مثل محمد ابراهيم مبروك.

وأبلغني انه سيعود فى غضون أيام قليلة إلى السعودية ووعدني بمواصلة الاتصال معي. والله اعلم ما الذى حدث بعد ذلك.

لكنني أشـعر بالأسى أن خالدًا لم يصنع حتى الآن تلك المكانة التي كنا نتوقعها له. وربك العالم بأحوال البلاد وظروف العباد.

ولا أود أن أنهي فصل الشعراء هذا قبل أن أذكر آخر قصيدة لي والتي

عنوانها (**حديث صامت عن سوريا**):

هنا سوريا
سماء من الدخان
وأرض من الرماد
وليس للشعر من حق هنا
سوى أن يصمت
هنا سوريا
أربعة عشر قرنا من الحرب
لم تزحزح كتابا
أربعة عشر قرنا من الأحقاد
تغدو الآن
قذائفًا من اللهب
ليس هنا سوى حفنة من المجانين
يرون ما لا نرى
أفقدوا إله الحداثة عقله
فأضحت ملهاته الوحيدة
تفجير الجماجم

***

اعتادت الأرض الصواعق
القذائف بلا صوت
ولا لون للهب
هذا الفناء هو الفناء

صمت هذا
فليخرس الجميع
أمام هيبة الموت
وجلال المقابر
وأسافل الشعراء إذا اجتهدوا
فضعوهم في القاع الأسفل
من مقبرة المواثيق.

***

الدموع،
الصراخ،
الدماء.
سعال الثكالى الجارح،
نحيب الصبايا اللواتي اغتصبن،
عواء الطفلة المشردين في الصحاري،
شيء سخيف جدًا.
حبيبتي التي فقدتها في الطفولة، ....
الخناجر التي أحاطت بعنقي ....
ضرب أبي لي بالسياط.
كل هذا .. شيء سخيف جدًا
أنا وأنتم
وهذا الرائح والغادي
شيء سخيف جدًا.
لا شيء، لا شيء سوى

قعقعة الموت الرهيب
بلا صوت
وارتطام الوجود على وجه الحقيقة,
لا شيء .. لا شيء سوى
حفنة من المجانين
يصارعون إله الحداثة
في حلبة الموت والحقيقة.

***

وأنا أعيش بين بحرين كبيرين
ونهر عظيم جدًا
ولكن لا سفن هنا ولا شواطئ
ولا عصافير في السماء
ولا أشجار في الحقول
وأشعر أني وحيد جدًا.

***

لمسات من الفقر

لم أكد أعلم شيئًا عن الفقر قبل استقلالي الشخصي وربما استمر جهلي به مهما قرأت أو سمعت عنه بعد ذلك لو لم أكن قد خضت غماره بنفسي .

وقبل أن أخوض في حديث يعبر عما في الحياة من قسوة وشرور أود أن أذكر أن هناك الكثيرين الذين وقفوا معي أيضا وأخص بذلك عدد لا يستهان به من السيدات الفضليات المصليات من أمهات أصدقائي واللواتي كن يتمنين أن يحتذي أبناؤهن بي من حيث الصلابة وتحمل الشدائد ، وأذكر في ذلك قصة طريفة للغاية حكاها لي بنفسه شخص كان في ذلك الوقت أقرب أصدقائي.

كانت أسرة هذا الشاب على دين والتزام ، وقد تعرضت لمحن شديدة غاب فيها الأب عن البيت سنين طويلة وتحملت الأم بمفردها قسوة الصراع في الحياة فاكتسبت خبرات عميقة للغاية ، فضلاً عن أنها كانت تساعد زوجها في تسهيل تحصيل دروسه للحصول على شهادته الجامعية (نقل أو تلخيص أو نحو ذلك) وذلك في تلك الأيام التي كان لدينا فيها تعليم حقيقي في الستينات من القرن الماضي .

هنا بالإضافة إلى ذكاء قطري يندر أن أكون قد لاحظته في امرأة أخرى . كل ذلك معًا ، جعل منها عقلية اجتماعية مذهلة تسبر غور الأشياء التي لا يستطيع دهاة الرجال أن يصلوا إليها .

وكانت أول صدمة لي من قوة تفكيرها عندما زرت ابنها في أحد نوبات مرضه الشديد وكان عمري حينذاك الثامنة عشر تقريبًا وكان قد بدأ الحديث عن صراعاتي الاجتماعية يشاع في البلد ، كانت جالسة

وحدهـا بجانـب ابنها المتعـب بالسـرير وعندما فتح النقـاش ـ وكانت مطلعـة علـى أبعاده من خـلال ابنها ومـن خلال الجـوار القديـم والقرابة البعيـدة ـ كنـت أحـاول الاجتهـاد في الدفاع عن نفسـي ضـد اتهامات الأطراف الأخرى في الصراع فإذا بي أفاجأ بها وهـي تقول مبتسمة:

ـ لا اللـي انـت بتقولـه ولا اللـي همـه بيقولـوه هـو السـبب فـي كل المشـاكل دي، وإنما السـبب فـي كل ده هو إنك فيلسـوف (وما حدش فاهم حاجة).

لـم يكـن يخطر في بالي هـذا المعنى علـى الإطـلاق، وإنما كل ما أفكـر فيـه هـو أنني أقـدم أفـكار وأحداثـًا معينـة في مقابـل أفكار وأحـداث أخرى يقدمها خصومـي، وكل ما أحاوله هو أن أثبت صحة ما أقدمه في مقابل ما يقدمونه .

لـم أسـلم بما قالتـه وقتهـا، ولا حتى هـذه اللحظـة، لكننـي مازلت مذهولاً من هذا التلخيص العجيب من تلك السيدة البسيطة في تلك البلدة المهملـة.. ومن تلك اللحظة بدأت أركز بعمق في كل آرائها الاجتماعية سـواء اسـتماعًا منها مباشـرة أو من خلال ما ينقله لي ابنها، إلى الدرجة التي يمكن القول معها أن هذه السـيدة تمثل الأسـتاذ الحقيقي الأول لي فيما أفاخر به من خبرات اجتماعية.

أعود للحادث الطريف الذي وددت الحديث عنه .

أقول انه بالرغم من تدين هذه الأسرة والتزامها ومعاناتها السابقة فقد جـاءت عليها فترة طويلة من الترف في السـبعينات وبعدها ـ وإن كانت قد انتهت نهاية مأساوية في السنوات الأخيرة ـ وذلك من خلال السفر في عدة دول غربية لعمل راعي الأسرة في السلك الدبلوماسي فعاش صديقي

في قدر من الترف تضافر معه لين الأسرة معه لمرضه الدائم الأمر الذي سهل عليه الميل إلى التمرد والانفلات.

وبعد استقلالي وبدء مسيرة تشردي بنحو عام جاءني ممتلأ غضبًا وانكسارًا وعجبًا في نفس الوقت، وعندما سألته ما هذه الحالة التي أنت بها وما هو سببها؟ قال لي:

_ تصدق شوف أمي قلتلي إيه . قلتلي مالك ياله؟ شيفاك يعني مش على بعضك اليومين دول . أوعي تكون يعني باصص لمحمد مبروك وفاكر إنك تعرف تعمل زيه .. أنا مش حقولك ساعتها سبب الهدوم والكتب اللي جاتلك بفلوسنا ، لأ أنا حقولك املي شنطتين سفر من اللي أنت عايزه من البيت ووريني بقى حتعرف تعمل زي محمد مبروك إزاي.

ويبدو أن صديقي هذا قد تعلم الكثير من الأدب منذ هذه اللحظة .

وأذكر سريعًا جدًا من هؤلاء النساء أيضًا سيدة فضلى أخرى أم لأحد أصدقائي أيضًا تحملت مشاكل استضافتي بغرفة في الدور الأرضي من منزلها في السنة الأولى من استقلالي، التي كانت هي ذاتها السنة الأولى من دراستي الجامعية حتى استطعت في قصة عجيبة تستحق التفصيل في موضع آخر _ أن أؤجر شقة من الباطن لقريب لي يؤجرها من قريب لي آخر، وبعد انفجار تلك العلاقة الغير قانونية استمر الاضطراب الشديد في سكني الأمر الذي عرضني لخطر شديد وأنا في السنة الأخيرة من الليسانس فعادت هذه السيدة مع ابنها الصديق إلى استضافتي مرة أخرى في نفس المكان من أجل حمايتي من هذا الخطر رغم هجوم عائلتي الشديد على ذلك .فكان لها ولابنائها الفضل في ذلك أن أوتني لأكثر

مـن عاميـن في بيتهـا وهي أكبر مدة منحنـي أحد إياها فـي تلك الفترة المريرة من السنوات الأولى لاستقلالي.

أما السـيدة الفضلى التي قامت بدور أشـبه بأدوار الفرسـان القدامى فلفهم ما فعلت أشـير للقارئ أنني ذكرت في الفصل المذكور في هذا الكتـاب بعنوان (مواجهة مع المجهول فوق السـطوح) . أنه بعد أن ضغط عليّ عمي الكبير في قرار ما تم بفشـله بعد حصولي على الليسـانس تم الاتفاق بيني وبينه على أن أبني غرفة على نفقتي فوق سـطح أحد البيوت العديـدة التـي يملكهـا ، ويبقى السـؤال هنا ، وأيـن أقيم حتـى يتم هذا البنـاء، وقبل ذلك في الفترة المضطربة التي سـبقت بلوغنا هذا الاتفاق. فآوتني تلك السيدة مع ولديها الصديقين على الرغم من الظروف المادية القاسية التي كانوا يمرون بها .

فـي الرابـع والثمانين لم نجد أنا وأصدقائي سـكنا لي سـوى الغرفة الخاصة لمذاكرة صديقي حامد عبدالخالق .

كانـت الغرفة في آخر الـدور الأرضي لبيت جـده القديم وليس مهما حال الغرفة نفسها وما بها من شقوق ولكن المهم أن الوصول إليها يعني المرور على عدة غرف يسـكن بكل منها أسـرة كاملة والأهم من ذلك العبـور علـى دورة المياه المشـتركة والتي يبدو أنها لا تنـزح أبدا ومن ثم فإنها تطلق رائحة لم تكن تصلني إلا وأكاد أقيئ حتى الموت.

كان يسـكن بالغرفتيـن المجاورتيـن تاجـر حشـيش قطاعي خائب كثيـرًا مـا كان يرتاد السـجون ويعـود منها ، وكثيرًا مـا وجدت رجال الشـرطة يمـلأون المـكان وأنا داخل إلـى غرفتي، لذلك لـم يحقق هذا التاجـر شـيئًا وظل فقيرًا ومعدمًا كما هـو ، حتى أن زوجته كانت تعمل

بأحد الأماكن حتى تستطيع الإنفاق على ابنائها.

وكان من التناقضات العجيبة التي يعيش فيها حامد عبد الخالق أن هذا الرجل كان قريبًا له قرابة قوية.

في إحدى الليالي ـ بعد حوالي منتصف الليل ـ مررت أمام دورة المياه إياها فجاءتني نوبة القئ والبصاق التي تحدثت عنها ، فإذا بهذا الرجل يخرج من إحدى غرفتيه صائحًا :

ـ إيه القرف ده اللي أنت معيشنا فيه.

ـ معلش يا حاج أصلي عيان شوية.

ـ عيان إيه وبتاع إيه مش تراعي إن فيه ناس عايشة معاك.

ـ خلاص يا حاج كنت تعبان وانتهى الموضوع.

ـ إيه كل شوية إع . اتفوه . إذا كنت قرفان من العيشة هنا متشوفلك حتة تانية وتسيبنا في حالنا ، إيه البني أدمين دول، أنا مش عارف إيه اللي رماك علينا.

أين كان حامد عبد الخالق في ذلك الوقت؟!، لا أدري، ولكنه حين ظهر في اليوم التالي قال لي بحماس اللّه أعلم بمدى حقيقته:

ـ إزاي تسيب راجل وسخ زي ده يهزأك كده . ليه ماردتش عليه وشتمته.

ـ أخاف أعملك مشاكل دول قريبك برضه ، وأنا مش عايز من الدنيا حاجة غير إني أنهي مرحلتي الدراسية وأقدر أقف على قدمي.

كانت حالتي العقلية والنفسية في هذا العام بالذات ملتهبة للغاية ، فمن ناحية كنت قد بدأت الكتابة ونشر المقالات في إحدى الجرائد ، ومن ناحية أخرى كان لاندماجي في الصراع الخاص في ذلك الوقت أثره في

انتقالي إلى حالة من العزلة الشعورية تحجبني عما يحيط بي من واقع بائس.

امتلأت الغرفة المنحطة أصلاً والتي لا يتم تنظيفها بالأسابيع الطوال بأوراق الزبالة وبقايا الطعام، وبدأت تغزوها الفئران إلى درجة أنني كنت استيقظ فزعًا من النوم بسبب قرض الفئران الصغيرة لرأسي.

نظرًا لظروفي فقد احتج حامد عبد الخالق على هذا الإهمال احتجاجات صغيرة، وفي يوم ما أتى بأحد الأصدقاء من ابناء العائلات الأكبر سنًا ليشهده على حالي ويحذرني قائلاً:

- خليك فاهم هي حاجة معروفة كده. المكان اللي تعيش فيه الفيران تجيله التعابين. وأنا مش عارف انت مستني إيه؟.

أما صديقنا الأكبر سنًا فقد قال لي معزيًا:

- بكرة تفتكر الأيام ديه وتضحك عليها.

وها أنا أتذكرها ولكن دون أن أضحك.

رغم هذه الحالة الشعورية التي أعيش فيها كنت أنتبه من غرفتي المغلقة بين الحين والحين لبعض السكان وهم يشكون من وجودي (لمن؟ لا أدري) ويشكون بشكل خاص لما يسمعونه من صوت التبول في الصفيحة (تيييت). أما بالنسبة لي فليس لي من حق طبعًا في الشكوى أو مجرد الحديث عن الأصوات التي أسمعها. وكنت أقول في نفسي مادامت الأيام تمر فليس مهمًا ذلك. المهم أن تمضي فترة الامتحانات على خير.

كانت قد مرت برهة من الزمن على ذلك عندما كنت عائدًا يومًا إلى الغرفة فإذا بي أجد عم صديقي حامد عبد الخالق الشيخ ينتظرني في مدخل باب المنزل وكان رجل يعرف عنه الصلاح والاقتدار المادي، وكان معه بعض الفتية من ابنائه والعائلة، لم أكن قد تحدثت مع هذا

الرجل يومًا ولكنه في تلك اللحظة توجه إلي قائلاً:

ـ شوف يابني أنت في اللحظة دي تلم حاجتك وتمشي.

كانت المفاجأة صادمة لي، فقد أجهدت أنا وأصدقائي حتى نجد هذه الغرفة كحل وحيد، ثم لم يعد علي امتحانات نهاية العام إلا القليل الذي لا يصلح أن نضيعه في البحث مرة أخرى عن مأوى. ثم الأهم من كل ذلك أين أذهب بأغراضي تلك في هذه اللحظة؟

رجوت الرجل أن يتركني تلك الليلة فقط ليكون لي مهلة من التفكير أعلم من خلالها إلى أين أذهب بأغراضي في اليوم التالي.

رفض الرجل بصرامة وفظاظة شديدتين.

حاولت أن أكلم الفتية أن يكلموه أن يمهلني فقط إلى الغد.

فقالوا لي بإشفاق:

ـ ده هو مستنيك من الصبح وهو قاعد في مدخل البيت، وماحدش حيقدر يرجعه في كلامه.

أين كان حامد عبد الخالق في ذلك الوقت؟ لا أدري.

قيل لي حينذاك وبعد ذاك.

ـ لا تزعل من الرجل فهو بحسب فهمه بيحافظ كده على قريبه.

فقلت لهم:

ـ أنا أقدر الكلام ده في كونه يقوللي عايزك تسيب المكان، أما إنه يقولي في أول مرة يكلمني سيب المكان فورًا وفي نفس اللحظة، فهذه فظاظة وقسوة تتناقضان مع تدينه اللي بيقولوا عليه.

قال لي أحد أصدقائي الأكبر سنًا في ذلك الوقت تعليقًا على «أحداث

وقعت لي مثل هذه.

ـ ماكانش من الأفضل تعيش في الكهف أحسنلك، على الأقل ما كنتش حتشوف أسوأ وأمر وأشد مهانة من اللي بنشوفها دلوقتي، ولا احنا بس بنستحمل المهانة بره وما بنستحملهاش جوه.

ـ مين اللي قالك إني ما كنتش بشوف أسوأ وأمر وأشد مهانة من اللي بشوفها دلوقتي ولكن مش هو ده المهم، المهم هو إن الأحداث دي مؤقتة، تأذيك صحيح لكن متكسركش ومتأثرش في شخصيتك، أما الكهف اللي بتتكلم عليه فكان كفيل إنه ينهي عليَّ تمامًا مش كمفكر بس ولكن كإنسان كمان.

أما الحكاية الأخرى التي سأذكرها فكانت في مرحلة ما بعد أزمة سبع وتسعين وما سببت لي من انعدام مادي تلى فترة من اليسار المادي النسبي (كما هو مشروح في فصل مع الزعيم) وتتعلق بسكني بأحد غرف منزل عشوائي قديم بأبوقتاتة، كنت قد تنقلت في السكن من حجرة لحجرة بعد تلك الأزمة وفوجئت في الحجرة الأخيرة بطلب صاحبة البيت إنهاء عقدها آخر الشهر نظرًا لتاخري في الإيجار، لم استطع في الأيام المتبقية الحصول على سكن معقول حتى قررت مشاركة أحد أصدقائي في تلك الغرفة التي أشرت إليها بأبي قتاتة (والذي هو أصلاً مشاركًا فيها غيره) حتى استطيع الحصول على غرفة خاصة بي.

كان البيت القديم عبارة عن ثلاثة أو أربعة أدوار، كل دور مكون من عدة غرف لا تزيد مساحة أي منها على عشرة أمتار مربعة، يسكن كل غرفة منها إما مجموعة أشخاص أو أسرة كاملة (وكانت غرفتنا بالدور الثالث) حيث تشترك الغرف جميعًا في كل دور في دورة مياه

مشتركة بلا سقف لا يزيد مساحتها عن ثلاث أربع متر مربع .

والكلام الذي يشاهد في الأفلام أو المسلسلات عن وقوف السكان في شبه طوابير ، يحاولون مدافعة اندفاع حاجاتهم انتظارًا لفراغ دورة المياه ، أقول هذا الكلام غير مكتمل لأن الذي يصعب أن تصوره الكاميرات هو أن هذه المقاومة كثيرًا ما تفشل أمام هذا الازدحام والانتظار الطويل.

وما سأحكيه هنا لا يتعلق بي أنا ، فقد يكون بذلك تكرارًا لما سبق. وإنما بحديث بسيط ما بين أحد أبناء الغرفة المجاورة (والتي كانت تتكون من أب وأم وعدة أبناء بينهما جامعيان ولد وبنت) وبين أحد المشتركين معي في الغرفة.

وقبل أن انتقل إلى هذا الحديث الذي دار فلا يسألني أحد كيف يستطيع أفراد هذه الأسرة أن يعيشوا في تلك الغرفة الصغيرة .. كيف يأكلون ويشربون وينامون ويستذكر الدارسون دروسهم ويمارس العائلان رغباتهم الملحة ، وقبل كل ذلك كيف يتنفسون؟

أما الحديث الذي دار فهو أن ابنهم الجامعي كان يحكي لأحد شريكي بالغرفة عن علاقته العاطفية بإحدى الفتيات من زميلاته ، والمشاكل التي تعترض تكليل علاقتهما بالخطوبة ، وكيف أنه أقنع أهلها ، وكيف أن لأهله اعتراضات عليها أو على أهلها ، كل ذلك أسمعه بغير انتباه وأنا أقرأ بعض الأشياء مستغرقًا في مشاكلي الخاصة إلى أن استوقفتني بشدة هذه الجملة .

ـ في الآخر أبويا قاللي، لو عايز ترتبط بالبت ديه يبقى متدخلش البيت ده تاني.

قال هذه الجملة بشكل عادي جدًا ، بكل ثبات، دون أي اهتزاز.

فعلاً إن شر البلية ما يضحك.

بيت إيه يابو بيت.. بيت إيه يا مسكين.

الحق، والحق يقال .. إن هذه الخاتمة المأساوية جدًا لحديث هذا المسكين جعلتني أجاهد نفسي بقوة حتى لا انفجر من الضحك .

أما مالم انزلق إليه من درجات الفقر القصوى فهو ما شاهدته قدرًا في منطقة عشش أم (......)

كان ذلك عام ألفين وخمس وكنت في ذلك الوقت في الدرجات العليا من الانتشار كتب . جرائد .. قنوات فضائية من كل نوع، وعلى أعلى مستوى، وكنت متعجلاً لأبدأ حياتي بعد أن تأخر سني عن الزواج نسبيًا ، ومن ثم فقد كانت فكرتي أن اجتهد في امتلاك سيارة ذات وجاهة معقولة بعد امتلاكي شقة حينها يمكن أن يقال إنها جيدة وما كنت قد سددت أقساطها بعد ، ومن ثم كان علي أبيع سيارتي الصغيرة (الريتمو) واقترض من كل مكان بالإضافة إلى بعض المبالغ التي حصلت عليها من مقالاتي ولقاءاتي الفضائية كل ذلك لاستطيع أن اشتري سيارة (لانسر) مستعملة في حالة شبه جديدة.

في محاولاتي لبيع سيارتي الريتمو والذهاب بها إلى سوق السيارات بالحي العاشر ثم العودة ، عطلت السيارة مني في مكان قريب جدًا من وسط البلد ، كان معي من يفهم في السيارات والذي قال لي إن الأمر يحتاج إلى ميكانيكي، بحثنا على ميكانيكي في المكان، فوجدنا المحل الخاص بذلك، ولكننا وجدنا المحل مغلق أو مفتوح (وهذا هو الأقرب) وليس به الأسطى صاحبه، وقيل لي ساعتها إن الرجل يسكن

قريبًا من المكان وعليك أن تنتظره فقلت:

ـ ما دام سكنه قريب من هنا أروح أندهله من بيته.

ـ تروح فين وتنده لمين.

ـ أروح أنده للأسطى من بيته.

ـ لأ . خليك هنا مستنيه أحسن.

ـ وأستنى ليه، أنا مش فاضي، قولولي البيت فين وأنا أروح أندهله .

ـ هو ساكن في المدخل اللي جاي على إيدك اليمين، ولكن إوعي تخش.

ـ ليه.

ـ خطر جدًا.. وانت حر.

كانت مازالت تتملكني روح المغامرة، فتركت رفيقي بجانب العربة ومضيت إلى ذلك المدخل فوجدت شبه مدينة صغيرة محجوزة داخله.

كنا في عز الظهر، ومع ذلك لا أحد في المكان في عز الظهر، وينتشر روث الحيوانات بكثرة في وسط الشوارع، أما البيوت فانصافها يرقد تحت مستوى الشوارع.

ولا يمكن إطلاق كلمة بيوت على هذه الابنية إلا مجازًا، فما هي إلا حجرات من الحوائط المتهالكة تتراكم بعضها فوق بعض دون أن تكون هناك سلالم يتم الصعود عليها إلى الغرف الأعلى وإنما يتم تكويم مجموعة من الحجارة يتم الصعود عليها، أما ما شد انتباهي بوجه خاص أن هذه الحجرات المتهالكة لم يكن لها أبواب، أو على الأكثر تستخدم قطعة من القماش بدلاً منها، وطبعًا في مكان كهذا لو قتل قتيل لن يعرف أحد عنه شيئًا ولن يهتم به أحد من الأساس والانطباع العام الذي

رسخ لديَّ من كل ذلك أن هذا المكان ترهب أن تسكنه العفاريت.

إن جريمة الفقر الأساسية في مجتمع المعيار القيمي للبشر فيه يستند على مدى ما يملكونه من أموال أو على مدى قدرتهم على إنفاقها هو استعباده للإرادة ومن ثم تحكمه المستبد بالسلوك.

ففي ظل الجوع الطاغي أو في ظل الاحتياج الضروري الملح للمال لتوفير الكساء أو المأوى أو دفع الأمراض، أو الخوف من تكرار ذلك، يكون دافع الحفاظ على الإرادة لاتخاذ سلوك ما هو دافع تالٍ لتلك الضرورات الملحة الآنية.

وكون أن عوامل غائبة مثل التضحية الدينية تكسر هذه القاعدة كربط الرسول ﷺ والصحابة الأحجار على بطونهم في حفر الخندق لا ينفي صدقها، أي أن الضرورات الملحة الآنية هي بمثابة أطواق عبودية على إرادة الإنسان دون أن ينفي ذلك إمكان تحديها بطاقات روحية عظيمة مستمدة من الدين.

خوارق في حياتي

هــذه هي المرة الوحيــدة التي أكتب فيها عن موضوع لا أملك ناصيته هي هذه المرة. ليس لأني أنتهى منه كما أنتهى كل الذي انتهوا منه دون أن يصلوا إلى شــيء . ولكن لأني لم أملك القدرات العلمية التي ارتضيها حقا التي من الممكن أن أصل فيها إلى هذه النهاية.

لا يعني ذلك أنني لم استوعب الكتابات الشائعة عن موضوع الخوارق هذا ســواء كانت المبالغة في النتائــج التي تصل إليها ككتابات أنيس منصور وعبد الرازق نوفل أو المبالغة في نفيها ككتابات الدكتور عبد المحســن صالــح، كما مررت أيضــا على كتابــات الدكتور مصطفى محمود التي تقف في الوسط من ذلك .

وقدر كبير من أسباب عجزي هذا يعود إلى ندرة الدراسات العميقة ، التي تناولت هذا الموضوع والمنشورة باللغة العربية ، وأفضل ما قابلني من هذه الدراســات هو كتاب الفيلســوف الوجودي الفرنسي كولن ويسون (الإنســان وقــواه الخفيــة) والــذي ترجمه العمــلاق الدكتور عبــد الغفار مــكاوي إلــى اللغــة العربيــة ؛ وهو مع تعليقــات الدكتور مــكاوي عليه موســوعة مكثفة ليس في موضوع الخوارق فحســب ولكن في الفلسفة والانثرابولوجية أيضا.

ولكن هل توصل فيه الفيلسوف كولن ويلسون إلى شئ؟

يجيب ولسون عن ذلك فيقول:

إن ما أطرحه هنا وما سأطرحه طوال هذا الكتاب هو أنه حينما ينتاب الإنسان إحساس قوي بـ (قيمة) شيء ما ن فانه ينشط (قواه) ويستثيرها ،

تلك القوى الكامنة فيما وراء الطرف البنفسجي لطيفه الضوئي العقلي. لقد تطور الإنسان إلى المرحلة الحالية عن طريق تعلم القيام بأشياء كثيرة بطريقة آلية: إنه يتعلم مهارة صعبة معينة عن طريق مجهود واع، ثم يمر ما تعلمه ويسلمه إلى (جهازه الآلي) اللاواعي الذي يتعلم كيف يقوم بهذه المهارة بكفاءة وبطريقة آليه ـ مثل ركوب الدراجة أو التحدث بلغة أجنبية . ولكن القيام بأداء شيء بطريقة آلية يعني أنك لا تحتاج إلى أن(تركز) عليه. وقد عنى تزايد استخدام الإنسان لجهازه الآلي اطراد تضاؤل استخدامه لموهبة التركيز الكثيف وهذا ما يوضح سبب ميل الإنسان الحديث إلى رفض الإيمان بما يملكه من (قوى) كامنة فيما وراء الطرف البنفسجي للطيف الضوئي. فانه نادرا ما يستخدمها.

ومع ذلك فان تلك القوى تعمل حينما يمس إحساس الإنسان الحديث بالقيم مسا عميقا ـ أي حينما يشعر حقا بالقلق على شيء ما والاهتمام الحقيقي به. فان غرض تلك القوى ـ في نهاية الأمر ـ هو نفس الغرض الذي ترمي إليه كل القوى الأخرى: وهو دافع الحياة إلى التحرك بهدوء ونعومة، وتجنب الكارثة...

إن تعليق ولسن هذا يعني أمرين:

الأول: أنه على الرغم من ماديته يقر بوجود هذه الخوارق ويسرد لها في كتابه أمثلة يصعب عدها وذلك على العكس من الكثيرين غيره من الماديين.

والثاني: أنه يرجع كل هذه الخوارق لشيء واحد هو العقل الباطن وهذا محل خلافنا معه فصحيح يمكن تفسير بعض الخوارق التي لا تخرج عن نطاق الذات بالعقل الباطن ـ وإن كنا لا نسلم بهذه

التسـمية مـن الأسـاس ولكـن هـذا أمـر شـرحه يطـول ـ كتطويـر القـدرات الخاصـة بالـذكاء والإبـداع وقـوة التحمـل ويمكـن مراجعة ذلـك في كتـاب القوة الخفية للعقـل الباطن للعالم جيمـس ك.فان فليت ـ لكن هذا لايعني شـيئا في تفسـير الخـوارق التي تتجـاوز الذات إلى الأشـياء الماديـة والأخريـن كالتأثيـر فـي الماديـات وكذلـك نقل الأفكار عن بعد والسحر والحسد ومعرفة بعض أمور المستقبل.

وهناك طريقة بسيطة يستخدمها البعض لحسم كل هذه الأمور وهـي القـول بكونهـا مجـرد هـلاوس تصيب المرضـى الفصاميين على وجه الخصوص .

ومشكلة هذا التفسير أن الهلاوس تمثل رؤى أو أحوال متعددة تصيب الأشـخاص الفصامبين وليس مجـرد حالات محدودة للغايـة تفصل بينها سنوات عديدة ويقر بها أشخاص عديدون طبيعيون للغاية

وإلى أن أقدم كتابا متخصصا في هذا الموضوع أقدم شـهادتي هذه عن هذا الموضوع للجمهور

رأيت ظهري

إلى زمن قريب لا أذكر المدرســة الإعدادية إلا وأشــعر باحتراق قلبي وارتعاشة عميقة تجتاحني وتغشى عيني وقلبي بسحابة رقيقة من خيالات الماضي الرهيب، بل أن شيئًا من ذلك مازال يحدث لي حتى هذه اللحظة التــي أكتــب فيهــا ، أو عندما أمضي بجوار أســوارها ــ وقــد حدث هذا منــذ بضع ســنوات خلــت ــ حيث أمضــي في حالــة من الحضــور الغياب فتختلــط معالــم المتاجر والمحلات والبشــر الذين تكتظ بهم الأســواق التي تلتف حولها الآن بما كان في سابق العهد من ساحات فارغة تنتشر بهــا تكتلات التلاميذ والتلميذات، التي يبرز مــن بينها تكتلها الخاص كشمس ساطعة تحلق حولها النجوم في عز النهار.

والمــرة الوحيــدة التي دخلت فيها المدرســة بعد حوالي خمســة عشــر عامًا من رحيلي عنها بحجة زيارتي لأحد المدرســين اختلطت علي الأمور وبدأت أخرِّف بالفعل.

أذكر هذا لأن أولى الأحداث التي أظنها خارقة قد حدثت لي في هذه المدرســة. ولأني أرى أن ســرد الواقع لا يعني ســرد الوقائــع المادية فقط ولكن سرد الواقع العقلي للحالة المذكورة أيضًا ولذلك فإنني سأذكر الواقــع العقلــي الــذي كنت أمر به قبــل هذه اللحظة لأنه قــد يكون في إغفال ذلك نوع من التدليس على المحلل الراصد للواقعة.

لــن أتعمــق كثيــرًا فــي ذكر أحــداث تلــك المرحلــة وإلا أكــون قد اقتحمــت بذلك القصة المحوريــة التي اتعمد تجاوزها فــي هذا الكتاب وإنما ســأحاول ذكــر العناصر الأساســية لمكونات الحالــة العقلية في

ذلك الوقت.

كانت هناك فورة حماسية للاعتزاز بالذات، والطموح إلى صناعة الأهوال في المستقبل فهنا فتى المدرسة الأول نبوغًا، قد تختلف أسماء التلاميذ التي تنافسه في ذلك في السنوات الثلاث ويظل هو الفتى المحور، وبعيدًا عن تحقيق النتائج والدرجات فقد نبغ نبوغًا خاصًا في مادة الرياضيات _ طبعًا قد يتعجب القارئ من التحول الذي حدث بعد ذلك كما تعجب أقرانه _ صنع هالة من العبقرية حوله بحيث كانت تطلق عليه هذه الصفة بين التلاميذ والمدرسين بشكل تلقائي. ويذكر هو أنه قد دَرَسَ كتاب الهندسة للصف الثالث الإعدادي وحل جميع مسائله الأخيرة (المسائل الأصعب) في ساعة واحدة، توصل خلالها إلى أغلب نظريات إقليدس من قبل أن يقرأها، ولم يعد للكتاب لدراسته بعد ذلك طيلة العام مرة أخرى تقريبًا.

ولم يكن يفكر بعد ذلك في تحدي الطلاب فقد تجاوز ذلك منذ زمن وإنما في تحدي المدرسين وإحراجهم بل والانزلاق إلى السخرية منهم أحيانًا. ثم عمل على صناعة مسائل أكثر تعقيدًا يبرز من خلالها هذا التحدي وكان دافعه إلى هذا أمر خاص هو أن يدس أحد هذه المسائل في يد بعض أصدقائه من التلاميذ الذين يزاملونها في الدرس عند مدرس خصوصي ودفعهم إلى تحدي ذلك المدرس لحلها فيعجز عن ذلك أمامها وتدرك أن صاحبنا هو المسؤول عن هذا الوضع المبهر. ولقد تأسف لما صنعه بهذه الطريقة مع بعض الأساتذة بعد ذلك واعتبر أن جانبًا مما أصابه قد يكون عقابًا عما بلغه من عتو واستكبار في هذه المرحلة.

هذا الشخص ذاته الذي نتحدث عنه كان يعاني على الجانب الآخر في حياته العائلية من انتهاكات شبه يومية لآدميته في كهف الأسرة

المعزول شعوريًا عن العالم بإجراءات عبودية محضة.

فليحـذر القـارئ الذي قد تسـتثير مشـاعره بعض تلـك الذكريات ــ التي أتناول من خلالها الجانب الشـعوري للحالة العقلية لصاحبنا في تلك المرحلـة ــ أن يعتقد أنني اسـتعيد ذكريات تلك المرحلـة للحلول داخل واقعه الشعوري ومن ثم نقله صادقًا له .. أقول للقارئ لا تتوهم ذلك لا في هذه السطور . ولا في أي موضع آخر من هذا الكتاب.

إن غايـة ما اجتهـده هنا هو أن أدور حول الحـواف.. بل حواف الحواف بحظـر شـديد ، لأنقل إلى القـارئ ما يمكنني نقله وأنا أشـعر أنني أفتح على نفسي ثقبًا من الجحيم أخشى ما أخشاه أن يتسع لهاوية.

وليغتـر بذلك من يغتر فيعتقد أنني أخشـى أن أنـكأ جرحًا قديمًا قد تدفعني آلامه على الإقرار بأنني مازلت أعيش حبًا أعمل على إنكاره.

لا . وأنـا علـى ثقة من هذا بعقلي الـذي أكتب به إليك والذي عليك أن تفقد ثقتك فيه إذا لم تثق في حكمه هذا.

غاية ما في الأمر هو أنه يحاول أي يصف عن بعد تلك الحالة الشعورية التـي كان يمـر بها صاحبنا والتي كانت تنطـوي على أقصى ما يمكـن تصوره من جنة وجحيم.

وهل كان فيها جنة؟!

نعم كان فيها جنة أيضًا بأقصى ما يتصور العقل.

فإذا كنت أخشى الانجذاب إليها فلما فيها من جنة ، وأقر تمامًا أنني مازلـت أحب جنة هـذه المرحلة حبًا جنونيًا ، هذا لو كان يجوز تسـميته حبًـا ولكـن لا يعني هذا أبدًا أنني مازلت أحب نفس الكائن الذي كان يحمل تلك الجنة في يوم من الأيام والذي يعيش الآن في حالة ما.

كان يرحل في ثنايا فردوس يحترق.

أعتقد أن هذا ما يمكن وصفه بإيجاز عن الحالة الشعورية التي كان يمر بها.

إن أجمل مخلوقة في العالم يراها كل يوم.

هذا ليس وصف عاشق لمن يعشق . إنما هو وصف رجال ونساء رأوها ، ومنهم من عاش بضع سنوات في عدة دول غربية ، هذا فضلاً عن التلفاز الذي يعرض عليهم صور خلق الله من كل جنس وصنف.

فإذا أردنا أن نتحدث بدقة حذرة للغاية فلنقل من أجمل الحالات النادرة في العالم.

وعندما أقول كل يوم .. أقول إنه في الطريق إلى المدرسة (فقد كان طريقهما واحدًا) كانت تسير أمامه بين الحقول الخضراء _ على مسافة ما _ بما تعجز العقول أن تصفه من جمال وبما لا أريد الخوض فيه الآن.

وكان يجمعهما الانتظار أمام أسوار المدرسة قبل بدء اليوم الدراسي في تكتلات متقابلة بين البنين والبنات فيتحايلان لتلاقي النظرات خلال ذلك بدهاء وحرص شديدين.

أما في الفسحة في ظل انشغال الطلاب ولعبة تغيير الأماكن بشكل مستمر كانت الفرصة لتلاقي النظرات لفترة أطول. وكان من الممكن أن يمتد هذا التلاقي لفترات أطول قد تبلغ دقائق أو عشرات الدقائق في الحفلات المدرسية أو المناسبات الخاصة أيام الامتحانات دون أن ملاحظة أحد ، وكان يكفي لذلك أن يقف أحدهما في مكان ما لا يلاحظه فيه أحد سوى الآخر الذي كان يكون دائم التحرك.

أما في لحظة العودة فلا ...

كان عليه أن يتنحى جانبًا ليراقبها عن بعد فهناك من ينتظرون والجميع منتبهون وقد تحدث معارك وتسفك دماء بين من ينتظرون . أما بالنسبة له هو فقد كان يكفي أن يُنتبه له ويتسرب ذلك لتهدر دماؤه.

إن ابناء الأعيان الذين يكبرونهما بعدة سنوات ويملكون المال والسطوة والقوة رغم الصراع بينهم حول من يفوز بقلبها لكنهم لا ينظرون إلى أمثاله طبقة وسنًا وحجمًا إلا كصرصار يجب أن يداس عليه بالأقدام إذا تطرق إليهم خبره.

قال له أحدهم مرة بعد ذلك بحوالي عشرين عامًا وقد غدا صديقًا له وكان قد شاع خبره وصار حديثًا يُروى على الربابة .

ـ أمال انت كنت فين أيام ما كنا بنجري وراها في الاعدادية .

ـ كنت مستخبي في الدرة.

ـ آه . لو كنا عرفنا الموضوع ده كنا دبحناك دبح.

ـ ولأني كنت عارف كده كنت مستخبي في الدرة.

الخلاصة أنه كان يعيش في عينيها كل يوم وهو يدرك جيدًا أنه أمام أجمل حلم يمكن تصوره ولكنه حلم ذبيح يرى دماءه النازفة رؤيا العين مثلما كانت المشنقة تضيق على رقبته هو كل يوم.

فهو يدرك على يقين كامل أنها ليست له وأن الاستحالة واقعة منذ اللحظة الأولى.

فلأول وهلة سيرى من يرى أن حجمه العام أقرب إلى حجم الأطفال أما هي فعلى الرغم من أنها كانت تكبره بعام واحد فكانت لأكثر من عامين سابقين في حجم ومزايا الأنثى الكاملة وكان يتقاتل عليها الرجال منذ ذلك الوقت وتنزف من أجلها الدماء.

وعندما أقول معارك ودماء فأنا لا أقدم هنا مجازًا أدبيًا وإنما أشير إلى وقائع عديدة حدثت بالفعل استقصيتها بعين المترصد القابع في الذرة لعدة سنوات تلت ولولا أني لا أريد الغوص في أعماق القصة المحورية لسردت بعضها هنا ، وهل يمكن قول شيء بعد ذلك إذا قلنا أنه كان يحتاج بظروف ذلك العصر إلى خمس عشر سنة ليستطيع أن يبدأ طريقًا مع امرأة ما وليست امرأة يتقاتل من أجلها الملوك لو أدركوها.

لم يكن هناك حديث متبادل تم بينهما .

هكذا كان يعتقد هو نفسه فضلاً عن الآخرين، ولكن الحقيقة التي أدركها لاحقًا أنه قد تم بينهما العديد من الأحاديث المتبادلة قد تصل إلى ستة أو سبعة أحاديث في حوالي سنوات ثلاث أو أربع . كانت في هذه الأحاديث تفاجأه دائمًا بالسؤال عن شيء ما ، أخته، المدرسة، الرحلة . وكان غالبًا ما يجيبها باقتضاب صادم يحمل من الرعب أكثر مما يحمل من الإجابة كان لا يستطيع أن يتصور أن الجنة تتجسد أمامه وتحدثه على الأرض، ثم أن الأمر مكشوف بينهما ، فماذا يمكن أن يقول أو يقدم لها في ظل هذا العجز الكامل؟! هل يقول لها احتقريني فأنا لا استطيع أن أصنع أمامك شيئًا ، أم كان عليه أن يقول: أيتها الملكة المتوجة التي يعترف بها الجميع ويتقاتل عليها الفرسان والملوك، أريد أن أتزوجك أنا الذي مازلت طفلاً يضربه أبوه كل يوم بلا سبب .

ومن الذي يقول هذا؟ ذلك الذي يدرك إدراك اليقين أن هؤلاء الذين يسحق الآن بجانبهم أمامها ما كانوا ليجرأوا أن يفكروا مجرد تفكير في منافسته لو تغيرت الظروف والمعايير (مثلما لو كنا في بلد متقدمة مثلاً) وأنهم بالنسبة له لا شيء في دورة الزمن.

العجيب في الأمر أنه قرر الإقدام على ذلك بعد سـنة واحدة ـ فيما لو كان ذلك بمثابة عملية استشـهادية ـ ولكن كان قد فات الوقت وذبح الحليم فعلاً.

ورغم هذا لم يصمت فأقدم على أقصى ما يستطيع إقدامه في ظل واقع جديد أشـد خطـرًا فأذهل كل الذيـن أدركوا هذا الـذي فعله وكانت بداية الجنون.

أمـا هي فبعد هـذه الإجابات المقتضبة الصادمـة أدركت أنه ميئوس منه تمامًا وإنه لن يقبل أو يجرؤ أو يستطيع أن يكون هناك حوارًا بينهما فأقلعـت عـن ذلك لأكثر من عـام حتى كان يوم نتيجـة الإعدادية والتي ربما وجدت فيها فرصة مناسبة للتعلل للحديث إذ فاجأته بمناداته باسمه عـن بعد وكان يمشـي مع زميل لـه وكانت هي تقف فـي البلكونة بين أهلهـا .. ورغـم أنـه سـمع النداء أكثـر من مـرة لكنه لم يكـن يتصور أنهـا من الممكن أن تفعل ذلك ليس فقـط ككل الأمور التي ذكرتها سابقًا ، ولكن لم يكن يتصور أن الملكة ستتنازل عن كبريائها فتبادره بالحديـث مرة أخرى بعد أن غدا الأمر مكشـوفًا بينهما .. أي بعد أن أقر لها بعينيه لمدد طويلة أتاحتها لهما مناسبات المدرسة حبه الصريح لها.

لا يتذكـر هـل بعد إلحاح النـداء أدرك أنها هـي أم أن زميله هو الذي نبهه أنها هي التي تناديه.

التفت إليها وجدها مضطربة أشد الاضطراب ، ومن بعض أسباب ذلك أن الملكة قد تم إحراجها أمام أهلها أشد الإحراج ، فمن هذا الذي يتأخر عن إجابتها؟ فإذا تأكد الحديث الذي سأذكره لاحقًا فإن الإحراج الذي وقع كان إحراجًا موجعًا فعلاً (واللي ميعرفش يقول عدس).

سـألته عن النتيجـة ، فأجابها بنفس إجابتـه المقتضبة الصادمة والتي تحمـل من الرعب أكثر مما تحمل مـن الإجابة ولكن باضطراب أكبر مما مضى: لسة ماظهرتش.

صمتـت تمامًـا وامتلأ وجهها شـحوبًا وقرأ في ثبات نظـرة عينيها : إنه ميئوس منه حقًا.

هل كانت تحبه؟

لم يكن يسـمح لنفسـه أن يثق بذلك أبدًا فإن يكن يخسر كل شيء فلا يخسر كرامته أيضًا.

إن حـالات الجنون التي أصابت بعـض الذين حاموا حولها ـ أقول هذا واقعًـا وليـس مجـازًا وقد سـاهمت هي عن عمد فـي بعضهـا انتقامًا من أشخاص تعرضوا لها بالأذى ـ جعلت وساوس الخوف تراوده على الدوام من أن يكون مغفلاً.

وكان يفتـرض أن يحاكـم نفسـه مـن منظورهـا بنفـس الظـروف والمعاييـر التـي يتحاكم بها الواقع المحيـط وإن كان هناك إعجاب ما بالجانـب العبقـري فيه فإن ذلك ما يلبث أن يتلاشـى تحـت ضغط الواقع والتفكيـر العقلاني البسـيط وأن أقصى ما يمكـن أن يحرزه لديها هو وميـض أو طيف مـن الإعجاب قد ينتابها بين الحيـن والآخر وما يلبث أن تتبعه بشيء من الاستصغار أو الشفقة أو ربما الاحتقار لواقعه وظروفه.

ولكـن متـى كان يخضع الحب لحسـاباتنا الواقعيـة والعقلانية تلك مهما كانت دقيقة؟.

ومتى خضعت النفس الإنسانية بوجه عام لتلك الحسابات.

لقد وقعت حادثتان في ذلك الوقت تشككان تمامًا في تلك الطريقة

التي فكر بها في شعورها نحوه في ذلك الحين.

أذهلتـه الأولى بنفس ذهول من نقلوها له من زملائه حتى لا يقول أحد أنها أوهام المحب. أما الثانية فلو كان علم بها في ذلك الوقت لجُن جنونه فعلاً.

الواقعة الأولى هي: إن أحد التلاميذ في درس العلوم وكان الدرس درس العدسات البصرية تفكه على أحد العدسات مشبهًا بها نظارة محمد مبروك وإذا الجميع يفاجأون بتلك الملكة ـ التي لا تتكلم إلا وكأنها تمن على من يسمعها ـ يضطرب وجهها وتصرخ فيه: مالك أنت ومال نظارة محمد مبروك، أوعي تتريق عليه تاني.

جاءه بعدها في المدرسة أحد زملائها في الدرس، والذي هو أحد منافسيه في التفوق وأحد أصدقائه المقربين أيضًا وكان شخصًا متحفظًا جدًا في كل شيء لا تستطيع أن تستخرج من فمه شيئًا بالعنت الشديد إلا أقل القليل، إذا كنت أنت الذي عنه سائلاً فما بالك أن يكون هو الذي يتحدث عن شيء ما، ورغم هذا لم يستطع أن يخفي تعجبه الذي بدا واضحًا في عينيه ونبرة صوته متسائلاً؟

ـ ما الذي يربط بينك وبين نورا؟

ـ يعني إيه.

ـ هل فيه بينكما قرابة شديدة مثلاً؟

ـ يعني مش قوي .. ليه .. في إيه.

ـ واحد في الدرس اتريق على نظارتك فردت عليه جامد .

ـ آه إحنا قرايب صحيح.

أما صاحب الواقعة نفسه الذي سخر من نظارته فقد حكى له الواقعة

مــن نفســه تفصيلاً بعــد أن لاقاه قدرًا في فجر أحد أيــام الامتحانات بعد ذلك بأكثر من عام تقريبًا وكان وجهه مازال يملأه العجب وهو يتساءل مستفسرًا عن مدى علاقة القرابة التي تربط بينها .

طبعًــا قــد يقول البعض ما هــذا الكلام الفارغ، فالأمــر تافه وعارض للغايــة ولكــن هــذا البعــض كان يحتــاج أن يعيــش واقع هــؤلاء الصبية الفقــراء الضعفاء كي يفهم كم أن دفاع ملكة كهذه عن أحدهم أمرًا عجيبًا : هذا الواقع المرير الذي لم يتجرأ أحدهم معه أن يتفوه ولو في إذن زميله أن هذا الذي حدث ربما يكون دافعه الحب، فهذا خيال مســتحيل يجب أن يوأد لحظة ولادته ومن ثم يتبقى العجب .

أما الواقعة الأخرى والتي لم يعلمها في ذلك الحين فقد حكاها له أحد الأشخاص المقربين جدًا منها، بعد ذلك بحوالي خمسة عشر عامًا . ولأن صاحبنا لم يســتطع أن يصدق البســاطة التي تم بها الحدث حينذاك، فقد أصر على الراوي أن يقســم على صدق ما يرويه ســبع مرات فأقســم، فلم يهدأ صاحبنا أيضًا وأصر أن يقسم على ما يقول سبع مرات أخرى فأقسم مع أن معرفة هذه الرواية كانت تمثل خطرًا شديدًا على الراوي نفسه.

الواقعة تقول إنها سؤلت في ذلك الحين بشكل عارض في دائرة مقربة جدًا منها لا تســتطيع إفشــاء سر لها، عن شــخص يكبرها بعدة سنوات كان قد تقدم لها وكان يشاع أنها أحبته يومًا ما .

ـ أنت يا نورا حتعملي إيه صحيح في موضوع فلان الفلاني .

ـ فلان الفلاني ده إيه؟ . دانا بحب (وذكرت اسم صاحبنا).

ـ وده اللي هو مين ده.

ـ ده ....

هكذا صريحة واضحة لا لبس فيها ولا خفاء.

قد يكون هذا قد حدث لفترة صغيرة لم تدم أكثر من بضعة شهور.. قد يكون.

وقد يكون الراوي كاذبًا على الرغم من كل الأقسام التي أقسم بها.. قد يكون..

ولكن المهم أن الأحداث التي حدثت بعد ذلك الحين والتي استمرت لحوالي عشرين عام والمعلومات المكثفة التي تراكمت لديه، كل هذا رجح لديه صدق هذه الرواية في ذلك الوقت بالتحديد، والمهم أيضًا أنه لو كان علم بحدوث هذه الواقعة في حينها لكان قد جن جنونه فعلاً.

لقد أدت وساوس الخوف من أن يكون مغفلاً إلى أن أصبح مغفلاً بالفعل. لا عما يتم به من تلاعب، ولكن عما يقدم له من عطاء مذهل.

* * * * *

هذه هي أهم مكونات الحالة العقلية التي سنحكي عنها الحادثة الخارقة التي وقعت.

قد يغرق البعض في الضحك قائلاً: أي حالة عقلية تلك التي سنحكي عنها الحادثة الخارقة يارجل؟!

إنك أمام مجنون كامل.

قد يكون..

وقد يرى البعض أن هذه الأحداث ربما قد أصابته ببعض الخلل العقلي...

قد يكون.

ومـع هـذا فلابـد أن نضع في الاعتبـار ـ أنه في ذلـك الحين ـ كان يتاجـر في محل أبيه لعدة سـاعات يوميًا ، وأنه فـي تلك الأيام القليلة التي سبقت الحدث تحديدًا في منتصف العام الثالث الإعدادي كان في حالة اعتيـاد هـادئ على ما يعانيـه من لهيب ، ولم تكن هنـاك أي اضطرابات متفاقمة خاصة كالتي كانت تحدث بين الحين والحين وكان قد تقدم دراسيًا إلى الدرجة التي سلم له كل منافسيه أنه الأول عليهم.

هـذه هي حقائق الحالة الواقعة أقدمها كما أعلمها وليأت من العلماء التطبيقيين بعد ذلك من يقدم لنا تفسـيرًا علميًا مبرهنًا أو فليأت من يأت من المفكرين فليقدم ... فليأت أيا من هؤلاء فليقدم لنا تفسيره أو تحليله وبرهانـه علـى ذلك سـواء كان في هذه الواقعـة أو في الوقائـع الخارقة الأخرى التي سأذكرها بإذن الله لنا تحليلاً عقليًا راجحًا.

أما الحدث الذي وقع هو أننا كنا في ساحة المدرسة في حصة الألعاب وكان علينا أن نقفز فوق جواد من خشب وذلك بالجري نحوه من الخلف ثم وضع أيدينا على ظهره ثم القفز من فوقه لعبوره طولاً.

كان الجواد الخشـبي يرتفع نحو مائة سـنتيمتر ويزيد عن ذلك قليلاً دون عنق أو رأس طبعًا ، مع وجود طبقة من الاسفنج أو القطن فوق الظهر وذلك ليناسب إمكانية القفز بالنسبة لتلاميذ في الإعدادي.

جريت نحو الجواد الخشـبي ووضعت يدي فوق ظهره وقفزت من فوقه لأعبـره طـولاً وإذا بـي في لحظة القفز نفسـها أرى شـيئًا مذهـلاً جعلني أسـقط فورًا على أحد جانبي الحصان مغمضًا عيناي وممسـكًا برأسي ودافنا بها في تراب الفناء يملؤني الذهول والرهبة.

ترى ماذا رأيت؟!

رأيت نفسي من الخلف وأنا أقفز فوق الجواد الخشبي .

والتعبير الذي ذكرته غير دقيق ولكني ذكرته كي لا يصدم القارئ لأول وهلة فيكذبني.

وأقول للقارئ إذا كنت تعتقد أني ملحدًا فلا معنى لتكذيبي فيما سأقول.. وإن كنت تعتقد أنني مؤمن فأقسم لك بما أؤمن إنني صادق فيما سأقول:

في هذه اللحظة تحديدًا قد كنت (أنا) في الخلف ورأيت جسدي يقفز فوق الجواد.

وليفسر (أنا) هذه من يفسر وليشرح لنا الحدث من يشرح، المهم أن يأتي لنا ببرهان علمي أو تحليلاً راجحًا.

***

ما هذا النور؟

بضربة واحدة.

يمتد كل شيء في الغياب البعيد.

وكأن الواقع بأكمله قد تهشم تمامًا وسقط في هوة سحيقة.

بضربة واحدة

فقد كل شيء.

فقد كل أحلامه المبهرة .. فقد النبوغ .. لأنه فقد القدرة على النبوغ .. لأنه بفقدها هي فقد القدرة على فعل الإرادة.

لا معنى للمعنى بعد فقدان الهدف.

ولا رغبة بعدها في أي رغبة.

قبر يسعى فوق الأرض.

قبر جعل من غيابه هو تمرده الوحيد.

تمرده الذي لا يملك غيره.

في مواجهة عالم يسحق كل شيء.

وتعلم بذلك أن يكون اثنين .. ذلك المعايش لمن حوله وذلك الذي يغوص.. يغوص في الحقائق يبحث عن الأسرار.

كان حتى هذه اللحظة يحتفظ بسره الذي لم يطلع عليه أحد سواها .. سوى القبر الآخر الذي يعيش إلى جواره.

كانت المأساة بحجم الموت والجنون معًا.. الموت لأنه انتهى كل شيء.. والجنون لأنه مازالت تنبض بهما الحياة.. ولكن في عجز كامل.

كل منهما يؤدي دوره الباهت المرغم عليه في الحياة بقلب ميت، فإذا التقت نظراتهما اشتعل الجحيم في جبال الرماد .

كان ينتظر المذبحة التي يعرف أنها ستطوله وحده، ولم يكن يعرف أنها ستطولهما معًا وسيكون الذبح فيها أشد وأنكى .

كان يعـرف أنه سـيفقد أجمل زهرات الوجـود. ولكنه لم يكن يعلم أنها ستسحق وتلقى في صندوق القمامة.

لـم يكن يعلـم أن حلمه الـذي يفوق أجمل الخيال سـيتم تسـليمه إلى المسخ.

لم تبقى لديه سوى إرادة وحيدة .. هي أن يفهم .

ليس فقط سر ما حدث . وإنما السر كله . السر كله المتعلق بالوجود.. بالحياة.. بالكينونة.. بالمصير ..

حين ذهب إلى الموت لم يستطع.

وجد من يستحيل مواجهته.

وجد من يستحيل تحديه.

وجد الله.

هو وحده الذي لم يستطع أن يتشكك فيه.

إنه يشعر بوجوده حينما شعر بوجوده هو نفسه.

لا زمان ولا مكان . ولكن هكذا تحديدًا.

يشعر بوجوده حيثما شعر بوجوده هو نفسه.

جرب آلاف المرات.. لا بل ملايين المرات ..بل الأدق ما لا يحصى، من المرات .. فوجد أن مجرد الشـك في وجوده يفقد العقل تماسكه ويجعله

عرضة للإنهيار.

وجد أن كل علاقات الترابط في الوعي ذاته القادرة على التفاعل مع كل مدركات الحياة قائمة في الأساس على وجوده بما يعني أن إدراك المدرك قائم على وجوده.. بله القدرة على التفاعل معه.

إن ما أقوله هذا هو ما فوق العليِّ.. والغائي.. والنظامي.. والجمالي .. والكمالي.. إنه فوق الأدلة لما لا يحتاج إلى أدلة.

لقد جاء الإسلام بلفظ (القيوم) الذي هو اسم من أسماء اللّه الحسنى. هذا تحديدًا هو اللفظ الوحيد القادر على وصف ما أريد أن أقول، فكما هو فاعل في الكون.. فاعل في وعي الإنسان.. فوجوده هو الصانع والمحافظ معًا على هذا الوعي.

في معنى قريب من هذا المعنى يقول الفيلسوف الوجودي ياسبرز في كتابه تاريخ الفلسفة:

إن هذا العالم يفتقر إلى قيمة مطلقة تهم وجودنا الحميم. ذلك لأنه لا يقدم أي إجابة عن الأسئلة المتعلقة بحقيقتنا الذاتية أو كينونتنا الخاصة . ونحن نملك شعورًا أصيلاً بجدية هذه الأسئلة: فحقيقة كوننا موجودين تنطوي في صميمها على سر معتم غامض. هذا السر يعطي الحياة وزنا لا نهائيًا.. ففي هذه الحياة يتقرر شيء ما . ومن المهم أن أعرف كيف أعيش ولأجل أية غاية أعيش.. ونحن نملك كذلك شعورًا بالمطلق .. يمكنه أن يقف في مواجهة كل ما هو جزئي. هذا الشعور شامل محيط، لأنه ليس بحاجة للموضوع لأي موضوع. ونحن نجد كذلك أن ما يمكن إثبات صحته يظل من ناحية المضمون شيئًا لا يكترث به وجودنا الذاتي الحميم (صحيح أن الجهد الذي نبذله للتوسع في معارفنا لا يمكن أن

يكون شـيئًا نقف منه موقـف عدم الاكتراث، ولكن مضمون الشـيء الدقيق وحسب هو الذي يهم وجودنا الشخصي) إن الحقيقة التي تشد أزر حياتنا وتوجهها لا يمكن أن تحتاج إلى برهان ملزم .أ.هـ

كان غارقًـا حينـذاك في القراءات الفلسـفية والدينيـة ولم يكن قد أكمل عامه السادس عشر بعد ، لم يتمسك بالإسلام ـ ومن ثم الحياة ـ عن تقليد ولكن عن اقتناع، ورغم جفاف الاكتئاب الذي يحيا فيه كان يحاول أن يكون ملتزمًا بقواعد الإسلام خاضعا لأحكامه.

* * * * *

تـرك إخوته بالصالة ودخـل إلى غرفة النوم، آخر مايتذكره أنه وصل إلى حافة السرير وصعد إليه، ثم ماذا.. ثم مالا يستطيع ذكره أو وصفه.

يلازمنـي نـور يصعـد إلى السـماء فيمـا يتجـاوز ما يمكـن تخيله من السـرعة وفيمـا يتجـاوز ما يمكن أن نعرفه عن السـماء، نـور اخترق ما يمكن الاعتقاد أنه سماء فيما لا يمكن التعبير عنه بالزمن.. في اللازمن.

وفـي اللازمن بلغ مرحلة، لم يسـتطع تجاوزها فهبـط على الفور، في اللازمـن، فتنبهت للعالـم، من حولي وأنا على ثقـة كاملة أنني ماكنت نائمًا، ولكـي اتأكد مما حدث ناديت بعض إخوتي الكبار وسألتهم:

ـ هل أنا نمت؟ ألم أكن أحد منكم منذ قليل؟

فأجاب أحدهم :

ـ صحيح أنت كنت تحدثنا حلاً ن فمتى نمت إذن؟

بقي أهم شيء لم اقله بعد.

هذا النور الذي أتحدث عنه لم أكن أراه وإنما كان حالي.

اذهب من هنا

ليس المكان مكانك

هل تذكرون مغارة خالد الثقافية التي تحدثت عنها في هذا الكتاب مـن قبل وقلت فـي ذاك: إن وصف هذا البيت العجيب أمر يطول قد أرويه في قصة أخرى.

وقد جاء هنا مناسبة ذلك في هذه القصة الأخرى .

يقع هذا البيت تحديدًا على حافة المنطقة القديمة المأهولة بالسكان من البلدة، حيث كانت واجهته الجنوبية تطل على فراغ ممتد من أراضي الدولـة التي تفصل بين جسـرين بامتداد حوالـي ثلاثين مترًا، أما واجهته الغربيـة فتتمثل في بقايا أشـجار تفصل المبنى الأساسـي للبيت عن أحد الجسور بعدة أمتار، والواجهة الشرقية تطل على الجسر الآخر، وتنفصل الواجهـة الشـمالية عن البيت المجـاور بفراغ يمتد لحوالي عشـرة أمتار، تنتشر فيه بقايا أشجار أيضًا، وينطبع لديك من اللحظة الأولى لمشاهدة هـذا البيت أنه كان بيت عز وأتـى عليه الزمان ليحيل الحديقة المحيطة به إلى أطلال خربة، يعيش معها البيت في شبه عزلة.

ويتكون المبنى الأساسي للبيت من دورين الأعلى منهما كان صالحًا للمعيشة وتسكن به العائلة أما الدور الأسفل فشبه مغارة غابت معالمها، استقلت منها بالكاد غرفتان متجاورتان وصالة قذرة ودورة مياه مهجورة، أما حوائط المغارة فقد كانت متصدعة تسـرح فيها الشـروخ والشـقوق . وكان الـدور الأول يقـع بالكامل تحت المنسـوب الأرضـي للبلدة التي تحيط به، فإذا أخذت في الاعتبار المسـافة الفاصلة المهجورة بينه وبين البيـت المجاور فإن هـذا يعني أن عليك أن تهبط في منحدر يمتد لحوالي

خمسة عشر مترًا لكي تدخل من باب البيت ثم تمضي عشرة أمتار أخرى في الضوء الخافت بين حوائط شبه مهدمة يلفها العنكبوت من كل جانب لكي تصل إلى الصالة المظلمة ثم منها إلى إحدى الغرفتين اللتين تمثلان مغارة خالد الثقافية.

أما ما يزيد هذا البيت رهبة ويجعله بيتًا من بيوت الرعب لأفلام السينما العالمية هو تلك الرواية التي حكاها أكثر من شخص من أهل البيت من بينهم خالد نفسه والتي تقول أن جد خالد وبعض أصدقائه كانوا ممن يمارسون عمليات تحضير الأرواح (تحضير الجان من المنظور الإسلامي) وكانت تقوم فكرة هذه الطريقة التي رووها على وضع ورقة وقلم في مسلة (سبت بالعامية المصرية) ويقومون بتحضيرالروح بحسب ادعائهم ثم يسألونها ما يريدون من أسئلة فتجيب عليهم كتابة من خلال الورقة والقلم اللذين داخل السلة ، وأذكر أن خالدًا قد أكد حدوث ذلك بكل قوة . ثم ذكر الموضوع بعدها بعامين أو ثلاثة فنفاه تمامًا وقال إنه لم أنه كان هناك أحد الماكرين الذين كانوا يحركون القلم.

بالرغم من خلافنا الأيديولوجي فقد وقف معي خالد وقفات عظيمة كان من بينها أنه عندما ضاقت عليَّ دنيا بلدتنا ولم نجد فيها سكنا يأويني سواء كان بالإيجار أم بغير إيجار اضطررنا معًا أن أسكن مؤقتًا في إحدى غرفتي الدور الأرضي من المنزل التابعتين له . وأقول اضطررنا لأن كلانا يعي جيدًا أنه على الرغم من علاقة الصداقة الأخوية بيننا وما يشتملها من عطف وتقدير فإن المعايشة الدائمة بيننا قد تفجر هذه العلاقة بسبب خلافنا الأيديولوجي.

فعلى سبيل المثال لم أكن من جهتي في ذلك الوقت أسكت ـ لسانًا ـ عن أي مخالفة دينية تحدث أمامي.

وبالنسـبة لخالد فإنه بعيدًا حتى عـن موقفه الأيديولوجي فإنه قد يرى كشـاب أن الدنيـا لـم تعطه من الماديـات غير هاتيـن الغرفتين ليمارس فيهما حياته بحرية . والحق يقال إني لم أعرف عن خالد علاقات نسـائية مارقة على الرغم مما يتحلى به من وسـامة ، ولكن مشكلته كانت في حبـه للخمـر وإن كنـت لم ألحظ فعله ذلك إلا مـرات قليلة جدًا مع بعض أصدقائه.

فـإذا عدنا لموقفه الأيديولوجي فإن هذا يعني توافد أشـخاص معينين من الأصدقاء قد لا يود معرفتي إياهم، هذا غير خروج هؤلاء الأشخاص عـن قواعد الدين أمامي وسـخريتهم من بعـض المعتقدات كالملائكة على وجه الخصوص.

وأحـب أن أشـير هنـا إلـى أن تحليـل واقع المنـزل الذي نحـن بصدده أهـم كثيرًا من تحليل واقع الحالة العقلية لصاحب الواقعة بالنسـبة لهذا الحدث الذي سأحكيه على وجه الخصوص.

والحـدث ببسـاطة هو أن صاحبنـا كان مغلقًا على نفسـه باب الغرفة ومنهمك في القراءة تمامًا فإذ به يسمع ـ تراك ك ك ك .

ليس من المهم أن النور قد أطفئ في الغرفة وحدها دون باقي البيت ـ حيـث ادرك ذلـك من خـلال الفراغات الضيقة التي يتركهـا باب الغرفة المغلق ـ وليس مهمًا أن المفتاح قد أغلق وحده لكن المهم هذا الصوت القوي جدًا الذي سمعه في غلق المفتاح والذي ربما لم يسمع صوت إغلاق مفتـاح مثلـه طيلـة حياته. فلو قيـل أن المفتاح كان معلقًا ثـم أغلق وحده بالقصـور الذاتـي لكان الصـوت خفيضًا لأنه قطع نصف المسـافة على الأقل دون ضغط من أحد ، بل أن هذا المفتاح نفسه عند فتحه أو إغلاقه

من خلال الضغط لا يصنع نصف أو حتى ربع هذا الصوت. ولك أن تجرب ألف مرة أن تعلق مفتاح في نصف المسافة ثم تتركه فهل سيصنع هذه التراك الرهيبة التي أحدثك عنها.

كل ذلك تم الوعي به عند حدث الحدث على الفور دون أي زمن. ودون أي زمن أيضًا تم الوعي به أو تم إبراز ذلك في الوعي بوجه أدق أن بيتًا خربًا (أقصد بذلك الدور الأرضي من البيت) شبه مهجور.. كانت تُحضَّر فيه العفاريت ويُسْخَر فيه من الملائكة هو خير مكان لعبث الشياطين. فإذا لم تتواجد الشياطين في بيت كهذا فإلى أين تذهب إذن؟!!!

هذا الإدراك الذي أدركته بلا زمن جعلني استعيذ بالله وأقرأ قرآنًا بصوت عال حتى يهدأ فزعي، هرع خالد إليَّ من الغرفة المجاورة. ودفع الباب وفتح النور مرة أخرى، وعندما سألني عما حدث وأخبرته عن وجهة نظري في البيت.

أجابني ضاحكًا:

_ فعلاً، عندك حق إذا لم يكن الشياطين سيسكنون هنا أين سيسكنون إذن؟!.

أما أنا فقد كان رأيي فيما حدث أن سكان المكان غير المرئيين كانوا يرسلون لي بذلك رسالة شبه مهذبة فحواها:

_ إذهب من هنا، ليس هذا المكان مكانك.

مواجهة مع المجهول
فوق السطح

في عام سبع وثمانين تم الاتفاق مع عمي كبير العائلة وكبير البلد أدبيا (كان قاضيا شرعيا في عام اثنين وخمسين فالنسبة منذ ذلك مكانة كبرى في البلد) أن ابني على حسابي الشخصي غرفة على سطح أحد المنازل التي يملكها وذلك لسكني الشخصي بدلاً من تشروي في كل مكان.

كانت هذه الغرفة تقع في أخر سطح بيت قديم يمتد لحوالي عشرين مترًا بعرض حوالي إثنى عشـر مترًا ن ومن الطبيعي أني كنت مسـتغرق التفكيـر في صراعـي الخاص وفـي إنتاجي الفكرى الـذي بدا يصعد بخطوات ثابتة وقوية للغاية.

فبدأت مقالاتي تنتشـر في هـذا المكان صفحـات الفكـر الكبرى واسـتطعت ان اصدر كتاب الأول (الأسـلام النفسـي) الذي كتبت عنه فـور إصـداره عدة مـرات جرائد كبـرى كالأهرام وغيرهـا بل وإحدى المجلات اللندنية الهامة ، وكذلك كتابي الثاني عن العلمانية في نفس الوقـت الـذي ب>ا فيـه الانحدار السـريع لخصمـي المقابل وبـدأ الناس ينظـرون إلى كحقيقة واعدة وإن كانت المسـافة مازالت بعيدة لتحقيق الانتصار في صراعي الوجداني.

لـم الحـظ مع هذا الاسـتغراق أن هذا السـطح الذي يمتـد لأكثر من خمسـة عشـر مترا أمامي عبـارة عن غـرف مهدمة طيور وقوائم خشـبية تدلى منها أحبال وخرق وأسـلاك وأن المشـهد بوجه عام ـ لمن هو غير مسـتغرق التفكير في أشـياء أخرى مقبـض بالفعل للنفـس. وفي إحدى ليالـي الشـتاء فقدت فجاءة (جالون الجاز) الذ أمـلأ به الوابور الذي يمثل غيقاده بجانبي متعتي الوحيدة في تلك الليالي.

ظلك أبحث عن الجالون في كل مكان فلم أجاره بت الليلة متتكرًا.

فــي اليــوم التالي ذهبت لسـبب للناحيــة الأخرى من السـطح ففوجئت بوجـود (الجالون) هناك تعجبت لما حدث لأنني ليس فقط لا أذكر أنني ذهبـت إلى هذه النـاحيــة المقابلة ولكن لأنني أعلم أنه لم يكن هناك ما يدعونــي أن أذهب إلى تلك النـاحية من الأسـاس فكيف من الممكن أن اكون قد نسيت (الجالون) هناك.

بلــغ تعجبــي من الأمر أن تحدثت عنه مع بعض ابناء عم آخر لي يقيمون فــي نفـس المنزل فقال لي أكبرهــم: أن لا عجب في ذلك، فجدي كان يتحدث كثيرًا عن اختفاء الأشياء في هذا المنزل والعثور عليها بعد ذلك بششكل مفاجئ.

طبعًا نسيت الأمر وعدت للأستغراق في التفكير في أموري الخاصة.

وبينمــا كنت أقوم مــن النوم لاعتدل قاعدًا في يوم من الأيام شــدهت لرأيا أمرًا عجيبًا حقًا، فالميدالية التي أصنع بها مفتاح الغرفة والتي هي عبارة عن دائرتين من الســلك وجدتها قد برمت أي أنه قد تم برم الســلك حول نفسه.

كان العجب في ذلك أنه رغم اجتهادي في التفكير في هذا الموضوع فلم أتذكر أبدًا أنني قد قعلت ذلك (أبرمت السـلك) أو كان لي الغرض في كل ذلك ويسـتبعد ان يكون أحد أصدقائي قد فعل ذلك والميدالية دائمًــا فــي جيبي كمــا أن برم هــذا النوع من الســلك مسـالة صعبة جدا فضلا عن صعوبة حدوث ذلك دون أن ألاحظة.

ما هذا الذي يحدث وما العمل بصدده؟ لاشيء... لم ألبث أن استغرقت التفكير في أموري مرة أخرى.

بعدها بوقت ليس بالطويل كنت أستعد للسهر في الكتابة في إحدى الليالـي وكنـت أعد بعض الأمـور المتعلقة بذلك أمام بـاب الغرف فجأة ملأنـي شـعور هـو اليقيـن ذاته بأن هنـاك كيانـا غير منظور قـوي جدا يتحرك فوق السـطح .. هذا هو زمن الأدراك الوحيد أما ماحدث بعد ذلك فقد كان في الفنتو ثانية أو بقول أدق في اللازمن.

شـعرت بيقين كامل أن هـذا الكيان الغير منظـور القوي جدا يتجه الى بخطوات سريعة يرتج تحتها السطح بصوت مسموع قوي كأن هناك زلـزالا ألا يحـدث . جريت إلى الغرفة بأسـرع ما يمكن فـي اللازمن في نفس اللحظة التي أغلقت فيها الباب خلفي وسحبت المزلاج.

فـي نفس هـذه اللحظة بالضبط ارتطـم الباب بالقـوة المندفعة نحوي بأعلـى صـوت يمكـن أن يسـمع من بـاب خشـبي ارتطم (اتخبـط) بقوة مندفعـة نحـوه . هنـاك شـيء يقيني في العقل البشـري لا يمكن قياسـه يستطيع أن يؤكد أن لحظة الارتطام هي اللحظة اليقنية النهائية لسرعة الكيان القادم نحوك.

ظللت أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وأذكر الله حتى ذهب فزعي، لكنني منذ اللحظة التالية للارتطام لم اسمع شيئا على الإطلاق ولا حتى نفس .. أو همس أو نميم أقدام تسحب خفيه .. لاشي ابدا من ذلك مع أني كنت أقف؟ خلف الباب على الفور.

في اليوم التالي أتيت بكتاب شـرعي متخصص في الموضوع وظللت اقرا الأيات المنجيات والطاردات للشياطين . فلم يحدث شيء بعدها أبدًا.

إشارة أخيرة:

هذا الفصل تم كتابته قبل ذلك وفقد تمامًا.

يا فلان الذي لا أعرفك

أنت اسمك كذا

في يوم من أيام معرض كتاب عام الرابع والتسعين حدثت هذه الواقعة التي أقدم لها بالتالي .

لن استطيع أن أكتب عما حدث في صراعي الخاص في تلك المرحلة سوى ملامح وإشارات مع إدراكي أن الأمر ليس بعيدًا عن الإدراك لمن يجتهد أن يفهم.

هو الآن يعيش ما يشبه الهدنة في صراعه الخاص الكبير، وكان قد اقترب من هدفه اقترابا بعد سلسلة من الانتصارات في معارك اجتماعية معقدة أهله لها نجاحاته المتتالية الباهرة في واقعه العملي من منظور مجتمعي راهن على نجاحه وفشله بعد تلك التحديات التي أطلقها لمفاهيم هذا المجتمع وتقاليده الراسخة.

لقد اقترب من الهدف إلى الدرجة التي تردد معها بين الأوساط المتابعة ـ حتى لدى بعض خصومه في الجانب المقابل ـ أن المسألة مسألة وقت ويحسم كل شيء. بل وردد بعضهم لفظًا : (ديه حاجة معروفة إن ده حيحصل).

ثم ما لبث أن تلقى عدة ضربات ارتادية متوقعة ثم ضربات أقسى مفاجئة أبعدته عن الهدف مرة أخرى منكسرًا إلى حد كبير.

كان صراعه الأصغر قد حسم لصالحه بعد أن أدى الإدراك السيكولوجي للطرف المقابل لمدى ما يعنيه تقدمه الباهر من هزيمة مخزية له إلى انتحار بيولوجي لأجهزة جسمه استمر لعدة أشهر.

وعلى الرغم مما سبق فقد كانت من آخر كلماته: طول ما البت ديه

في دماغ الواد ده حيتقدم لقدام.

أما الورثة فحملوا شعلة الانتقام غير مستندين على شيء غير تربصهم لما يقع فيه من عثرات في صراعه الأكبر.

كان انتصاره الحاسم الذي يمنحه القدرة على التنفس بقدر من الأمل رغم الشرخ الحادث بسبب هزائمه الأخيرة هو أنه تحت الضغط المتواصل لإصراره المرعب وضرباته المتلاحقة التي وجهها بدهاء عميق ـ أعانه عليه بعض رفاقه ـ اضطر من هو مفترض فيه أنه الخصم المقابل أن يستمر في استخدام سلاحه الوحيد ـ الذي اعتاد هو على تحمل آلام جراحه ـ ببذخ شديد أدى إلى استنفاذه ذلك فإنه قد استنفذ طاقة ما يفترض له من عمر تالي للإيفاء بالتعويض عما تم استخدامه في تعويض ما تم تبديده وتم تنديده أيضًا.

وتحت هذه التراكمات تداعت الأكذوبة الكبرى إلى الأبد. ولم تبق إلا لحظة الارتطام على الأرض التي ينتظرها الجميع.

وما كانت عقدة الأمر بيد الخصم المقابل يومًا لكنه ألغي الآن من المشهد . ولم تعد عقدة الأمر في يد حتى الطاغية القديمة وإنما توزعت أطرافها بين عدة جهات لم تعد هي سوى إحداها بل غدا هو نفسه طرفًا أساسيًا بين هذه الأطراف. ومن العجيب أن صاحب الشأن نفسه تحت ضغط شعوره بالمسئولية الجسيمة التي يتحملها. وما أصابه من رعب عن مدى تحمله لتلك المسئولية مستقبلاً وما أصابه من دوار بسبب قوة الرياح المتضاربة في السنوات الأخيرة كل ذلك أفقده ما يفترض أنه استجد له من الإرادة، وألقى به في خضم بحر العجز مرة أخرى تتقاذفه الأمواج كيفما شاءت . ومن ثم ـ وتلك عجائب الزمن ـ تم حذفه من مشهد

الصراع هو الآخر.

وتمثلت ذروة انتصاراته في انه استطاع استمالة أغلب أطراف عقده الأمر إلى جانبه على غصة في حلوقهم من هذا العدو القديم، الذي مضى جانب كبير من أعمارهم يتمنون موته أو انهياره، وصارت مصالحته الآن هي الأفضل لمصالحهم. فكان الواقع يمثل شبه معاهدة شاملة ضمنية مع الأطراف الأقوى وصريحة مع تابعيهم الأضعف ـ على إنهاء الصراع وتحقيق الهدف والمصالحة التامة.. وبل وإقامة حلف اجتماعي جديد. ولم يبق على ذلك سوى انتظار النهاية.

وكانت نقاط الخلاف هي هل يتم انتظار النهاية التي لن تطول لسنتين أو ثلاث على الأكثر أم يتم التعجيل بها وهو الأمر الذي لا يحتاج لأكثر من ضربة واحدة.

لماذا يتم الانتظار لشيء تداعى وبدت حتمية نهايته؟ هل هناك شيء مريب يحدث؟

كان يصرخ لا استطيع تصور حدوث ما يفترض أنه أمر طبيعي فيما تبقى من واقع الآن.

إن ذلك كان يحرق شراييني بالأمس، أما الآن فهو يصعقني صعقًا، يصعقني صعقًا.

ولم يستطع التحمل فانفجر احتجاجًا .

وأصاب الانفجار صاحب الشأن نفسه الذي تمت إهانته مرة أخرى (المرة الأولى كانت في ظروف غاية في التعقيد يصعب سردها هنا، ولا يُراد) وحدث ذلك دون قصد على مرأى ومسمع من شخص آخر ثم تم تجليل حيا صاحب الشأن بالاتهام، وبذلك فإن الانفجار انفجر رأسًا في

وجه أطراف عقدة الأمر الذين أخذتهم الصدمة ولكنهم لم يتعجلوا الرد.

ومع هذا لم يكن هذا الانفجار هو الأساس فيما حدث من شرخ جاسم بعد ذلك، كأن هناك شيئًا سريعًا يختمر بالفعل، لا أستطيع أن أتحدث إلا عن أقل القليل من خلاصته وهو أن هناك أمرًا واحدًا تم عرضه هو نفسه على كلا الطرفين، صاحبنا وأهم أطراف عقدة الأمر كل بحسب قدراته وإمكاناته، ولأن صاحبنا كان صاحب القدرات والإمكانات الأكبر فيما يناسب ذلك فقد عرض عليه الموضوع أولاً والذي مضمونه ان يبيع دينه ودنياه، فلما أصر صاحبنا على عدم تصديق حقيقة العرض أصلاً وأن الأمر ليس إلا هزلاً الأمر نفسه عرض على الطرف الآخر والذي لم يكن لديه دين من الأصل كي يبيعه ومن ثم فقد غدا أهم ما يقتضيه العرض هو فصم علاقة الطرف الآخر بصاحبنا وبل وإبعاده مطلقًا عن تحقيق هدفه المصيري.

كان في هذا اليوم تحديدًا يريد الانتهاء من أعماله التجارية بالمعرض للحاق بميعاد قرب المغرب بفيلا المسيري في أرض الجولف لإلقاء محاضرة حول: (العلاقة بين الإسلام والعقل في الفكر الإسلامي على امتداد التاريخ). لم يكن الموضوع سهلاً خصوصًا أنه يلقى على مجموعة من المتخصصين الذين يسنون أسنانهم له بعد شهرته العريضة (بموازين هذا المجال) حتى ولو كان أغلبهم من الشباب، هذا بالإضافة إلى الدكتور المسيري نفسه.

وفي ظل ما مر به من انتكاسات أخيرة في صراعه الخاص، فقد أصيب بخسائر مادية كبيرة بسبب ما نجم عن هذه الانتكاسات. من دوار وثبوت همة وشلل إرادة حتى عمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه مما تبقى لديه من مال سائل في إحالته إلى صورة أشياء ثابتة يصعب تبديدها

ومن ثم احتاج المال السائل لإنتاج كتابه الجديد.

ويثور سؤال تلقائي هنا: ـ

ـ ألم يكن كاتبًا ناجحًا ومعروفًا، فلماذا يحتاج المال لإنتاج كتابه إذن؟

واعتقد أن هذه مناسبة جيدة لإلقاء بعض الضوء ـ الهام جدًا والذي يحتاج لكتاب كامل ـ على العلاقة بين الفكر والمال في مجتمع مثل مجتمعنا.

إن مصادر الدخل المشروعة لأي كاتب هي الوظيفة (سواء كانت العمل في الصحافة أو في وزارة الثقافة أو في أي شأن آخر) أو الكتابة في الجرائد والمجلات أو كتابة الكتب (أضيف بعد هذا المصدر الأكبر للدخل للكتاب الآن والمتمثل في الفضائيات والذي ننحيه جانبًا مؤقتًا). فإذا كان الكاتب محتفظًا بوظيفة ما، فإن أقصى ما يبتغيه من مقابل مادي مباشر من كتبه هو بيع (حق المؤلف) لأحد الناشرين مقابل أفضل نسبة ممكنة من الثمن المحدد لبيع الكتاب وهذه النسبة لا يكون لها جدوى ذات شأن إلا إذا بيع من نسخ الكتاب عشرات الآلاف، وهذا امر لا يحدث إلا نادرًا للغاية في عالمنا العربي. فقد تحدث لكتاب ذي نزعة تسويقية مثل أنيس منصور ومصطفى محمود والأكاديمي الوحيد الذي حقق ـ ويقال إنه مازال يحقق ـ ذلك هو الشيخ محمد أبو زهرة وقد قال له الرئيس عبد الناصر مرة وهو يداعبه: إن دخلك من كتبك يفوق دخل الوزراء عندي.

أو بعض المؤلفات الدينية المحدودة للغاية التي لاقت قبولاً خاصًا لدى النقاد والجمهور مثل فقه السنة للسيد سابق ورجال حول الرسول لخالد

محمد خالد .

وقد فاق الكتاب الأول كل تصورات انتشار الكتب ربما على مستوى العالم أجمع فربما بلغ عشرات الملايين. فبحسب علمي فإنه باستثناء القرآن الكريم ككتاب مقدس ـ وكتاب رياض الصالحين للإمام النووي فلا يوجد كتاب أكثر انتشارًا في عالمنا العربي من كتاب فقه السنة والله أعلم.

والكتاب الفكري الوحيد الذي قيل انه تم توزيع مليون نسخة منه في عالمنا العربي فقط هو كتاب الإسلام يتحدى وهو الترجمة العربية التي نقلها الدكتور عبد الصبور شاهين عن كتاب العلامة الهندي وحيد الدين خان (مدخل علمي إلى الإيمان).

أما البضعة آلاف التي كانت تمثلها أنجح الكتب في تلك الفترة (أوائل وأواسط التسعينيات) فإن نسبة حق المؤلف من الثمن المحدد لها لا يمثل شيئًا ذا جدوى بالنسبة للمؤلف الجاد فضلاً عن أن تكون عوضًا عن الوقت المنفق في تأليف الكتاب.

ومع ذلك فبالنسبة للكاتب صاحب الوظيفة فإنه يرتضى هذه النسبة أملاً في أن يتم تعويضه عن ذلك من خلال المكاسب المادية غير المباشرة أو المكاسب الأدبية التي يحققها الكتاب.

أما بالنسبة للكاتب المستقل الذي قرر ألا يرتبط بأي وظيفة محددة ـ وهذا أمر يندر حدوثه ليس في عالمنا العربي فقط ولكن في العالم أجمع حتى أن أحد الصحفيين الألمان قال لي عندما تم تعارفنا في ذلك الوقت في جريدة الشعب: إن ما تفعله شيئًا صعبًا جدًا فإن اعتماد الكاتب على دخله من الكتب والمقالات شيء صعب حدوثه في

ألمانيا ذاتها.

وبعد اقتحام القنوات الفضائية لعالم الإعلام واحتلالها الصدارة فيه مثلت للكُتاب الذين نتحدث عنهم ـ والذين لا يمكن انتشار استضافتهم فيها على أفضل الأحوال إلا انتشارًا أقل من المتوسط ـ مصدرًا جديدًا للدخل هو الأفضل والأيسر تمامًا.

ولا تعتقد أن كل ما سبق ـ حتى بعد إضافة الدخل الفضائي الجديد ـ يمكن أن يوفر للكاتب المستقل أكثر من قدر مناسب من المعيشة المتيسرة بالنسبة لأصحاب الدخول المتوسطة.

فإذا رأيت مظاهر الثروة أو الرفاهية والترف حول كاتب (مفكر ـ عالم ـ داعية) ولم يكن لأحد أقاربه شأن بهذا فلا تعتقدن أن ذلك مرجعه ما يعود عليه من دخل عمله. فهذا لم يحدث إلا في حالات نادرة للغاية تكاد تكون مستحيلة في مجتمعاتنا في هذا العصر، وإنما يقف وراء ذلك جهة ما من جهات متعددة خارجية أو داخلية تتصارع على النفوذ الثقافي أو العقلي بوجه عام في مجتمعاتنا (مخابرات دولية (أمريكا ـ اسرائيل ـ إيران ـ خليج ـ دول غربية وشرقية)، مؤسسات تابعة لسلطة الدولة القائمة، تيارات فكرية مختلفة. ولكل جهة من هذه الجهات قنواتها الفضائية وجرائدها ومجلاتها ودور نشرها الكبرى ومنافذها الثقافية الأخرى الخاصة بها بل قد يكون لها نصيب صغير أو كبير في أجهزة إعلام الآخرين حتى العدو منها وذلك بحسب إمكانتها وقدرتها على النفاذ إليها.

وبهذا نفهم كيف أن الانتشار الواسع للكاتب (الداعية ـ العالم ـ المفكر) في أجهزة الإعلام المختلفة ما هو إلا تجسيدًا لمدى تبعيته

لإحدى هذه الجهات وللفائدة المرجوة منه في تحقيق أهدافها.

وباستثناء التبعية للقوى الخارجية قد لا تكون التبعية لأي جهة من الجهات الأخرى المؤسسية (السلطوية أو الأيديولوجية) نقصًا أو عيبًا في شرف الكاتب فقد يرى أن ذلك ما يستقيم مع المصلحة الكلية للمجتمع، ولكن غاية ما في الأمر هو أن ذلك ينفي الحديث عن أي فكر جديد يضاف من جانب هؤلاء، لأن الأداة لا تستطيع أن تنتج شيئًا لغير ما أريد لها.

وهذه التبعية لمثل هذه الجهات تجعل من عملية الفكر أو الوعي بشكل عام هو تحصيل حاصل للأهداف التي تسعى إليها هذه الجهة. وما يفعله المفكر أو المحلل أو الداعية ليس سوى إنتاج التأويل اللفظي لدفع الموضوع الذي يقف بصدده في اتجاه الوعي الذي يخدم تحقيق هدف تلك الجهة في ذهن القارئ أو المتلق بوجه عام، أي أن الواقع الحقيقي المتمثل في الوعي الثقافي ما هو إلا عمليات إنتاج تراكمية للوعي الزائف لتحقيق أهداف جهات متعددة ينجح كل منها في تحقيق النسبة الأكبر منها بحسب إمكانياتها وقدراتها على التأثير (وهنا يقال عن المخابرات الغربية والأمريكية تحديدًا الكثير فيما يتعلق بصناعة الوعي الزائف وهناك كتاب شهير في هذا الموضوع (من يدفع ثمن العازف) ويعمل هذا الوعي الزائف أيضًا على إعادة صياغة وتشكيل القوة التأثيرية للدوافع ومن ثم يحدد مسارات السلوك فإنه بحسب بعض فلاسفة المدرسة النقدية _ دورنو على وجه الخصوص _ يعيد تشكيل وصياغة الإنسان ذاته.

ورغم إقرارنا بضراوة الضغوط القاسية للوعي الزائف خصوصًا في المجتمعات المستباحة للآلة الفكرية للحضارة الغربية البراجماتية

تحديـدًا فـإن الارتـدادات المختلفـة لتلـك الضغوط سـواء على مسـتوى الأفـراد أو المجتمعات تعنـي إنكار هذه القيمة النهائيـة لصياغة الوعي المشـيء للإنسـان مهما أخذنا في الاعتبار دور اختلاف ملابسات الواقع فـي فاعلية الممارسـة السـلطوية لهـذا الوعي فقد تتقـارب تلك الظروف والملابسـات بيـن أفـراد ومجتمعـات ولكننا نجـد عوامـل دافعة أخرى تعيق هذه القوة الضاغطة على التأثير اللا محدود ، عوامل مثل الإيمان .. الحب.. العبقرية.. العاطفة غير المعقلنة.

ويتكشف لنا هنا أن بلوغ الحقيقة _ وهناك حقيقة محددة فعلاً حتى لـو تفـاوت منظورها من الجوانـب الأخرى فيظل محورهـا ثابتًا _ لا يعود فقـط لمـدى عبقريـة المفكر أو اجتهـاده وإنما يعود في الأسـاس أيضًا لمـدى قدرته على دفع الهوى والإصرار الصادق على بلوغها .أما التأصيل الفلسـفي للهوى بعد التأصيل الفلسـفي للا معرفة في الفلسفات الما بعد حداثية فلن يكون إلا بعد فقدان القدرة على التأصيل الفلسفي للتمسك الصادق ببلوغ الحقيقة ودفع الهوى.

ودون تدخـل من الدين تجد أننا في سـبيلنا لكشـف حقيقة كلية ما فلابـد أن تكـون خطوة البحـث في المسـتوى التالي قائمـة على خطوة أولـى أو أكثـر صادقـة فـإذا تدخـل الهوى فـي أي خطوة مـن الخطوات فـإن الانحـراف عنهـا يكـون حتميًـا مهمـا كانـت درجـة العبقرية لأن النفـس الإنسـانية _ مـع انتفـاء الـرؤى المسـبقة _ هـي عمـاء محايـد يتلاعـب بـه مـا لا يمكـن حصـره مـن الدوافـع والأهـواء والأفـكار وما ينحرف المفكر عن التزام مسلك الصدق ويميل به الهوى حتى ينزلق إلى مسارات جديدة لها مقوماتها المتوافقة التي تشكل فيما بينها ما قد يبدو لصاحب الهوى حقائق أخرى يمكن الاستناد عليها.

وإذا كانت الحقيقة الكلية تحتاج التدرج لعدة مستويات للنفاد إليها، فإن الرسوخ الأكبر في التزام الصدق يختصر تلك المستويات، حيث يسارع في تفكيك الحجب التي قد تنهار فجأة وتتكشف الحقيقة الكلية بكل سطوع فيما يسمى البصيرة.

ولعلي لن أهتم هنا ـ وبشيء من التردد ـ اهتمامًا خاصًا إلا بتناول ضغوط الوعي المصنع للتيارات الفكرية المؤدلجة والتيار الديني الأكبر فيها على وجه الخصوص، لما أراه من كون زيف الوعي المصنع خارجيًا أمريكيًا أو صهيونيًا أو شيعيًا أو غير ذلك أكثر وضوحًا، كما أنني قد بذلت مجهودًا مسجلاً في عدة كتب ودراسات سابقة في كشف هذا الزيف، أما الوعي المؤسسي فهو في الغالب أكليشيهات تقليدية معادة، لا يحتاج العقل للتفكير طويلاً لكشف الزائف فيها من الحقيقي.

وقبل أن أدلف إلى الموضوع أحب أن أقول إن نقدي للجهة س لا يعني انحيازي الجهة ص وإن نقدي للأهلي لا يعني انتمائي للزمالك (ومن الطريف أنني عندما كنت أهتم بالكرة في الطفولة كنت ترساناوي) كما أن نقدي لهذه الجهة لا يعني أنها خاطئة تمامًا والأخرى صالحة تمامًا ولكن كل له وعليه، ولو لم نتحرر من هذه الطريقة في التفكير لظللنا أساري الجهل والتخلف إلى ما لا نهاية.

غاية ما في الأمر أن الوعي الزائف لهذه الجهة التي اتناولها هو الوعي الأكثر التباسًا ونفادًا إلى عقول الجماهير مدعومًا في ذلك بما يجذبهم إليه من عاطفة دينية وتضحيات مؤثرة.

فالمجال الثقافي الإسلامي في عالمنا العربي يسيطر عليه تيار محدد شبه سيطرة كاملة منذ عدة عقود، ساعده على ذلك إتاحة سياسية

مقصودة إلى حد كبير، ورصيد من التضحيات استعطافي للجماهير، وقدر ما من الإنتاج الفكري والدعوي وأرصدة من الأموال تكاد تكون بلا حدود. هي ناتج استثمار أموال عشرات الملايين المنضمة في أكثر من مائة دولة هذا بالإضافة إلى الأغلب الأعم من الأموال الداعمة للدعوة الإسلامية في العالم أجمع والذي يعمل هذا جميعه في دائرة مصلحية واحدة وبسيولة شبه كاملة في سبيل تحقيق الأهداف العليا لهذا التيار.

ومنذ حوالي ثلاثة عقود ونصف (وإن كان جذور ما نقول وجدت بدرجات متفاوتة منذ نشوء هذا التيار) حكم تفكير هذا التيار مجموعة من الأفكار المحورية التي تصنع في مجموعها نسقًا من التفكير تدور في فلكه كل أفكار التيار وقيمه وأفعاله.

فإذا تحدثت بلسان حال هذا التفكير أقول:

نحن التيار الحق الذي يعمل لنصرة الإسلام والقادر على تطبيق شريعته على الواقع المعاصر وما غيرنا من اتجاهات إسلامية إما ضال عن وجهة الحق وإما جاهل أو عاجز العقل عن بلوغها. (وأنبه القارئ من تأثير عدم اقتناعي على المبررات التي أوردها هنا لتسويغ تلك الأفكار) فنحن التيار الأخلص الذي قدم التضحيات تلو التضحيات في سبيل الإسلام ونحن أصحاب الفكر والدعوة الذين تزخر المكتبة الإسلامية بآلاف الكتب في تراثهم الفكري والدعوي، وتنتشر رسائلهم الجامعية ومؤسساتهم الفكرية والدعوية في كل مكان في العالم كما تنتشر مؤسساتهم الخدمية والمجتمعية في كل مكان في العالم أيضًا.

إذن نحن الأحق والأجدر على نصرة الإسلام وتطبيقه، ما دام الأمر كذلك فإن تقدمنا إلى قيادة المجتمع وتمكيننا من الحكم والتوجيه

يعني التمكين للإسلام نفسه والقدرة على تطبيق شريعته.

لكن هذا العالم يحكمه واقع لا يجعلنا نعمل في الهواء الطلق، فالعالم الإسلامي يرقد في هزيمة حضارية منذ أكثر من قرنين، نفسه والذي يتحكم في العالم الآن قوى أخرى هي في الغالب معادية له خصوصًا القوى الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ولكن أصل هذا العداء يعود في غالبه لتصور هذه القوى معاداة الإسلام لها وتناقض قيمه مع قيمها.

فإذا كانت هذه الدولة هي التي تتحكم في تحديد من هم اللاعبون الذين يصلون إلى السلطة في دول العالم الإسلامي فإن إقناع الباب العالي الذي يمثل مراكز القيادة في هذه البلاد بعدم معاداة الإسلام لها واتفاق قيمه مع قيمها والالتزام بتحقيق مصالحها، وبخطوة تالية إقناع هذا الباب العالي بأن قيادات هذا التيار سيلتزمون بالتوفيق بين قيم الإسلام والقيم الغربية . وبالشكل الأدق بتأويل قواعد الإسلام، وتكيفها لتتوافق مع القيم الغربية والتزام هذه القيادات بتحقيق المصالح الغربية فإن ذلك بدوره سيقنع قيادات هذا الباب العالي بالعمل على دفع قيادات هذا التيار بالسيطرة على السلطة في بلاد الإسلام، بذلك يتم تخلصها من ضغوط مطالبة الشعوب الإسلامية بتطبيق الإسلام الذي تم تأييدهم من اجله بخداعها أن ذلك قد تم بالفعل حيث تمثل ذلك في سيطرة أشخاص هؤلاء الإسلاميين على السلطة، وذلك في الوقت الذي تم فيه التخلص من الإسلام نفسه بعد تكيف قواعده مع القيم الغربية.

وبالنسبة لقيادات هذا التيار فإن بلوغهم امتلاك سلطات البلاد يعني التمكين للإسلام ذاته لأنهم تيار الحق الذي لا بديل له، ولا لوم عليهم في سبيل تحقيق هذا الهدف الأعلى في تأويل بعض قواعد الإسلام

للتوافـق مع القيم الغربيـة ، وعمليًا يتم التضحية بهذه القواعد في سـبيل الوصول للسـلطة . فالضرورات تبيح المحظـورات، وما لا يتم الواجب إلا بـه فهـو واجب . ثم من قال إنه تـم التضحية بذلك وإنما هـي مرحلة أولية فقد تكون هناك عملية خداع لهذه الدول الكبرى وما أن يسـتتب الأمر في تمكين هذه القيادات من سلطات البلاد حتى يمكن تطبيق الإسلام خطوة خطوة على المدى البعيد .

وأنت لا تعرف من يمكنه خداع من؟ فإذا كانت سلة البيض في يدي فكيف يمكنك الحصول على بيض آخر غير البيضة التي في يدك .. أو بالأحرى قشر البيض التي في يدك.

وفي سبيل التمكين من السلطة تغدو الديمقراطية متطابقة مع الشورى والحرية مقدمة على الشـريعة ، والحق والعدل هما الشـريعة (ولسـائل أن يسـأل هل هنـاك معنى محدد في العالـم أجمع لتلك الحريـة وذاك الحق وذاك العـدل الـذي يتحدثـون عنـه) والاقتصاد الإسـلامي هـو الاقتصاد الحـر ، والمسـاواة تامة بين الرجـل والمرأة ، وتتوافـق قواعد الموالاة في الإسلام مع الاتجاهات التي تحددها مصالح القوى الغربية ، إلى أن يصل الأمـر لدى بعض الفـروع إلى الموافقة على زواج المرأة المسـلمة من غير المسـلم ، والتسـليم بتماثل المرأة مع الرجل فـي المواريث وتأييد المثلية الجنسية.

ولا ضـرر أن يتـم السـماح لبعـض قواعد التيـار بنقد ذلـك هنا وهناك فذلـك تأكيد على سـماحة التيـار ، وتمتعه بالحريـة الفكرية كما أن ذلـك يخدم إيهام الجماهير أن مـا يحدث ليس إلا خداع مرحلي من التيار القوى الكبرى سيتم نقضه فيما بعد.

وهكــذا يتــم التضحية بالإســلام نفســه وإحلال النجاح فــي تمكين التيار من الســلطات بديلاً عنه وفي إطار العلاقات المتداخلة في النسـق بيــن مــا هو إيماني وما هــو تبريري، وما هو ثابت وما هــو متغير، وما هو تجديدي وما هو تلفيقي، يغيب في وعي هؤلاء أنفسـهم الحدود الفاصلة في توجهاتهم في ظل هذا النسـق بين ما هو ديني وما هو ديني براجماتي وما هو براجماتي بالكامل.

ســألت نفســي: لماذا عبرت عن تلك الحالة العقلية لهـذا التيار ـ وقد تـم ذلك لأول مرة بطريقـة تلقائية عندما كنت أجيـب صديقي الكاتب الشـهير عـن رأيـي في تفسـير ما يحـدث ـ بكلمة نسـق وليـس كلمة منظومــة؟ فوجـدت أن كلمـة منظومـة تحيي بوجود شــيء مـن المحاور والركائـز والتنظيـم والبناء، أما كلمة نسـق فإنها الأقـرب للتعبير عن مجموعـة مـن الأفـكار المتوافقـة دون قواعد محددة وهذا مـا يعبر عن الحالة العقلية لهذا التيار.

***

إننـا فـي نقدنـا لهـذا الضـوء الـذي يخفـي الحقائـق لانتحـدث عـن اسـتخدامات مختلفـة للإسـلام كما يذهـب كتاب العـرب والعلمانيين عندنا كالأسـتاذ أمين العالم فالإسلام حقيقة واقعة يعلم الجميع ثوابتها أما التأويلات والتمويهات المختلفة له فهذه مجرد تخريجات منحرفة عن الخط المستقيم الواضح الذي تعتصم به الجماهير في النهاية مهما حاول البعض دفعها إلى هذا التأويل او التمييع.

حتى العاملين على هذا التمييع واللبرة للإسلام فإنهم عند محاصرتهم فـي المواجهـة يقـرون بانحرافهـم عـن الحقيقـة ويحاولـون تبريـر ذلـك بالضرورة.

وليس الإسلام مثل الثقافات الغربية التاريخية التي طغت عليها الليبرالية الحديثة وتركتها لترسب الى العمق او تحذف إلى الهامش والتي يمكن ان تشكل منها جينالوجيا جديدة في مواجهة الثقافة الليبرالية أو النظريات الماركيسية التي يُدعى علميتها كما يحاول أن يفعل فوكو. ولكننا هنا في عالمنا الإسلامي أمام أسس إسلامية راسخة وواضحة وبارزة وما محاولات التزييف التي يحاول البعض القيام بها تجاهها سواء بالتأويل أو التمييع أو اللبرة إلا غشاء رقيق من الضوء الرمادي الذي لايتداعى البعض إليه إلا بدافع المصلحة وهم يعلمون جيدًا مدى زيفه وضلاله والذي يمكن إزالته بسهولة بكشف زيف أصحاب هذه المحاولات والمصالح التي يقفون وراءها.

***

قد يقول البعض لكن هذا التيار يشمل أيضًا جانبًا من الأصوليين الناقدين له.

أقول: إن وجود هؤلاء الأصوليين الناقدين لا يمثل ضررًا لقياداته وإنما مصلحة لهم لأنه يتم استخدامهم كشكل تجميلي زائف (ديكور) لترويج أن التيار يجمع فيما بين المنتمين له الأصولي الناقد مثلما يجمع البراجماتي التبريري ومن ثم لا يمكن إهداره بالكامل وغاية ما في الأمر هو الادعاء الأبدي بالعمل على إصلاحه وكأنه طريق وحيد للعمل الدعوي الشرعي.

ولا يبرر موقف هؤلاء أنفسهم ما يقومون به من نقد بين الحين والآخر لنفس السبب الذي تحدثت عنه خصوصًا أنهم متهمون بالحفاظ على مصالحهم معه . حيث لا يزيل المسئولية عنهم سوى الرفض الكامل له دون النظر لاستمرار تلك المصالح.

وتلك السيطرة شبه الكاملة على الدعوة من خلال المال والإعلام تصنع من هذا التيار ما يشبه الكنيسة التي لا تحتوي فقط الخطاب الديني المستقل وإنما يمتد نفوذها إلى الخطاب الديني الرسمي وجانب كبير أيضًا من الخطاب العلماني الذي يتم التساوق معه على التوليفات والتقاطعات التي تشترك مصالحهما فيها، ليتم وضع كل ذلك في النهاية في يد الباب العالي الحقيقي الذي يقف على رأس تلك الكنيسة وهو القوى العالمية التي ترعى تلك المصالح. فتجهض بذلك ثورات وثروات شعوب قاموا بقيادتها لصالح هذا البابا ويهدر الرصيد الدعوي للصحوة الإسلامية على امتداد نصف قرن لصالح هذا الباب.

وليس هناك للخروج بالدعوة الإسلامية من هذه المآزق والأزمات التي شارك في دفعها إليها بعض أهلها إلا بفصل هذه الدعوة عن استهداف الحكم، فلابد أن ينفصل الدعاة عن استهداف الحكم تمامًا حتى لا يكونوا عرضة للأهواء والخلط بين الدعوة إلى سيادة الإسلام وسيادة أنفسهم فيتقون بذلك السقوط في تلك الهاوية التي يسقط الكثيرون إليها، وهي أن يضحى وصول أشخاص الإسلاميين إلى الحكم هو الهدف الأساسي ويتم التنازل عن الإسلام نفسه كثمن لذلك، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فعلى دعاة الإسلام أن يدعوا فقط إلى سيادة الإسلام في المجتمع أما القيام بتنفيذ هذه السيادة وتطبيق أحكام الإسلام ورعاية مفاهيمه وقيمه فليقم به من يقم، وليتحمل المسئولية من يتحمل والله يهدي من يشاء.

***

وإذا كان يتم التعامل مع الإسلام نفسه بكل هذا الإهدار في ظل هذا النسق «فكيف يتم التعامل مع دعاته من أصحاب الاتجاهات

المخالفة سواء كانوا يمثلون تيارات وجماعات أخرى أو دعاة ومفكرين مستقلين»؟..

لا شيء يفي التعبير عن ذلك سوى الاستباحة شبه التامة. فيتم الاجتراء على الأفعال التي يكون من شأنه العمل على تحقير هؤلاء في أعين الناس وتكميم أفواههم وإزاحتهم من ساحة الدعوى، فيتم تسفيههم وحجبهم عن التعبير في قنواتهم الإعلامية، والعمل على تعويقهم عن التعبير أو التشويش عليهم إذا استطاعوا النفاذ إليها حتى إذا أدى الأمر إلى إسكاتهم بالقوة وإلقاء التهم عليهم بالباطل.

أما على مستوى الواقع الاجتماعي فيتم اتخاذ كافة الممارسات الاجتماعية الملتوية المدعومة بقوى مالية جبارة، تستطيع اختراق السلطة نفسها واستخدام بعض رجالها لمصلحتها ومن ثم يتم توظيف كل ذلك في إعاقة أي اتجاه إسلامي آخر عن الاستمرار سواء بالإفقار أو الطعن في الأعراض أو إيقاع الفتنة بينهم وبين الناس أو نصب الشباك لتلفيق التهم لهم والزج بهم في السجون، بل قد يتطور الأمر إلى فقدانهم السيطرة على أنفسهم من فرط الغل وقيامهم بالاعتداء المباشر على أصحاب الاتجاهات الإسلامية الأخرى وانكشاف ما في قلوبهم من كراهية وحقد تجاههم دون مواربة.

يتم ذلك في نفس الوقت الذي يتم فيه تملق أصحاب الاتجاهات اللا إسلامية والتقرب منهم بشتى الوسائل، حتى الملحدين منهم، وكم من ملحد، ذاع صيته على يد هؤلاء، وكم من محارب للإسلام على في الأرض استنادًا على قوة نفوذهم ماداموا يتربحون من ذلك الزلفى إلى أصحاب الباب العالي الغربي الأمريكي، وكم شاهدنا ذلك وعشناه في مؤتمرات وندوات وتحالفات كانوا يتعاملون فيها مع أصحاب الاتجاهات

اللا إسـلامية بكل ذل وصغار ومع أصحاب الاتجاهات الإسلامية بكل عزة واسـتكبار. حيث تتجسد فيهم الآية الكريمة(أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين) تجسيدًا معكوسًا أيما تجسد.

وحيث يتجسـد ذلك في كافة المواقـف التي يتم اتخاذها تجاه هؤلاء وهـؤلاء علـى جميع الأصعـدة السياسـية والثقافية سـواء على المسـتوى المحلي أو العالمي.

***

وفـي ظـل هذه الأوضاع فإن نفـوذ هذا التيار في عالـم الكتب يكاد يكـون مماثـلاً للنفوذ الأمريكي فـي عالم الاقتصاد، فـلا يمارس (أو كان هـذا كذلك أو نحن نتحدث على مسـتوى العالم الإسـلامي وليس مجـرد شـأن محلي) هـذا التيار نفوذه فقـط على دور النشـر التابعة له ـ وهي كثيرة للغاية وتكاد تتجاوز الخمس والعشرين في المائة من القيمة التسـويقية للكتـب المباعـة في معرض الكتـاب مثلاً ـ وإنمـا يتجاوز نفـوذه ذلك إلى الكثير من دور النشـر الأخرى التي تتعامل مع هذه القوة الاقتصادية الجبارة في عالم النشر.

إذن، وبنـاءًا علـى كل مـا سـبق فلـم يكـن لصاحبنا لكـي يحتفظ باستقلاله الفكري إلا بالعمل على إنتاج كتبه بنفسه ليضيف إلى الدخل الناتـج لـه من حق المؤلف الدخـل الناتج من القيمـة الربحية لرأس المال المنتـج للكتـاب. أي أنه يقوم بدور المؤلف والناشـر معًـا ليربح المقابل الناتـج عن دورهمـا معًا فيوفر بذلك قدرًا من الدخل يسـاعده على توفير الحياة الكريمة.

وبمقياس ذلك الوقت (العام الرابع والتسعين) فإن كتابًا واحدًا كبير

الحجم يباع منه ثلاثة آلاف نسـخة في سـنة واحدة يمكنه أن يوفر دخلاً كريمًا لصاحبه إذا قام بهذين الدورين معًا (المؤلف والناشر) وهذا كان أمرًا طبيعيًا لصاحبنا إذا أتبع قيامه بالدورين السـابقين، بذل الجهد في فتح المنافذ لتسويق كتابه في ظل حصار وضغوط التيار إياه على تسويق كتبه في تلك المنافذ.

وإذا كانـت تكلفـة إنتـاج الكتاب تعنـي تقديم جزء نقـدي من هذه التكلفـة وتأجيـل الجـزء الباقـي على هيئة شـيكات أو وصـول أمانة، ويدفـع قدرًا كبيرًا من هذا الجزء المؤجل بعد إنهاء عملية التسـويق في المعـرض فـإن ذلك يوضح لنا مـدى الهموم التي يحملها فـي تلك اللحظة التي ينتقل فيها من المعرض في طريقه إلى فيلا المسيري بأرض الجولف والتي تبدأ معها حكايتنا.

وقبل أن أترك موضوع الكتب ومعرض الكتاب هذا أود أن أشير إلى موضوع كثيرًا ما ألام عليه من النقاد والناشرين والأصدقاء والقراء معًا.

أقـول بصـدد ذلك أنـه بالعودة إلـى الحديـث عما يقتضيه اسـتقلالي الفكـري من قيامي بدور المؤلف والناشـر معًا فـإن ذلك يصنع ديناميته الخاصة.

فتكلفـة الكتـاب المؤجـل جزء كبيـر منها تقتضي إنتاجـه مع بدء معرض الكتاب حتى يدفع جانب من هذا الجزء مع قيمة تسويقه في نهاية المعـرض. وهـذا يقتضـي أن يتم الانتهاء من تأليـف الكتاب وطبعه قبل بدء المعرض لتبدأ الدورة في السـداد وإلا يتعرض المنتج للكتاب (وهو المؤلف هنا) لمشاكل مالية خطيرة قد تعرضه للسجن. وهذا الانتهاء في الميعاد المناسب لا يحدث أبدًا، وغالبًا ما يعود ذلك إلى تلاعب القائمين

علـى إدارة مكاتـب الكمبيوتر بالمواعيد المقدمـة للانتهاء من كتاب النسـخ المقدمة مـن الكتب ثم في الانتهاء من عمليـة التصحيح، ثم في الإهمـال فـي عملية التصحيح ذاتهـا توفيرًا منهم للمجهـود والوقت .كل هـذا يحدث بينما الوقـت يضيق، والمعرض يقتـرب، والالتزامات واجبة الدفع، والمجهود الرهيب الذي بذل من قبل ذلك بشـهور وما صاحبه من خسـائر اجتماعية جسـيمة نتيجة الاسـتغراق في عملية التأليف قد تصل لشـيء من الخراب، كل ذلك لن يجد القيمـة المادية القادرة على إنقاذه علـى المـدى القريـب، حتى يصل الأمر إلـى نقطة تعني إنقـاذ ما يمكن إنقاذه وهي العمل على وضوح الأفكار الأساسية في الكتاب وتخليصها مـن الأخطـاء التي قد تشـوش عليها، أما مـا يتبقى من أخطـاء بعد ذلك فإنـه يعبـر تعبيرًا واقعيًا عن الظروف والملابسـات المحيطة بعملية إنتاج الكتاب.

وقـد حاولـت لأدفع التهمة عن نفسـي من أخطاء مخجلة يتسـبب فيها القائمون على أجهزة الكمبيوتر بشـكل أساسـي أن أخصص أشخاصًا للمراجعـة اللغويـة على قـدر كبير من العلـم باللغة (ماجسـتير في اللغة العربية) وأن أسجل أسمهم على صفحة الغلاف الداخلية لأعقد المسئولية عليهـم ومع ذلك وجدت أخطـاء مخجلة أيضًا من أمثال (قال المسـلمين) فأدركت أن المسـألة تتعلق في الأسـاس إلى إهمال بعض القائمين على أجهزة الكمبيوتر وقلة ضمائرهم.

وتأكـد لـي ذلك حين وجـدت أمثال هـذه الأخطاء لا فـي كتب دور النشر الكبرى التابعة للدولة فقط مثل الهيئة العامة للكتاب ولكن في الكتب الصادرة عن الأزهر نفسـه، طبعًـا بقدر أقل كثيرًا من الأخطاء الواقعـة في بعـض كتبي، ونرجو مـن اللّه أن يعيننا علـى درء هذا الأمر

وإخراج الكتب بأفضل صورة ممكنة.

ونعود إلى حكايتنا.

قبل أن أذكر الذي الحدث لي تدشين بسيط ليعذرني القارئ فيه إذا خرج قليلاً عن الموضوعية ـ هو: ليذهب من يذهب في تفسير هذا الحدث كيفما يشاء ولكن لربما أمر يثير الضحك إذا ذهب البعض إلى القول بإن هذا الحدث وترددداته ليس أمرًا خارقًا.

ها هو صاحبنا القادم من معرض الكتاب يقف على محطة المترو وهو يعاني ما أصابه من إرهاق في المعرض ومشغولاً بالمحاضرة التي سيلقيها في ندوة المسيري، توافد على المحطة ثلاثة أو أربعة فتيان في حدود الخامسة أو السادسة عشر من العمر، كانوا يتحدثون عن المناهج التعليمية وتبدو على وجوههم آيات النبوغ، ولربما كانوا ذاهبين أو عائدين من درس خصوصي، وطبعًا لم يكن عمره قد رآهم من قبل أو يدري عنهم شيئًا .

فجأة صعدت إلى رأسه ـ وهو ينظر لوجوههم متابعًا نقاشهم ـ فكرة غريبة للغاية ألحت عليه إلحاحًا شديدًا حتى أراد أن يتحقق منها على ما في ذلك من إحراج.

فوجه الإشارة إلى أحدهم قائلاً:

ـ كابتن لو سمحت (فانتبه له الفتى وأصغى له الآخرون)

ـ .. انت اسمك محمد؟

ـ أيوه أنا إسمي محمد.

فإذا به يتوجه إلى فتى آخر بجانبه ويقول:

ـ وانت كمان ياكابتن اسمك محمد.

فيجيبه الآخر بغرابة.

ـ أيوه أنا اسمي محمد .

الراجـح جدًا عنده أنه سـأل ثالثًا نفس السـؤال وأجابه نفس الإجابة، ولكـن طـول المـدة التي مرت علـى حدوث ذلـك أفقده اليقيـن في هذه النقطة، وأكد على هذا التشـكك غرابة تكراره ثلاث مرات عنده هو نفسه.

وتوجه متابعًا للفتى الاخير قائلاً:

ـ لكن أنت يا كابتن ما اسمكش محمد.

ـ صحيح أنا اسمي طلعت.

وفـي عـام ألفين أثـارت إعجابه فتاة علـى درجة كبيرة مـن الجمال، وكان قـد رآهـا وحدهـا بالمتـرو وعلم أنها تسـكن في منطقة شـعبية خطرة . حاول أن يعرف عنها شيئًا لكي يتقدم إلى خطبتها، ولكن حال بينه وبين ذلك مخاطر شتى كالبلطجة والابتزاز ورغبة بعض ابناء الحي فيهـا، ولم يكن له أصدقاء في هذا المكان لكي يسـتطيع النفاذ إلى ما يريد من خلالهم.

ولـم يقطـع الأمل مع ذلك وظل يبحث عن منفذ يصل به إلى معلومات، وإذا به في ظل مساعيه تلك يتذكر ما دار بينه وبين تلك الفتية ويتساءل: ترى ماذا يمكن أن يكون اسم تلك الفتاة؟

بـدأ يركز تركيزًا شـديدًا في عينيها ووجهها وهو يسـتعيد صورتها في مخيلته وهو يقول بينه وبين نفسـه: يبدو أن اسـمًا غريبًا نادرًا بالنسبة للاسماء ذات الصفة التي تتردد بين البنات كمنى وسحر وسمر.

ومع ذلك لم يمر الوقت طويلاً حتى بدا لعقله فجأة أن اسمها غادة.. (هل

هو حقًا غادة؟) هكذا تساءل بينه وبين نفسه، وفكر هل من الممكن أن يكون لها اسم آخر؟ ركز في صورتها التي يستعيدها في خياله مرة أخرى وأجاب نفسه: لا لا أعتقد أنه يمكن أن يكون لها إسم آخر.

في هذه الأثناء وفي ظل استمرار صعوبة الحصول على أي معلومات عن هذه الفتاة حتى ولو معرفة ما هو البيت الذي تسكنه على وجه التحديد ـ رأى صاحبنا فتاة أخرى في مكان آخر قد لا تقل عن هذه جمالاً ولكنها تزيد عنها من حيث مظهرها الملتزم دينيًا وجذبه أكثر إلى الانتقال إليها من الفتاة الأخرى سرعة الوصول إليها، فما إن انتبه إليها حين رآها دخلت أحد المنازل على بُعد أمتار من الموضع الذي رآها فيه.

قرر أن يجمع عنها المعلومات ليرى إن كان ذلك مناسبًا له حتى يتقدم إليها، وهو في صدد ذلك أغراه التفكير بتكرار اللعبة مرة أخرى.

ـ ترى ماذا يكون اسمها؟

استعاد صورتها في خياله وركز في عينيها ووجهها .. إن صورتها تعطيه معنى واضحًا ولكن يشترك فيه عدة اسماء ولا يستطيع أن يصل إلى اسم محدد ولكن الأغلب أن الاسم يتردد بين سعاد وسعيدة وبمجرد حصوله على المعلومات الأولى اكتشف أن اسمها سعدية، وهو اسم أقرب ما يكون إلى الإسمين السابقين.

عند ذلك شعر أنه يمتلك أحيانا شيئًا فريدًا وقرر ألا يكرر هذه التجربة مرة أخرى خشية أن يفقده خصوصًا أنه لم ينجح في هذه المرة الأخيرة نجاحًا كاملاً.

بعد لقاء ناجح مع الأسرة ـ كان باديًا على الفتاة تحمسها له فيه ـ أبلغه الأب تليفونيًا الموافقة بعدها بعدة أيام ورتب معه للقاء آخر في

الأيـام التالية وقبل الموعد الجديد بيوم واحـد تقريبًا أبلغه تليفونيًا أيضًا بالرفض التام.

اعترفت الفتاة له بعد ذلك تفصيليًا في لقاء تم بمعرفة الأسرة أن التيار الـذي تنتمـي إليه هي وأسـرتها هو الذي اعتـرض اعتراضًا باتًـا ولم تعد هناك حيلة في ذلك.

وخير فعل، فقد أدرك بعد ذلك أنه لا يستطيع هو نفسه أن يطيق أحدًا مخلصًا لهذا التيار ولو ظاهريًا.

عـاد للتفكير في الفتاة الأولى واكتشـف وهو فـي صدد البحث عن عنـوان بيتهـا أنـه تربطه علاقـة طفيفة بأحـد الأشـخاص القانتين بذلك الحي الشـعبي وكان شـخصًا منطويًـا للغاية ولكن من خلاله اسـتطاع الاسـتعانة بصديق له على معرفة جيدة بالأسـرة . ومن ناحية اخرى أرسله أحد أصدقائه من اليســار إلى صديق له بالمنطقة على معرفة جيدة أيضًا بالأسرة وأكثر ثقة من الشخص الأول. وفجأة تردد على سمعه من الأول:

ـ أنا متهيألي غادة دي مرتبطة بواحد تاني .

ومن الثاني:

ـ غـادة دي الصغيـرة واللي عرفتـه إن الراجل اللي انـت بعته من مدة وكنت شاكك فيه إنه بيستغلك ومش حيكلم الراجل ولا حاجة، كلمهم فعلاً وقالوا مش حنجوز الصغيرة قبل الكبيرة.

يالا المفاجأة المذهلة.

المذهلة بوجه خاص نظرًا لصعوبة الاسم.

لقد كان اسمها غادة فعلاً !!!!! ......

***

الأحلام والمستقبل

بداية أنبه القارئ أنني لن أتورط هنا في كتابة دراسة ما أو عملاً تنظيريًا عن الأحلام، فهذا يتعارض مع مادة هذه الحكايا التي أقدمها من إنسان إلى كل إنسان وإنما أقدم له هنا مدخلاً مبسطًا لمحاولة فهم الحدث الذي اعتبره خارقًا والذي سأحكي عنه في نهاية المطاف .

بحسب العقيدة الإسلامية فإن الأحلام تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

* رؤيا من الله

* ورؤيا تحزين من الشيطان

* ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة فيراه في المنام» متفق عليه

.. وفي حديث آخر يقول الرسول ﷺ عن الرؤيتين الأولتين:

«إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها، فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها، وليحدث بها، وإذ رأى غير ذلك مما يكره: فإنما هي من الشيطان فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره» متفق عليه.

لكن ماذا لو أراد الإنسان أن يزيد من صدق رؤاه ويستشرف بها أحداث المستقبل؟.

إن الرسول ﷺ رسم لذلك طريقًا حيث قال:

و»أصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثًا» مسلم

ولأن تكرار الرؤيا الصادقة هي علامة من علامات الصلاح فلذلك

جاء في حديثه ﷺ:

«الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة» متفق عليه

ونحـن نتحدث هنا عن تكرار الرؤيـا الصادقة وليس مجرد حدوثها ، لأن مجـرد حـدوث الرؤيـا الصادقـة يحدث للصالـح والطالح من البشـر وبهـذا تحدث النـاس عبر التاريخ، وحديث الناس هـذا عبر التاريخ يمثل الاسـتدلال الفلسفي الأساسـي على فكرة تنبؤ الأحلام بالمستقبل على خـلاف الماديين، الذيـن ينكرون ذلـك ويرجعونه إلى خلـل وظيفي في المخ أو إلى قدرة العقل الباطن على التنبؤ بالمستقبل.

وحكاية أن صدق الأحلام ليس وقفًا على الصالحين من البشـر فقط يؤكدها الإسـلام نفسه وذلك كما جاء في قوله تعالى في سورة يوسف «وقـال الملـك إني أرى سـبع بقرات سـمان يأكلهن سـبع عجاف وسـبع سـنبلات خضر وآخر يابسـات يا أيهـا المـلأ أفتوني في رؤيـاي إن كنتم للرؤيا تعبرون» الآية ٤٢.

وكذلك في رؤيتي صاحبي سجن يوسف بنفس السورة لكن المجال الأرحب للتحليل النفسي والتفكير الفلسفي هو في تلك المساحة المتسعة جدًا من الأحلام التي قال عنها الرسـول ﷺ «مما يحدث به الرجل نفسـه في اليقظة فيراه في المنام».

والتي سماها القرآن على لسان ملأ ملك يوسف: أضغاث أحلام .

«قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» . يوسف: ٤٤ .

قال العالم الفيلسوف الفخر الرازي في تفسير الآية:

«واعلـم أن القـوم مـا نفـوا عـن أنفسـهم كونهـم عالميـن بعلـم التعبيـر، بـل قالـوا: إن علـم التعبيـر علـى قسـمين منـه مـا تكـون

الرؤيا فيه منسقة منتظمة فيسهل الانتقال من الأمور المتخيلة إلى الحقائق العقلية الروحانية ومنه ما تكون فيه مختلطة مضطربة ولا يكون فيها ترتيب معلوم وهو المسمى بالأضغاث، والقوم قالوا إن رؤيا الملك من قسم الأضغاث ثم أخبروا أنهم غير عالمين بتعبير هذا القسم».

إن عجز هؤلاء عن تفسير رؤيا الملك هو الذي دفع بهم إلى اعتبارها من قسم الأضغاث مما يخفف من إحراجهم بسبب هذا العجز .

والمعنى هنا أن الرؤيا لها انتظام خاص يرشد إلى كونها رؤيا وليست أضغاثًا . وما أراه أن الحالم نفسه لو كان صحو التفكير والشعور يدرك بذاته الفرق بين الرؤيا والأضغاث، فالرؤيا تتولد معها حالة شعورية تقول إن هذا الذي تراه له تماسكه الخاص المستقل المطل على المستقبل بخلاف الرؤى المضطربة الأخرى وإن كان كلاهما قابلاً للتفسير.

وأكبر الخطأ أن يكون هناك تفسير محدد وعام للشيء الذي يراه أشخاص متعددون، وقديما طرحت كتاب تفسير الأحلام لابن سيرين جانبًا عندما رأيت ما وضعه من جداول لتفسير الأشياء التي يراها الناس في الأحلام، ولكنني عندما قرأت مقدمة كتابه بعد ذلك وجدت الرجل نفسه ينصح الناس بأن دلالة الأشياء التي ترى تختلف من شخص إلى آخر، وأن ما وضعه من جداول لتلك الرموز ما هي إلا أمثلة تقريبية لا أكثر.

في العصر الحديث لم يذهب فرويد بعيدًا عن أن الاحلام هي تعبير عما يفكر فيه الإنسان ذاته ولكنه ذهب بعيدًا في إرجاع كل ما يفكر فيه الإنسان إلى شيء واحد هو اللبيدو أو الطاقة الجنسية الكامنة.

فالرغبة فكرة تترجم إلى صور وبما أن عناصر الرغبة لا يمكنها كلها أن تكون ذات شكل بصري يحدث لتلك الرغبة أن تنقل أو تبدل على شكل تمثيلي رمزي، وهنا نكون قد حصلنا على صيغة أولية لمحتوى الحلم.

والصور الراهنة هي الوسيلة التي يمتلكها الحلم من أجل تمكنه من تمثيل الرغبة والتي مهما كان شأنها لا تكون بدورها سوى الوسيلة التي يعبر بها عن غريزتنا الجنسية الأكثر عمقًا وانغرازًا فينا . والحلم يمثل طبقات عدة وللوصول إلى اللب يجب اجتياز الكثير من هذه الطبقات، ذلك أن تمثيل رغبة ما سرعان ما يتحول إلى رمز لرغبة أخرى ليست في حقيقتها سوى رمز لرغبة ثالثة، وهكذا إلى أن نصل إلى الرغبة الأساس التي تقف خلف رمزيات الرغبات الأخرى وهي الرغبة الجنسية.

والمشكلة الأساس في تفسير فرويد ـ كما هي في سائر نظريته ـ هو اقتصاره رغبات الإنسان على رغبة واحدة هي اللبيدو حتى وإن جعل منها الرغبة الأم للرغبات الأخرى، وهو أمر لم يقره العلم أو الفكر البشري على امتداد التاريخ . وهناك من الفلاسفة من يضع في مقابل ذلك الإيموس أو (إثبات الذات) كرغبة أولى تتولد عنها باقي الرغبات (هيجل وتلاميذه) أو حب الحياة والخوف من الموت عند علماء النفس الأحدث. وما نراه أن الإنسان تتقاسمه عدة رغبات مثل الجنس، وإثبات الذات، والسمو، والأمان وأمور اخرى أكثر تعقيدًا تتفاوت في ثقلها من شخص إلى آخر في ظل ضغوط وملائمات داخلية وخارجية متشابكة (ولنا نظرية في ذلك تم طرحها بشكل أولي في الطبعة الأولى من كتاب، «كن قويًا بالإيمان»، ثم تم تطويرها منذ عدة سنوات ولم تنشر، ونعمل على تطويرها للمرة الثالثة حتى تنشر بالشكل المناسب والمضمون

الأكثر تأصيلاً واختبارًا».

ويذهب العلم الحديث إلى بطلان التفسير الفرويدي للأحلام مثله في ذلك مثل باقي عناصر النظرية الأخرى وإن كان لا يقدم نظرية راجحة بديلة.

فهناك نظرية بارزة في علم الأعصاب هي نظرية التنشيط والربط، ترى أن الأحلام لا تعني شيئًا سوى أنها نبضات كهربائية في الدماغ والتي تسحب الأفكار والصور العشوائية من ذاكرتنا .

كما ذهب علماء النفس التطوري إلى أن للحلم غرضًا هو محاكاة نظرية التهديد ، فبالنسبة لهم ينبغي أن ينظر إلى الحلم كآلية دفاع بيولوجية قديمة ، والتي وفرت ميزة تطورية بسبب قدرتها على محاكاة الأحداث المهددة للبقاء مرارًا وتكرارًا ، فهي تعزز الآليات العصبية المعرفية اللازمة لإدراك التهديد وتجنبه.

أما مايكل بريوس وهو طبيب نفسي ومختص بمشكلات النوم فيذهب في مقال له بموقع (سايكولوجي تودي) إلى أنه من الصعب تخيل أن نظرية واحدة بإمكانها الإجابة على مثل هذه الأسئلة ، ويرى أننا نحتاج إلى العديد من النظريات التي تستند إلى البيولوجي والسيكولوجي على حد سواء لتقديم تفسير حول سبب رؤيتنا الأحلام عند النوم، ومن بين هذه النظريات النظرية التي تذهب إلى أن الأحلام قد تكون آلية لمعالجة المعلومات المخزنة في الذاكرة قصيرة الأمد وتحويلها إلى الذاكرة طويلة الأمد.

ومع كل ما سبق فلا أحد من أهل العلم الحديث المختصين يزعم أنه يقطع الشك باليقين في تقديم نظرية قادرة على تفسير أسباب الأحلام

ومحتواها بعكس الغرور الفرويدي.

وهكـذا كلما اقتربت من كل مـا يمس الروح فإنك تنتهي من حيث تبدأ .

***

والخلاصة التي نراها في تفسـير الاحلام في هذا التناول السـريع أن الحالة الشـعورية للحالم المتبصر تحدد له بشـكل واضح ما هو رؤيا من الله وما هو رؤيا من الشـيطان وما هو مجرد أضغاث أحلام . وأن العلاقة بيـن ما يفكر فيه الحالم وما يراه فـي أحلامه هي علاقة ارتباطية وثيقة في هذه الأقسـام جميعًا ، والأحداث الكبرى في حياته ورغباته العميقة المختلفة والأفكار الأساسـية التي يفكر فيها على امتداد عمره، كل هذه الأمور تشـكل محاور أساسـية تظل مؤثرة في أحلامه على الدوام، ولكن تتداخل معها المشـاعر والأفكار التي تشغله والظروف المحيطة المتغيـرة فـي الأوقات القريبة نسـبيًا من تلك الأحـلام، فتكون الأحلام هـي الناتـج الناجم عـن التفاعل الواعي والـلا واعي أو الـذي يكون في درجات سحيقة من الوعي بين كل هذه الأمور جميعًا . والحالم المتبصر هو نفسـه لهذه الأسباب أقدر الأشـخاص على تفسير حلمه خصوصًا في اللحظـات الأولى من الصحو التي يسـتطيع فيهـا القبض على أكبر قدر من أحداث الحلم .

فإذا عمل على الربط بين هذه الأحداث وتلك الأمور الأساسية والقريبة التي تحدثنا عنها ، استطاع تفسير هذه الأحلام .

وتتميـز الرؤيـا ليس بالحالة الشـعورية والانسـجام الداخلـي لها فقط ولكن بإطلالها الخاص على المسـتقبل، بل وبما يحلق بها من إضافة ما

لا علاقة له بكل ما ذكرته من محاور أساسية أو متغيرات قريبة.

أما ما حدث فهو التالي:

كان لي خال غير شقيق ـ رحمة اللّه عليه ـ كانت علاقتنا به محدودة بطبيعة الحال، وربما لم أره بعد أن انتقلت بسكني من البلدة في زياراتي القليلة لها بعد ذلك سوى مرة أو مرّتين على امتداد سبع سنوات من عام السابع والتسعين حتى عام ألفين وأربعة، وإذا بي أحلم به فجأة ـ وربما كانت هي المرة الوحيدة في حياتي التي أحلم فيها به حيث لم يكن الرجل في مجال تفكيري على الإطلاق ـ أنه قد توفي.

بناءً على المعطيات السابقة كانت لدي ثقة قوية للغاية إن هذا سيحدث إذا شاء اللّه قريبًا بالفعل، لدرجة أني قابلت بعض الأقارب وقلت لهم بكل ثقة إذا شاء اللّه فالخال سيموت قريبًا.

ما الذي حدث.

مات الرجل بعد أسبوعين، من الحلم.

مع خالد محمد خالد

علي الرغم من كوني قد جلست معه كثيرًا جدًا ربما أكثر من أى مفكر آخر إلا أن حديثي معه كان محدودًا للغاية ربما لم يتجاوز من جانبي إلقاء السلام وبعض كلمات الشكر.

إنه المفكر الإسلامي الأستاذ خالد محمد خالد أحد أهم المفكرين الأكثر تأثيرًا في الفكر المصري علي وجه الخصوص في القرن العشرين والذي ما زال أحد أهم الكتاب الأكثر مبيعًا في العالم العربي بالرغم من مضى أكثر من عشرين عامًا علي وفاته.

أشعل خالد محمد خالد الحركة الثقافية جدلاً في نهاية النصف الأول من القرن العشرين من خلال كتابه (من هنا نبدأ) الذي ذهب فيه إلي أن الإسلام دين لا دولة، فتم الرد عليه بعدة كتب ومقالات من بينها كتاب الشيخ محمد الغزالي (من هنا نعلم) ومن الطريف أنهما كانا صديقين للغاية في نهاية حياتهما، ولقد قرأت مرة ـ ربما في كتاب فلسفة الثورة ـ أن الرئيس عبد الناصر قرأ كتاب الأستاذ خالد هذا أربع عشرة مرة، ويرجع البعض سبب تغاضي عبد الناصر عن نقد الأستاذ خالد العلني له حول موضوع الميثاق إلي إعجابه هذا بفكره.

وفي أوائل التسعينات أصدر الأستاذ خالد كتابه (الدولة في الإسلام) تراجع فيه عن كتابه الأول فكتب ابنه أسامة عدة مقالات (أصدرها بعد ذلك في كتاب) حاول أن يثبت فيها أن أباه الأستاذ خالد لم يتراجع في كتابه الثاني عما جاء في كتابه الأول فكان هذا أحد الخلافات المستمرة بيني وبين الأستاذ أسامة خالد.

قدمت لي دار ثابت خدمات جليلة منذ اللحظة الأولي ولم أكن أعلم أن مالكها هو الأستاذ خالد محمد خالد إلا بعد مدة من ترددي عليها فقاموا بتوزيع كتبي في أماكن كثيرة وفتحوا لي مجالات جديدة في توزيع الكتاب لم أكن أعرفها (دون أن يعنى هذا أن قدرات دار ثابت في التوزيع لغير الأستاذ خالد محمد خالد من الممكن أن تقارن بقدرات الدار الكبرى للتيار إياه التي جاء ذكرها في مواضع أخرى)، وبعد شهور قليلة من ترددي علي الدار قامت علاقة صداقة بيني وبين الأستاذ أسامة خالد المدير الفعلي للدار والذي كان يكبرني بحوالي عشرين عامًا، وعلي الرغم من كوننا نقف فكريًا علي طرفي نقيض لكن المناقشات كانت ربما تدور لعدة مرات في الأسبوع ومن العجيب أن كتابي (المواجهة) جاء بناء علي عدة محاور اقترحها وطلب منى أن أقدم رؤيتي لها. وأسامة هذا هو أول من فاجأني عندما كنت أشكو له تغير معاملة المفكر الزعيم معى إلي الضد بقوله:

ـ يا بني، لابد أن يفعل ذلك، لأن لديك مشروع فكري، وهو ليس لديه مشروع

من ناحية أخرى كان الأستاذ أسامة شخصية خاصة لها علاقات قصوى وكان له مقترحات علي أعلي درجة من الخطورة في حياتي الخاصة تستطيع قلبها ـ إن أذن الله ـ رأسًا علي عقب، و لن أتعرض لذلك في هذا السياق الذي ما قصدت به إلا سرد العلاقة المحدودة التي كانت بيني وبين الأستاذ خالد محمد خالد، ولكن المهم في كل هذا هو أنني لم اتنازل في فكرى قيد أنملة عما اقتنع به أيًا كانت علاقتي بهذا أو بذاك. وهذا تحديدًا ما جعلني حريصًا دائمًا علي أن تكون بيني وبين الأستاذ خالد محمد خالد مسافات بعيدة علي الرغم من أنى كنت

أجلس علي بعد أشـبار منه لعدة سنوات. حقًا كان يجمعنا اتجاه فكرى واحد ومع ذلك فقد كنت أخالفه في نقاط خطيرة لا يمكن تجاوزها أو التساهل معها ومن ثم فقد أصررت علي تجنب الدخول في أي نقاش معه حرصًـا علي عـدم الاصطدام وتوقيرًا لمكانته وسـنه ومـن ناحية أخرى كـى لا أحمّل نفسـي المزيد من ضغـوط آثار الخلافـات الفكرية التي أعيشها.

ولـم أقرأ كتاب الأسـتاذ خالد (الخلفاء الراشـدين) إلا عندما كنت أقـوم بدراسـة عن هـؤلاء العظام ـ ولم يكتب لهـا أن تكتمل ـ فكان أنـه الكتـاب الوحيد مـن بين كتب عديـدة في القديـم والحديث الذي جعلنـي أشـعر وكأننى أحلق في الفضاء، فأدركـت عندها لماذا كان هذا الكتاب أحد الكتب الفريدة التي تم توزيع ملايين النسـخ منها وما زالت توزع حتى الآن بأعداد كبيرة.

لا أذكـر أننـى قـد اختلفت مع ابنيه أسـامة ومحمد علي حسـابي من توزيع كتبي من خلال الدار في يوم من الأيام ولا أذكر ما الذي قد أدى إلي قدر قليل من التجاذب بيننا حول هذا الموضوع أمام الأستاذ الكبير وذلك في أوائل عام أربعة وتسعين لأفاجأ بهذه المفاجأة المذهلة.

لقد نهض الجبل الصامت من بيننا واقفًا ليقول:

ـ لا تتعبا الأستاذ محمد فقد يكون له شأن تاريخي.

وقفـت مبهوتًـا لا أنبس بكلمـة وإنما تجول في رأسـي الخواطر يمينًا وشمالاً: أهذا الذي يقوله عنى الرجل الذي أهاب الدخول في أقل حديث معه؟!.

إن أبسـط مـا يفهم من كلامـه هذا أنه يتابع كتبـي ويقرأها ومن ثم

يقدرني كل هذا التقدير. فمتى حدث هذا أو لماذا لم يخبرني أحد بذلك رغم ما مضى من سنوات من ترددي علي الدار؟ ولماذا لم يتحدث هو نفسه عن ذلك سوى الآن.

في أول زيارة تالية قلت للشاب الإداري بالدار ضاحكًا أعلمت ما قاله الأستاذ خالد عنى؟ لماذا لم ينقل لي أحد رأيه هذا؟ في ما يبدو أن الأستاذ أسامة قال لكم: لا تقولوا له ذلك حتى لا يطلع فيها.

فرد علي قائلاً:

ـ ما لا تعلمه أن الأستاذ خالد كان يقول لنا: أريد أن تكون في يدى أول نسخة من كتبه؟ وكان يقول لنا: لو صدق ظنى فيه فسيكون له شأن كبير.

توفي الأستاذ خالد رحمة الله عليه عام السادس والتسعين بينما كنت غارقًا في صراعي الخاص ولم أحضر جنازته!!.

مع الدكتور
عبد الوهاب المسيري

اللحظة الأولى لمعرفتي بالمسيري ـ رحمة الله عليه ـ كانت عندما ألقى أمامي الكاتب والمفكر الاقتصادي الكبير عادل حسين بمجموعة من الأوراق المنسوخة بالكمبيوتر وهو يقول:

الراجل ده شغال في نفس اهتماماتك شوف بيقول إيه.

تناولت الأوراق وبمجرد قراءتي لبضعة سطور منها وجدت شيئًا مختلفًا عما كان يكتب في هذا الوقت ليس مختلفًا فقط من حيث العمق عن الكتَّاب وكثيرًا ممن كان يطلق عليهم مفكرين في ذلك الوقت وحتى الآن ولكن مختلفًا أيضًا من حيث الأسلوب والكثافة عن المفكرين الحقيقيين من الإسلاميين والعلمانيين على السواء وبهرني بوجه خاص ـ بعد القراءة المتأنية للمذكرات ـ قافته الواسعة للغاية بالحضارة الغربية ـ وكأنه معجون بها ـ وقدرته الفائقة على نقدها.

كان هذا في عام واحد وتسعين أو اثنين وتسعين تقريبًا . وفي أوائل عام ثلاثة وتسعين تقريبًا كان لدى موعدًا لحضور شيء ما في معهد الفكر الاسلامي بالزمالك (ندوة ـ حلقة نقاشية .. لا أذكر على وجه التحديد)، ومن مفارقات حياتي وما عانيته كثيرًا من اتساع الفجوة بين وضعي الأدبي وقدراتي المادية المحدودة أو المنعدمة لفترات طويلة من حياتي حدث أن استقليت تاكسيًا في طريقي إلى المعهد وكنت أرتدي حينذاك ـ تناسبًا مع المكان الذاهب إليه ومَن مِن الممكن أن أقابلهم هناك . بدلة جديدة كانت من الثمرات المتبقية لعهد الرخاء النسبي في السنة الاخيرة والذي لم يمر عليه سوى شهور قليلة حتى تدهور نتيجته لما

سببته لي الضربات التي تلقيتها في موضوعي الخاص في تلك الفترة من اضطـراب عام في أمـوري العملية (راجع تفاصيل ذلك في فصل: يا من لا أعرفك .. أنت اسمك كذا).

وإذا كنت في مصر وترتدي بدلة جديدة وذاهبًا إلى الزمالك ولا تعرف أين الشارع الذي تذهب إليه على وجه التحديد فأنت فرصة ثمينة لتسعين في المائة من سـائقي التاكسي لإستغلالك بأكبر قدر مستطاع، فبعد أن دار السـائق فـي نفـس الشـوارع عـدة دورات تقريبًا قبـل أن يصل إلى المكان الذي أريده طالب بأجرة تماثل ثلاثة أضعاف الأجرة المفترضة، ويكفيه النجاح في تحقيق ذلك ما سـيتعرض له صاحب البدلة الجديدة من إحراج أمام أصحاب المعالي من قاطني هذا المكان أو رواده الذاهب إليهم، خصوصًا لو كانت لغة الطلب ونبرته تحمل تهديدًا بالسب والبذاءة وقلة الأدب والبهدلة إذا قوبل بالرفض والكثير من السـائقين المصريين قريبيـن جـدًا من عالم الإجرام عن المهنة نفسـها، لم يكن يدري الرجل طبيعـة صاحـب البدلة الجديـدة التي كانت ترفض الاسـتغلال تحت أي ضغـط مـن الضغوط حتى ذلك الوقـت على الأقل. لكـن الأهم من ذلك أنــه لـم يكن يـدري أن الوجيه الذي أمامه لم يكـن يملك هذا القدر من النقود أصلاً أو حتى لو كان يملكه بالكاد فلايملك ما سـيعود به إلى بيته بعد ذلك.

على صوت الرجل وأصررت على الرفض فوجه إليَّ بذاءته ويده وحدث الاشتباك وتدخل الناس وأثناء ذلك وقع بصري على كاتب منافس يحمل شهادة الدكتوراة ويتقمص دور المثقف المتحفظ المتعالي، كان ينظر إلى المشـهد بامتعاض شديد ويرسم على وجهه صورة الخجلان من مدى القدر الذي انحططت إليه.

انتهى الأمر على القدر الذي يحفظ لي نفقة رجوعي ولملمت نفسي وتوجهت إلى المعهد، وكما كنت اتوقع وجدت الدكتور المنافس قد سبقني إلى هناك ولكن لم يشغلني كثيرًا فما أحد يثير اشمئزازي واحتقاري مثل المتكبرين.

توجهت إلى قاعة الاجتماع فوجدت هناك مائدة كبيرة يتحلق حولها عدد من المثقفين بينهم أعلام أعرف بعضهم وكان بينهم الدكتور المسيري (لا اتذكر إن كنت رأيته قبل ذلك أو أن أحدًا نبهني إليه حين دخلت).

اقتربت من المائدة وكان الدكتور المسيري في مواجهتي وذكر أحدهم أني محمد إبراهيم مبروك فبادرني قائلاً:

ـ كتابك الإسلام النفعي عندي.

وكأنه كان يريد تحيتي بأقصى سرعة، قلت في نفسي هذه بداية عظيمة وكانت معي حينذاك نسخة من كتابي الجديد (كن قويًا بالإيمان) فقدمتها له هدية.

بعد مدة قصيرة أقيمت حول الكتاب الأخير ندوة في أحد مراكز الدراسات حضرها عدد من الكتاب والباحثين، ولا أدري كيف تسرب ما دار في الندوة إلى الدكتور المسيري، أم أن الأمر لا يعدو اطلاعه عما نشر عنها في إحدى الجرائد، حتى يبلغ مدير المركز ـ الذي أطلعني على ذلك ـ استياءه مما دار فيها قائلاً له:

ـ إنكم تناولتم الكتاب من المنظور السياسي مع أنه يحمل تصورًا فلسفيًا للوجود.

قلت في نفسي: الرجل يقدرك حقًا.

ومع ذلك ظللت حريصًا على عدم الاقتراب من الرجل لسبب خطير للغاية وهو الخوف من التعرض لشبهة الاعتقاد أنني أحد تلاميذه، ولا أقول هذا انطلاقًا من أي تموضع ذاتي في المسافة الشاسعة بين التواضع والاستكبار، ودون أن يكون له علاقة في المقابل بما قد اتهم به في تقديري لفكر الدكتور المسيري من ميل إلى التهوين أو المبالغة وإنما لسبب بسيط للغاية أن هذه هي الحقيقة تحديدًا: أنني لم أكن تلميذًا مباشرًا لأي مفكر من المفكرين، بل ولم أكن تلميذًا غير مباشر ـ بمعنى تتلمذي على فكره من خلال كتبه ـ لأي مفكر لاقيته بعد ذلك.

وهذا لم يكن عن قصد وتدبير، ولكن هكذا شاءت الأقدار وصنعت الوقائع والظروف. فالتواضع الثقافي لأسرتي ثم قلة الإمكانيات المادية واستغراقي المكاني في حدود البلدة بسبب صراعي خاص والذي تسبب في فتور همتي حدود البلدة للتحرك خارجها لأي سبب ثقافي. والأهم من كل ذلك قناعتي بعد سنوات قليلة من مرحلة تكويني الفكري ـ التي بدأت في الرابعة عشر تقريبًا ـ أنه لا يوجد أحد يعيش بيننا على أرض مصر ـ ولم يكن من المتصور أن لي قدرة على التحرك لأبعد من ذلك ـ بقدرات المفكرين العمالقة الذين تتلمذت على فكرهم بشكل غير مباشر عن طريق كتبهم، كل هذا أدى إلى هذا الوضع من عدم التتلمذ على أحد من المفكرين المعاصرين.

كان أول هؤلاء المفكرين العظام الذين تتلمذت على كتبهم هو المفكر الهندي العلامة وحيد الدين خان وهو المفكر الوحيد ـ أطال الله عمره وأمده بفائض البركات ـ الذي مازال حيًا بين هؤلاء متجاوزًا التسعين عامًا وهو الشخص الوحيد على ظهر الأرض الذي أتمنى أن أقبل يديه.

ثم كان الدكتور محمد البهي ومالك بن نبي ومحمد أقبال وأبي

الأعلى المودودي الذي يظلمونه كثيرًا حين يقتصرون في النظر إليه على الجانب السياسي من فكره وحتى هذا الجانب يتم تأويله تأويلاً خاطئًا ، على الرغم من أن الرجل موسوعي الفكر وإنسانيًا إلى أقصى الحدود ، والمبدع تقي الدين النبهاني الذي ظلم نفسه بالإغلاق على فكره داخل تنظيم وقطع حسر التعامل معه إلا من خلال فكرة الخلافة ، والشيعيان باقر الصدر وعلي شريعتي مع التحفظ على خلافنا الأصولي معهما ، ويغريني ذكر على شريعتي هنا بعد ذكر العلامة وحيد الدين خان الذي أشرنا إليه أولاً أن أتطرق إلى أمر طريف فاجأ عقلي حين اكتشافه . فقد شاء الله أن أقرأ في وقت واحد كتابين معًا عن الحج لهذين المفكرين ـ مع أنه من النادر جدًا أن يفرد أحد المفكرين الإسلاميين كتابًا كاملاً عن الحج في العصر الحديث . والطريف في المسألة أن كتاب علي شريعتي كان الأفضل بالفعل ـ لا أذكر الآن كان الأفضل من أي جانب بالضبط ـ مع أنني كنت أجد أنه من الصعوبة بمكان أن يتفق أن يكتب وحيد الدين خان مع أي مفكر آخر كتابين مختلفين عن موضوع واحد ويتفوق كتاب المفكر الآخر ، ومن الغرب بريترا ندرسل الذي تعرفت عليه من خلال وحيد الدين خان والذي أعجبت بذكائه كثيرًا على الرغم من إلحاده ، وسارتر ويسبرز وكيركجارد وجارودي وهو المفكر الوحيد من كل الذين أذكرهم الذي رأيته رأي العين وقد تهيء لي ذلك عند زيارته للقاهرة وإلقائه إحدى المحاضرات بها ، وطبعًا وليم جيمس الذي أقف منه على طرف النقيض دون أن يضعف ذلك من تقديري لعبقريته وفوكو كمفكر . ولم أعجب بماركس وإنجلز ووجدت منذ وقت مبكر أن فكرهما قائم على المبالغة . ولم أعجب بفرويد على الإطلاق ووجدته

خياليًا وليس لفكره أدنى علاقة بالعلم (وقد ثبت ذلك حديثًا بشكل نهائي) . وأعجبت بيونج إلى حد ما ، وبقى دوستويفسكي لدي هو أعظم علماء النفس في التاريخ وليس مجرد روائي، ولم يجذبني في ذلك الوقت أي من علماء الاجتماع ولا حتى ابن خلدون وربما لخبراتي الاجتماعية دخل في هذا.

ومن القدماء لم أعجب إلا بديمقريطس وأبيقور طبعًا ، فهو الأب الشرعي لوليم جيميس ومن ثم فقد كان موقفي منه نفس الموقف. ومن الشرقيين جوتاما (بوذا) والذي اعتقدت ومازلت اعتقد أن الراجح أنه نبي من السماء حرفت رسالته كما حدث مع أنبياء كثيرين آخرين ولكن تبقى روح النبوة تشع في الكثير من أقواله.

أما بالنسبة للمفكرين المسلمين الأوائل فقد بهرني ابن حزم بعبقرياته المتعددة ويربط بيننا ذلك الاهتمام الخاص بموضوع الحب بين الرجل والمرأة، ومازلت أقف مذهولاً بل ومنكسرًا أمام كتابه الموسوعي (الفصل في الملل والأهواء والنحل) وتظل من أهم التحديات التي تقف أمامي في مسيرتي الفكرية هي كتابة كتابًا مناظرًا له . يرتبط بالواقع المعاصر ـ وكما لم أعجب بأرسطو فلم أعجب بطبعات مفكري التاريخ الإسلامي منه أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد . وبهرني الغزالي وصدمني في أشياء أخرى ونفس الأمر بالنسبة للرازي وأميل لرأي السبكي عن رأي ابن تيمية عن عظمة تفسير الرازي للقرآن، وأعجبت بعبقرية ابن تيمية وجرأته وإنسانية ابن القيم وإبداع الشاطبي، وأعجبت بابن خلدون كمفكر عام قبل أي شيء آخر .

ولأني كنت مطلعًا إلى حد كبير على فكر الذين كان يطلق عليهم لفظ مفكر في هذا العصر فقد كنت مستوعبًا جيدًا أن هناك فارقًا

كبيرًا ليصل هؤلاء إلى فكر أولئك العمالقة الذين تتلمذت على كتبهم إن كان من الممكن أن يصلوا .

أما العامل الحاسم الذي قطع على نفسي فكرة التلمذة هذه تمامًا أنه في سن العشرين من عمري وفي أحد النقاشات المكثفة بيني وبين صديقي خالد الذي تحدثت عنه في أول الكتاب قال لي مرة: أنت عليك الآن أن تكتب.

فكتبت وبدأت النشر في الجرائد حتى نشرت مقالاتي في الصفحات الفكرية التي ينشر فيها أكبر مشاهير الفكر في العالم العربي في ذلك الوقت. وفي الخامسة والعشرين وبدافع الغيظ من انتشار أفكار وليم جيمس البراجماتية في واقعنا الاجتماعي خطر ببالي أن أكتب كتيبًا صغيرًا عن نقد هذه الأفكار وكشف أثارها المدمرة على مجتمعنا. ولكن مع الممارسة العملية للدراسة ، واتباعًا لقول الرسول ﷺ «إذا عمل أحدكم عملاً فعليه أن يتقنه» تم التعمق في الدراسة والتقصي في تفاصيلها حتى أنتجت في نهاية ستة أشهر من التفرغ ــ كان من شبه المعجزة اقتطاعهم من حياتي في تلك المرحلة التي كان صراعي الخاص فيها مازال قائمًا ــ كتابي (الإسلام النفعي) واسم الكتاب الحقيقي وموضوعه هو: الآثار المدمرة للأفكار البراجماتية الأمريكية المدمرة على الشعوب الإسلامية الفقيرة .

ولكننا .. أو تحديدًا لكنني استعضت عن ذلك بالإسلام النفعي لا أقول بسبب طول العنوان الأصلي وإنما عملاً على اجتذاب اكبر قدر من جماهير واقع ثقافي لا يحتذ به كثيرًا العنوان الأول وعلى ذلك تم الاستعاضة عن عنوان (الآثار المدمر ....) بأهم هذه الآثار التي ذهبنا إليها في الكتاب وهي الإسلام النفعي.

(ولـن أتحـدث عـن ردود الفعـل الفكريـة التي حدثـت بالنسـبة لهذا الكتـاب في الداخل والخارج، بل وفي بعض الأوسـاط الأكاديمية .. بل ولـدى بعض الجهات السياسـية الأكثـر أهمية في العالـم) ولكن الذي يهمنـي في هذا السـياق أن الكتاب جاء بمثابة مفاجأة فكرية بالنسـبة لي شـخصيًا إلى درجة الاقتناع بالاسـتبعاد النهائي لأن أكون في احتياج للتلمـذة لـدى أحد مـن الذين كان يطلـق عليهم صفة المفكـر في تلك المرحلة، والمسـألة بعيدًا عن التواضع والغرور يمكن تحقيقها ببساطة بمقارنـة هذا الكتاب بـكل الكتب التي أصدرها هؤلاء في السـنوات الخمس السابقة واللاحقة من عام إصداره أي من عام ١٩٨٩ .

وليسـمح لي القـارئ أن أذكر تعليقًا واحدًا كتـب عن هذا الكتاب نظرًا للمفارقة الغريبة بين ما ذهب إليه وبين ما حدث في الواقع الفعلي .

لقـد كتـب الأسـتاذ أحمـد بهجت مقاليـن متتالييـن في عمـوده اليومي المسـمى (بصنـدوق الدنيـا في الأهـرام (بتاريـخ ٢٢ و٢٣ مـن أكتوبر ٨٩) وكان صندوقه هذا هو الأكثر قراءة في مصر في ذلك الوقت، وقد ذهب فيهمـا إلـى أن كاتـب الكتاب يقدم تحليـلاً جيدًا ولكنه يبالـغ ويهول في الأمر . قاصدًا بذلك توصيفي للآثار المدمرة لـلأفكار البراجماتية الغازية.

وربمـا لـو امتـد العمر بالرجـل قليلاً ليصم بالعشـرة أن مـا قدمته في الكتـاب من هذا الوصف ليس سـوى تبسـيطًا مخلاً إلـى حد كبير لما حدث بالفعل. إنني لكي أكون موضوعيًا في سـردي لتطوري الفكري وارتبـاط بذلـك بتحديد شـكل وفحوى العلاقة بيني وبيـن من حولي في أوسـاط المثقفين لابد أن اعترف بأنني أدركت أن لي رؤية فكرية شبه مكتملـة لا تقـل عـن أي رؤيـة فكرية لـدى أي ممن كان يطلـق عليهم مفكرين إسلاميين في هذا الوقت ومن ثم فلا يجب التنازل عن ذلك من

الناحيـة الموضوعية البحتة ، أما الأصعب كثيـرًا من ذلك فهو إدراكي بأن تعاملي من جانب أي من المثقفين بالطريقة المفترضة أن يتم التعامل بها بشـكل تقليدي ـ يناسـب الواقع الفكري المتخلف الذي نعيشه مع مـن هم في سـني كمبتدئين يحتاجـون لتعلم الكثير على يد الأسـاتذة الأفذاذ لهو بمثابة ظلم مهين لي .

وعلـى الرغـم مـن أن قامـة فكريـة كالأسـتاذ عادل حسـين سـارع واعتـرف بذلك بنـاء على ما رواه عدد من تلاميذه الذين كانوا يحضرون ندواته الفكرية في ذلك الوقت بأنه كان يقول: عندما أترك الندوة فإن هذا الولد هو الذي يجلس مكاني.

بـل وأتذكر أنه أجلسـني مكانـه بالفعل مـرة دون أن أدري أنه كان يقول عني ذلك .

ولكـن ما هـو القدر الذي يمكن أن يسـاهم به هـذا الإقرار في حل المشكلة؟.

فهل سيسـلم تلاميذه بما يقول؟ ثم ماذا بعيدًا عن وسـط عادل حسـين وتلاميذه؟ .

أذكـر أنـه قبل ذلك الوقت بقليل عندما كان المنشـور من أفكاري مـازال قاصرًا على المقالات ، أن صرخ في صديقي القديم والأخ الأكبر الشاعر والناقد محمد كشيك ببراءته المعهودة:

مـش معقولة انت صاحب هذه الأفكار. لابد أنه يوجد هناك شـخص ينظّـر لـك وأنت الـذي تكتب ، هذا النضـج في هذا السـن المبكر من الممكن أن يحدث في الشعر مثلاً ، أما في الفكر فلا .

وحزنـت يومهـا للغاية وكنت أدرك جيدًا أن ثالثنا في علاقتنا الثقافية

كأبناء بلدة واحدة الشاعر والناقد والأخ الأكبر عمر الصاوي لو كان سمع هذا الكلام حينها لاستنكره تمامًا ولكن كانت علاقتنا منقطعة في ذلك الحين، وعلى العموم لم تمر بضع سنوات حتى أقر لي الأستاذ كشيك في الشأن الفكري بأكثر مما كنت أتوقع.

كل ما سبق يلقى بضوء كاشف على واقع المعاناة الذي مررت بها في التعامل مع أبناء جيلي بل وجيل أو جيلين قبلي من المثقفين وأشباه المثقفين في مسيرتي الفكرية . إن أقصى ما كان يطمح إليه أمثال هؤلاء أن يُعْتَرف به كصحفي أو أديب مبتدئ فما بالك بهذا الذي يريد أن يطلع علينا بأنه مفكر وصاحب رؤية فكرية خصوصًا أن هناك تيارًا بعينه لن يسمح بشيء من ذلك (لأنه لن يسمح أبدًا بإمكانية وجود رؤية إسلامية غير رؤيته التي هي غير موجودة في الواقع فعلاً) ويملك من السطوة والجبروت (وأهم حاجة من المال) أن يدفع بأغلب المثقفين الذين من الممكن أن تجمع بينهم علاقة ما (المتعمق الثقافة منهم والسفيه) بإقامة حرب ضدك من التحقير والسخرية والاستهجان، فإذا أضفت هذه الحرب الحرب الكبرى القائمة في صراعي الخاص أدركت عمق المعاناة وثقلها على النفس والتي استمرت بالطبع ولولا أن يسبب اللّه دعمًا من هذا المفكر أو ذاك بجملة أو جملتين في الثناء على فكري أمام هؤلاء المثقفين لربما قضى على عنترة وأكله عروة وكان من بين ذلك أنه بعد إصداري كتاب المواجهة في بداية عام ١٩٩٤ سلم إلى العاملين في جريدة الشعب رسالة من الأستاذ أنور الجندي رحمة اللّه عليه جاء فيها:

(إن كتابك المواجهة يمثل كتابًا رائدًا في هذه المرحلة)

طبعًا أطلعت من حولي عليها فربما يثبط ذلك بعض همة الناقمين علي

منهم أو ممن لهم علاقة بهم.

كانت شهرة المسيري في ذلك الوقت تتسع بسرعة الصاروخ ويمضي بخطواته القوية ليتحول من مفكر عميق إلى مرجعية على مستوى العالم العربي كله (يدفعني البعد الواقعي لدى أن أنوه هنا إلى إن شهرة أي كاتب ـ بله المفكر الذي هو أشد الكتّاب تعقيدًا ـ في مصر بالذات هو أمر يتعلق بأوساط المثقفين وأنصاف المثقفين على الأكثر، فنجيب محفوظ نفسه قبل نوبل لم يكن يعرفه أحد من العامة على الرغم من كثرة الأفلام المأخوذة عن قصصه، بل وفي بحث استكشافي حدث منذ سنوات قليلة سئل العديد من طلبة الجامعات عن طه حسين ولم يكد يعرفه أحد) وكان يدور الحديث في ذلك الوقت عن أن المسيري يصنع مدرسة فكرية جديدة، ويجتذب الآن العديد من التلاميذ حوله، وهذا ما جعلني أكثر حرصًا في عدم الارتباط به أية علاقة دفعًا لشبهة الاعتقاد بأنني من تلاميذه كما أشرت سابقًا.

إلا أن المسيري ـ والحق يقال ـ قد اجتذب حوله مجموعة من أنجب العقول المجتهدة فكريًا في ذلك الوقت.

ولم تقف هذه المجموعة عند حد التلمذة فقط وإنما كان يعتمد الرجل على عدد من هؤلاء النجباء في الكثير من الجوانب الفنية في موسوعتيه (اليهود واليهودية والصهيونية) و(العلمانية) هذا غير تنشيط الحالة الفكرية وإذاعتها في الندوات والمؤتمرات والمراكز العلمية والمنتديات السياسية والثقافية إلى الدرجة التي يمكن القول معها أنه مع تقديرنا الكبير للمسيري ولكنه يجب النظر إلى الحالة الفكرية المسيرية على أنها للمسيري وتلاميذه معًا وهي حالة لن تتوافر في مصر بالذات منذ عدة عقود.

على أن هذا الذي حدث كانت له فوائد عظيمة بالنسبة لي، فقد كانت لي علاقة شخصية بعدد من هؤلاء النجباء ازدادت قوة بعد تتلمذهم له وأضيفت إليها علاقات جديدة بتلاميذ له آخرين، وكان هؤلاء وهؤلاء من أكثر المثقفين تقديرًا لي ولفكري، دعك من هذا الاستثناء الخاص الذي سأشير إليه فيما بعد بإذن الله والذي ينتمي للتيار إياه.

وفي ظل الهجوم التسفيهي لي، والأفاعي التي يطلقها التيار إياه نحوي كان هؤلاء التلاميذ من أكثر المدافعين عني وعن فكري.

ولان عددًا من تلاميذ المسيري هؤلاء كانوا من الفقراء فقد كان يلذ لبعضهم أن يعيد بعض عباراته بلكنته الارستقراطية دون سخرية أو استهزاء (ردد المسيري مرة بلكنته هذه في أزمة كبرى حدثت لي في احد المؤتمرات بسبب دفاعه عني مهددًا بترك المؤتمر: شوفوا بقى أنا راجل برجوازي وأعيش حياة برجوازية ولا أسمح بهذه المضايقات . فكانت مثلاً لتقليد المثقفين فيما بعد وإن كنت أرى أن المسيري بطبيعته ولكنته هذه كان أقرب إلى الارستقراطيين وليس البرجوازيين).

وحدث مرة أن ردد أحد تلاميذه مقلدًا للكنته إياها هذه العبارة: التي سمعها منه في دروسه معهم.

: همه بيهاجموا محمد مبروك ليه، ده عشان هوه عنده مشروع، وهمه معندهمش مشروع.

كانت هذه هي المرة الثانية التي أسمع فيها هذه العبارة عني بعد ما قالها لي أسامة خالد محمد خالد ـ كما سأشير فيما بعد ـ وأن تأتي الجملة من المسيري فهذا لاشك بالنسبة لي أمر جلل.

وما أراه أن الرجلين لم يكنا يقصدان بقولهما ذلك أنني أملك مشروعًا

فكريًا كاملًا وجاهزًا وإنما يقصدان أنني أمتلك رؤية ومنهج وغاية لصنع هذا المشروع، ولقد كان عادل حسين أكثر دقة منهما حين قال في محاضرته عن كتابي (موقف الإسلام من الحب) في عام ست وتسعين (ولم أكن قد أصدرت في ذلك الوقت سوى ستة كتب): إنه من الممكن إذا عملنا على جمع الأفكار التي جاءت في كتب محمد إبراهيم مبروك أن ننشأ إنشاءً فكريًا جديدًا:

وحتى هذه اللحظة ـ وقد مر على ذلك أكثر من عشرين عامًا ـ وبعد بلوغ كتبي حوالي الثلاثين كتابًا لا استطيع أن أقول إنني قد صنعت أو أملك هذا المشروع الفكري، غاية ما في الأمر أنه يمكن تجميع الأسس الفكرية لهذا المشروع من تلك الكتب.

وأرجو القارئ أن يركز جيدًا في السطور القادمة لخطورة ما نريد إفهامه للناس خصوصًا أن المجال لا يتيح لي الكتابة عن هذا الموضوع هنا سوى بلغة الإيجاز والإشارة.

إننا قد نصف مفكرًا ما بالعمق والعبقرية والإبداع ولكن هذا لا يعني أنه يملك مشروعًا فكريًا، والأهمية البالغة والخطيرة لمصطلح المشروع الفكري في عالمنا العربي والإسلامي بالتحديد تنبع من كوننا أكثر الحالات استعصاءًا لدى المفكرين عامة والحالة الوحيدة المستعصية عند كاتب هذه السطور ـ في حل أزمة العلاقة بين المقدس (العقيدة الدينية ومتعلقاتها) وبين الواقع المادي العلماني الذي صنعته الحضارة الغربية وتصر (لاحظ تصر هذه) على فرضه.

في هذا النطاق الشديد التعقيد لابد من مشروع لحل العلاقة يستطيع أن يفهم الناس إمكانية تطبيقاته في مجالات الحياة المختلفة خصوصًا

إذا كان هذا المشروع ينطلق من رؤية إسلامية حقيقية حتى لا يقع الناس فريسة تجار الشعارات الإسلامية ويزج بهم يمينًا ويسارًا بل ويدفع بهم في مجاهل من المداهنة والنفاق أو في الصراعات وسفك الدماء.

وعلى هذه الأسس فإنه لم يطرح ما يمكن تسميته مشروعًا فكريًا إسلاميًا من أولئك المفكرين الإسلاميين العظام الذين أشرت إليهم سوى ثلاثة هم: أبو الأعلى المودودي وتقي الدين النبهاني وباقر الصدر الشيعي.

لكن هذه المشاريع الثلاثة يعيبها التالي:

إنها كانت بمثابة التبلور الأول لحل المعضلة (العلاقة بين المقدس والواقع المادي العلماني) وكما هي سنن الله في الأرض فإن التبلور الأول لأي عمل فكري يأتي شائكًا وغير مكتمل وبه الكثير من الفجوات وبحسب تقديري فمشروع المودودي يحتاج إلى الكثير من التفاصيل (خصوصًا في المجال الاقتصادي) أما النبهاني فعلى الرغم من عبقريته فإن مشروعه يتسم بالانغلاق وكأنه لا يسمح إلا أن تقبله كله أو تتركه كله، أما باقر الصدر فشيعيته تسبق تقديرنا لعبقريته أو خلافنا الفكري معه، وقد قدم الرجل في المجال الاقتصادي بالذات مشروعًا تفصيليًا كبيرًا ولكنه تأثر تأثرًا مؤسفًا بالرؤية الماركسية التي كانت تسود العالم الثوري في ذلك الحين.

من ناحية أخرى فقد مضى على هذه المشاريع أكثر من نصف قرن حدث بها منالمتغيرات ما يستوجب إعادة كتابتها من جديد أو إبداع مشروع جديد تمامًا يمكن استيعابه للمعطيات الجديدة.

***

كان أول احتكاك مباشرًا بيني وبين الدكتور المسيري من خلال

المحاضـرة التي دعاني إلى إلقائها من خلال صالونه الثقافي الذي كان يعقـده فـي بيته فـي لقاء دوري نصف شـهري، وقد أشـرت إليها في هذا الكتاب في فصل (أنت الذي لا أعرفك!...) ووصفت حالة الإجهاد العقلي والجسـماني التي كنـت عليها وأنا في طريقي مـن معرض الكتاب إلى فيلته بأرض الجولف، وما حدث أثناء ذلك.

قبل أن ألقى المحاضرة قدمني المسيري للحاضرين الذين هم أغلبهم من تلاميذه وأصدقائي كالتالي:

إن محمـد إبراهيم مبـروك على الرغم من كونه مازال شـابًا ولكنه مثلـه مثلنـا، بل هو يمتاز بأنه ينتقل من الفلسـفة للشـريعة ومن الشـريعة للفلسفة بطريقة لا أعرف كيف يفعلها.

جلـس الحاضـرون الذيـن هم مـن خيـرة المثقفيـن في مصر يسـنون أسنانهم لالتهامي عن تنافس ـ فيما بينهم البعض أكثر مما بينهم وبيني ـ لا عـن حقـد فقد كان يشـيع بيننا عبيـر لطيف من التقديـر والمودة. كان الانشـغال الثقافي لأغلب هؤلاء التلاميذ هو مسألة ما بعد الحداثة وفلاسفتها وبما أن موضوع المحاضرة هو العلاقة بين الوحي والعقل منذ ظهور الإسلام وحتى الآن فلم أكد أصل لملامسة موضوع ما بعد الحداثة ولو لمسًـا خفيفًا ثم لم يعد هناك مجال للتحاور فيما يشـغلهم من قضايا ! وعلى ذلك لم تكد تنتهي المحاضرة حتى انقضوا علي نقدًا وإنكارًا .

ـ أهكذا كل ما في الموضوع؟!. أين الحديث عن كذا وعن كذا.

ـ كيف استطيع في خلال ساعة أن أناقش كل هذه القضايا؟!

لكـن المسـيري تدخـل وخلصني مـن أيديهم، وعادت الأمـور إلى ما كانت عليه.

كانت أعظم وقفات المسيري معي تلك الوقفة التي حدثت في مؤتمر العولمـة والذي اقتضى واقع الأحداث شـرح تفاصيلها في موضع آخر من هذا الكتاب (حكاية مع الزعيم).

ورغم وقفة المسيري الكبيرة للغاية معي في تلك الواقعة التي عايشها بنفسه والتي كان يتفهم تمامًا أبعادها وتفاصيلها إلا أن الأمر لا يعني أني قد خرجت سـالمًا تمامًا بالنسبة إليه من رذاذ أحداث هذه الواقعة ووقائع أخرى تم سردها له.

فالانطباع الذي خرج به من هذه الأحداث ـ وهو ما يمثل أقصى ما استطاع أن يحققه الزعيم في موقفه تجاهي أمام المسيري ـ هو أنه قد يكون معي فعـلاً في هذه الأحداث ولكن طبعي التصادمي هو الذي أعطاها كل هذه الحدة وفاقم من تطوراتها. وهي الفكرة التي تلقفها من الزعيم الكثير من المناوئين لي وحاولوا إشاعتها حولي لتعويقي عن التقدم.

وفي الفصل التالي أذكر كيف انعكست آثار تلك الفكرة على موقف المسيري مني في خلافي مع أحد الأشخاص في تلك الحكاية العجيبة.

المسيري

وقصة أعجب من العجب

كانت هي المرة الوحيدة التي زجرني فيها المسيري بشيء من المهانة.

حقًا كان الشخص الذي تفوهت بصدده يثير حنق أمة واحتقارها ويثير لغزًا حول مدى معقولية إمكانية وجود كل هذا القدر من الحقد والغل والانحطاط الاخلاقي في أشخاص ينتمون إلى تيار يقول: إنه يدعو إلى اللّه وما كان ينبغي مع ذلك أن ينزلق شخص بخبراتي الاجتماعية إلى خطأ مهاجمته في تلك اللحظة أمام المسيري الذي لم يكن يعلم شيئًا عن حقارة الأحداث التي سأرويها وخصوصًا أن خبرات برجوازي مثله (كما كان يقول عن نفسه) بما يحدث في طبقات المسوخ الفقيرة تكاد تكون لا شيء وقد استخدمت هنا لفظ (خبرته) لأن المعرفة شيء والخبرة بما يحدث في هذه الطبقات شيء آخر تمامًا.

ولكن يبدو أن اضطراب الظروف التي كنت أمر بها حين ذاك ومكر هذا الشخص الذي أوحى إليه فعل المزيد من الوقاحة تجاهي لاستدراجي إلى هذا الخطأ هما اللذان أفلتا لساني والنتيجة تكاد تكون محسومة لديه . فهو أحد التلاميذ الذين يقدمون خدمات جليلة للمسيري في معاونته في إخراج موسوعته المزمع صدورها عن الصهيونية وقد يكون مدفوعًا في ذلك من جانب تياره نفسه، ولن يقبل المسيري إهانة هذا التلميذ الذي يبدو أمامه نبيلاً سمحًا ودودًا بكل هذه البساطة خصوصًا من شخص مثلي اشتعلت حوله عداوات المثقفين في تلك الفترة، ورغم وقوف المسيري معي في الكثير من المشاكل التي أحدثتها هذه العداوات خصوصًا أنه كان على علم كبير بمن يقف وراءها، ومع ذلك

فمن حق الرجل أن يعتقد أنه ليس من المعقول أن أكون في كل ذلك على حق والآخرون على خطأ.

لا أدري على وجه التحديد ما هي هذه الوقاحة التي فعلها هذا الشخص ونحن واقفون بجانب المسيري في فيلته ولا هو هجومي عليه ولكن أذكر أنه من بين الحوار الذي دار أنني قلت له:

ـ مش انت اللي قلت عني لدكتور كلية الاقتصاد إني نصبت على صاحبك .

فرد علي مباشرة:

ـ أنا عارف مين اللي قالك.

أي أنه أقر بالموضوع ونحن لا نتخيل ولا نخترع.

ما أذكره أيضًا أن المسيري عندما انتبه إلينا قلت له:

ـ أنت عارف تلميذك ده عمل إيه؟

ـ لا أعرف . أنت اللي بتاع مشاكل يا محمد.

والقصة أن أحد المثقفين سألني مرة عام أربع وتسعين:

ـ تعرف شخص اسمه عمرو عبد العظيم.

ـ لأ وليه.

ـ لا أبدا أصله بيقول إنه يعرفك.

ـ ياسيدي الطبيعي إن اللي يعرفوني أكثر من اللي أعرفهم.

وبعد مدة ليست بالبعيدة سألني وهو يحمل في قلبه غيظًا شديدًا يود لو ينفث عنه:

ـ انت واثق إنك ما تعرفش واحد اسمه عمرو عبد العظيم.

ـ يابني معرفهوش . هي إيه الحكاية بالضبط.

ـ أنت عارف إني بحضر دبلومة تأهيلي للماجستير والدكتوراه عندنا في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية الأساتذة قرر علينا ضمن منهجه فصل من كتابك الجديد ولكن عمرو هذا اعترض على ذلك وقال للدكتور: يطلع إيه ده اللي حضرتك بتقرر علينا أحد فصول كتابه!. ولكن الدكتور أصر على موقفه وكرر نفس الكلام في محاضرة تالية فاعترض عليه عمرو مرة ثانية وقال له: يا دكتور حضرتك ما تعرفش مين هو ده. ده شخص نصاب ضحك على واحد صحبي صاحب دار نشر وخد منه مبلغ كبير ومسددهوش.

ـ يااااه.. إيه كل الغل والحقد ده اللي يخلي شخص معرفهوش زي ده يشوهني كل هذا التشويه في مكان علمي زي ده؟!!! .... مين الشخص ده؟

ـ ما أنا قلتلك على إسمه .

ـ لأ مين هو، يعني منين؟ وإيه اتجاهاته؟

ـ لا أرجوك أنا مقلتلكش حاجة . وما تخلنيش أندم على إني قلتلك . أنا بس قلتلك من غيظي وانت عارف مكانتك عندي.

ـ بس انت نفسك بتقول أهه قد إيه الموضوع يغيظ.

فقال لي بالكثير من الخوف على نفسه والتهديد لي:

ـ أرجوك ما تتسببليش في الضرر .. أصل مش هو ده جزائي إني قلتلك .

شعرت بالفعل أنه يتعرض لضرر كبير إذا عرف أنه هو الذي أخبرني

بهذا ، وتذكرت في نفس الوقت أن هذا الجيل من المثقفين ومن خريجي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية تحديدًا لي فيه الكثير من الأصدقاء والمريدين فقلت في نفسي: أحاول أن أعرف الحكاية من مصدر أو مصادر أخرى.

وبعد التحري والبحث علمت ما كان متوقعًا .. طبعا ينتمي إلى نفس التيار إياه (والعجب العجاب أني علمت بعد ذلك بأكثر من عشر سنين أن صديقي الذي اخبرني هذه الحكاية كان ينتمي إلى نفس التيار أيضًا ويبدو أنه حجب عني التفكير في الشك في ذلك بإخباره لي أنه ينتمي إلى تيار آخر) . وعلمت أيضًا أن عمرو هذا يرتبط ارتباطًا شديدًا بصديق ينتمي لنفس التيار اسمه فتحي ويعمل بدار نشر كبرى تابعة له ، ويبدو أنه هو الذي أوحى له باتهامي بهذه الشناعة بعد أن فشل حقده في إثناء الدكتور عن تقرير الجزء المأخوذ من كتابي في منهجه .

وكانت لي مع فتحي هذا قصة كريهة. فقبل ذلك الوقت بثلاث أو أربع سنوات كانت هذه الدار التي يعمل بها فتحي تقوم بنشر أو توزيع بعض كتبي طبعًا استمر ذلك لسنوات قليلة ومنعت كتبي بعدها. وهذه الدار ذاتها عملت فيها بنفسي حين كنت طالبًا قبل ذلك بحوالي عشر سنوات . ورغم سحنة فتحي هذا التي تعبر بكل وضوح عن شخصية حقوده ومتغطرسة ومتخمة بالعقد والشروخ، لا أعرف كيف فلت مني لساني (ربما بسبب ذلك الشر الطافح من وجهه) وقلت له عندما رأيته جالسًا على أحد الكراسي الإدارية للدار:

ـ من عشر سنين كنت جالسًا على كرسيك ده .

طبعًا الجملة فيها ما فيها بالنسبة لشخصية كهذه وسريعًا ما اشتعل

الغل في وجهه، وقد كانوا يقدمونه على أنه عالم من العلماء، صحيح أنه أحد خريجي الأزهر مثله مثل ملايين غيره ولكن يكفي هذا لكي يقدم على أنه عالم من العلماء إذا أرادوا هم ذلك فالكتكوت لديهم أعظم من أي ديك لدى الآخرين.

ولم أكن أدري أن هذا الشخص هو المسئول عن قسم التوزيع في الدار أي أنه يمسك بحنفية بيع الكتب. فإذا أراد تسهيل بيع أحد الكتب زاد في توزيع النسخ على دور النشر والمكتبات والتصدير في الخارج، وإذا أراد العكس فبالعكس وحججه في ذلك لا تنتهي أمام المسئولين عن الدار الذين هم غير حريصين أصلاً على نشر توزيع كتبي وإنما كانوا يفعلون ذلك دفعًا للحرج وانتظارًا لما سينتهي المطاف بي من توجه.

والنتيجة أنني ذقت الأمرين من تضييق هذا الشخص على بيع كتبي ولم يكفه ذلك تنفيثًا عما في قلبه من غل وحقد، ولكن ما هي حكاية اتهامي بالنصب هذه أي لماذا أوحى إليهما حقدهما تلفيق هذه القصة للتشنيع بها علي في هذا المرفق العلمي الهام؟.

لم أصل إلى نتيجة محددة، وسريعًا ما ابتلع صراعي الخاص اهتمامي بهذا الموضوع كلية ولم أكن أدري أن هذا الاتهام لن يظل مجرد مادة للتشنيع وإنما هو كان مجرد تعبير عن خطة ستقوم بتفعيلها واقعيًا القوة الموجهة للتيار بنفسها.

***

بعد شهور قليلة من انتخابات الخامس والتسعين ـ وكنت قد وقفت فيها موقفًا مضادًا لهذا التيار ـ هاجمت قوة من الشرطة شقة والدتي بحثًا عني، ولم تمر أيام قلائل حتى هاجمتها مرة أخرى وهذا شيء لم

يحدث بالنسبة لأسرتنا على طول تاريخها.

أسقطت بين يدي، ما هذا الذي يحدث ولماذا تبحث عني الشرطة بهذا الإصرار؟

ذهبت إلى الأستاذ فهمي المحامي أحد أصدقائي المقربين منذ الطفولة والذي كان ينتمي أيضًا إلى التيار وعضو بمجلس النقابة الفرعي وكان لديه توكيل مني في القضايا وسألته أن يذهب إلى القسم ليعرف ما هو سبب بحث الشرطة عني، أبلغني فهمي بعدها بأن هناك من قدم ضدي شيكا بحوالي ثلاثة آلاف جنيه وأن أحد المحامين العاملين لديه والذي هو ينتمي لنفس التيار أيضًا سيتابع الموضوع ويوفيني بالمعلومات.

اندهشت غاية الاندهاش فأنا لم أكتب لأحد شيكًا بهذا المبلغ أو أي مبلغ آخر وظللت أتردد على هذا المحامي لأعلم التفاصيل التي يفترض أنه ذهب إلى القسم ليأتيني بها خصوصًا اسم هذا الشخص الذي يحمل هذا الشيك ويقال أنه يذهب كل يوم إلى القسم ويقول: عايز فلوسي من هذا النصاب الذي نصب علي .

ظل ذلك المحامي يراوغني لعدة أيام وعندما ألححت عليه وأنا أشرح له مدى ما أعانيه من قلق بسبب هذا الموضوع الذي لا أعرف عنه شيئًا وجدته يصرخ في شامتًا :

ـ أمال بس كنت عملنا فيها السبع رجالة في الانتخابات ودلوقتي بتترعش.

زاد اندهاشي وقلت في نفسي: ما الذي يقوله هذا الولد؟ وما علاقة هذا بذاك؟!

بالكاد علمت منه اسم الشخص الذي يحمل الشيك فوجدت أنني لا

أعرف أحدًا بهذا الاسم، وإذا لم يكن هذا الشخص من البلد ، فكيف عرف عني أنني أقيم الآن في شقة والدتي وهذا أمر استثنائي جدًا بالنسبة لي ولم يحدث إلا من شهور قليلة . وفجأة.....

فجأة تذكرت هذا الاسم واتصلت الحلقات كلها أمامي فأدركت كيف التفت السلسلة حول عنقي.

إن اسم هذا الشخص هو اسم محامي دار النشر الكبرى التي أذكرها هنا ، وكان إن حدث في حوالي عام ثلاث وتسعين أن الدار قد كهنت في المخزن ألفين نسخة من كتاب كانت قد أصدرته لي في السابق وباعت منه حوالي ثلاثة آلاف نسخة بحجة أن الألفين الباقيين لم يعد يشتريها أحد. وكانت الحقيقة التي وراء هذا أن الدار تأكدت متأخرًا أن هذا الكتاب يقصد التيار الذي تنتمي إليه بما يحتويه من نقد موارب خصوصًا أنهم كانوا يشكون في ذلك منذ اللحظات الأولى حيث حكى لي البعض كيف أن هذا الكتاب كان يوضع على طاولات المعارض في الجامعات في نفس الوقت الذي يشير إليه فيه بعض الأخوة قائلين:

ـ خدوا بالكم الكتاب ده عليه ملاحظات.

وعندما وجدت الأمر هكذا توجهت إلى المسئول الثاني في الدار ـ وكان يكبرني قليلاً ويفترض أن بيني وبينه قدر من الصداقة ـ وطلبت منه أن يعطوني الكتاب أسوقه أنا لهم بدلاً من تكهينه على أن أرد لهم قيمة ما يباع كل فترة بعد خصم نسبتي منه ، فوافق دون مناقشة ولكنه طلب مني طلبًا عجيبًا والأعجب منه بآلاف المرات موافقتي السريعة عليه.

قال لي:

ـ أنا عايز تمضيلي بس على شيك بقيمة الكتب.

ـ شيك إيه يا عم الحاج هو فيه حد بيمضي لحد على شيك عشان كتب حيبعها له.

ـ يا عم محمد هو انت حتسيب الشيك مع مين؟

لا أدري كيف أن هذه الجملة ألجمتني وجعلتني أمضي الشيك فورًا وكأنني تحت تأثير تنويم مغناطيسي كما يقولون.

وكان هذا جنونًا كاملاً.

فالقواعد المتبعة في دور النشر أو بين الناشرين والمؤلفين عندما يوزع طرف كتبًا للطرف الآخر أن يقدم له بيان أسعار أو على أقصى تقدير فاتورة بتلك الكتب .

أما أن يقدم شيكًا بقيمة الكتب التي سيعمل الطرف الآخر على توزيعها ولا يعلم إن كانت ستباع أو لا تباع أو متى يتم ذلك فهذا ربما لم يطلبه أحد أو ربما لم يحدث أبدًا في تاريخ العلاقات بين الناشرين والمؤلفين.

ومهما كانت الثقة بين الأطراف فإن هذا لا يحدث لأن المسألة هنا ليست مسألة ثقة فقط، بل عدم التناسب على الإطلاق بين ما يقدمه طرفا العلاقة من مبادلات، وهو الأمر الذي ينطوي على غبن كبير، وطبعًا كنت أعلم كل ذلك تماما ، وكان هناك قدر من التوتر في العلاقة كاف للتشكك في هذه الثقة مهما كانت صعوبة تصور إقدام هذا التيار على غدر كهذا.

وكنت قد سددت جزءً من قيمة النسخ المبيعة ثم أحملت شأن الكتب بالكامل بسبب موضوع الانتخابات، ولأنني وكما كنت على

صلة مباشرة ـ وإن تكن متقطعة ـ بالأخ المسئول الثاني بالدار فما كنت أتصور أن هذا من الممكن أن يحدث دون أن ينبهني.

وبالفعل ذهبت إليه في الدار وصرخت فيه .

ـ إيه ده اللي انتم عملتوه؟ هي دية الثقة اللي كنت بتتكلم عنها؟ شيك إيه وفلوس إيه اللي ختها منكم؟ أنا قلتلكم حاخد الكتب أوزعها لكم وأديكو فلوسها بدل ما أنتم رمينها في المخزن، ولو تحب أجيبهلكم أجيبهلكم.

ـ رد علي بهدوء واستعطاف.

ـ صدقني إحنا منعرفش حاجة عن الموضوع دا هو المحامي اتلقى الشيك عنده راح مظهره لنفسه وعمل القضية.

ـ يابني حرام عليكم أنتم عايزين تلغوا عقولنا .. محامي إيه اللي بيتصرف من غير ما تعرفوا، وإيه اللي وداله الشيك ده في إيديه أصلاً؟ ومنين عرف إني قاعد عند أمي الأيام دي؟ وليه قعد فضيلي يجي من آخر الدنيا عشان يفضحني في القسم اللي عندنا يوميًا.. والا أقولك إيه ولا إيه أقولك إن واحد صاحب سي فتحي بتاعكو قال إن الموضوع ده حيصل من سنتين؟

استمر في هدوئه قائلاً:

ـ سيبك دلوقتي من كل الكلام ده المهم إن احنا نصلح الغلط، أنا حخلي المحامي يقابلك ويعمل معاك محضر صلح ويمضي على إنك سددت المبلغ .

ـ ياسلام كده الموضوع خلص والبهدلة وسمعتي اللي شوهتوها مش مهم.

ـ يا عم انسى الكلام ده هو حد واخد باله من حاجة .

ـ لا ولا حاجة انتم بس كنتم عايزين تأدبوني عشان موضوع الانتخابات، على العموم الرسالة وصلت وأنا حافضل من منظوركم قليل الأدب.

وبالفعل تم ماقاله وتم تحديد ميعاد بيني وبين المحامي إياه الذي قابلني مرحبًا ومبتسمًا وأنهى بنفسه كل شيء في الجهة القانونية المنوطة ولم أكد أفعل شيئًا سوى الإمضاء، كانت مفاجأة أخرى إنه شخص أعرفه جيدًا، ويعرفني جيدًا وقد قابلته كثيرًا وتناقش معي في بعض الأمور وإن كنت وقتها لم أكن أدري الصلة بين اسمه وشخصه . وأضاف هذا إلى استحالة كون أن يفعل هذا المحامي ما حدث من نفسه استحالة جديدة.

وبعد أزمة السابع والتسعين والتي خسرت فيها كل ما أملك تنازلوا عن قيمة الكتب المتبقية بالكامل والتي كنت قد فقدتها من بين ما فقدت . وكانت هذه هي مساندتهم الوحيدة لي في حياتي .

هل انتهى العجب في الحكاية؟

لا، بل مازلت لم أذكر أشد ما فيه فليستعد القارئ لسماع التالي:

بعد أزمة السابع والتسعين غدوت متفرغًا للعلاقات الثقافية بشكل كبير . فكنت أكاد أعيش في وسط البلد بين المثقفين من شتى الاتجاهات وأغلب الظن بحسب ما أذكر أن هذا الخبر قد نفذ إلى من خلال التطرق في الحديث مع المنشقين عن هذا التيار إلى مناحي مختلفة في العلاقة بينهم وبينه.

والخبر هو إن فتحي هذا مسئول التوزيع بالدار والذي هو في نفس

الوقت كادر كبير من كوادر هذا التيار في المحافظات افتضح أمره أنه .. لامؤاخذة .. شاذ جنسيًا !!! .

بلغت بي الدهشة مبلغًا كبيرًا وقلت لهم:

ـ يا جماعة حرام عليكم . ما يمكن إشاعة؟ إيه اللي يخليكم متأكدين كده من موضوع زي ده؟.

ـ مش مصدق روح إسألهم.

ـ ومعقولة حيقروا بحاجة زي دي.

ـ يا سيدي روح اسألهم.

ـ هو الجدع ده مش اعتقل قبل كده.

ـ كثير.

ـ طب لما هو كده مش معقولة الأمن معرفش وكان ساعتها خدها فرصة على التيار.

ـ لو الأمن كان عمل كده كانوا قالوا بيفتري علينا وماحدش صدق فساب الموضوع لما يتفضح لوحده من غير تدخل منه.

لم استطع الإجابة على نفسي: هل هذا تفسير كاف للموضوع؟ . وشعرت بالأسى والأسف ليس حزنًا على الشخص ولكن على سمعة هذا التيار .. فمهما كان نقدي لكافة التيارات وهجومي عليها فإن هناك مدى معين مما يصيبها أشعر معه بالأسى عليها والأسف لها.

وذهبت بالفعل إلى صديقي المسئول الثاني بالدار وقلت له:

ـ عايز اسألك عن موضوع محرج جدًا سمعت عنه وعايز أتأكد منه.

فرد عليه بكل هدوء وبساطة:

ـ إيه موضوع فتحي .. آه صحيح .

ـ صحيح إنه طلع شاذ جنسيًا.

ـ آه صحيح.

ـ وانتم إزاي كنتم ساكتين على حاجة زي ديه.

ـ مكناش نعرف، ولما عرفنا فصلناه.

ـ كل المدة ديه وانتم ما تعرفوش أمَّال قاعدين تعملوا إيه؟!

***

نقد المسيري
أمام المسيري

فـي ألفيـن وثلاثـة علـى مـا أذكر أصـدر المسـيري كتابه الشـهير والخطيـر (العلمانيـة الجزئيـة والعلمانيـة الشـاملة) وبالمناسـبة فإن من كرمه معي فقد أهداني نسـخة كاملة من موسـوعته (اليهود واليهودية والصهيونية) وعندما أصدر ملخصًا لها في مجلدين أهداه لي هو الآخر.

رغـم إعجابـي الشـديد بأغلب فصول كتابـه عن العلمانيـة ولكنني اسـتنكرت بشدة الفكرة نفسـها .. فكرة تقسـيم العلمانية إلى جزئية وشـاملة ولا داعي لتفصيل ذلك هنا فقد تم شـرحه في كتابي (الإسـلام الليبرالي) و(العلمانية) .

حدثت المسيري وتلاميذه في الأمر ولا أذكر من الذي اقترح أن ألقي محاضرة عن الموضوع في صالون المسيري نفسه ، المهم أنه تم الاتفاق على ذلك.

وفـي الميعـاد المحـدد فوجئـت بحضـور كثيـف في فيلا المسـيري حتـى لا يـكاد يكون هنـاك أي فراغ لآخرين ، لقـد كان يجمع صالون المسـيري عامة حوالي عشرين أو ثلاثين شخصًا ولكنه الآن تجاوز هذا العدد كثيرًا جدًا ، وليسـت المسألة في هذا فقط ولكن الأهم من ذلك هـي نوعية الحضور. إن في الندوة الآن أسـماء كبيرة واتجاهات متعددة وجنسـيات وافدة ولحى ضخمة : فمن الذي دعا هؤلاء؟ ومن الذي أعلمهم بالموضـوع وعـلام كان كل هذا الاهتمـام بما كنا نعتقـده أنه يكاد يكون شأنًا داخليًا فيما بين المرتادين التقليديين لصالون المسيري.

هل كان وراء حضور هؤلاء هو المشـاهدة العملية لنقدي للمسيري؟ أم لتقييم المسيري لي؟ أم الأمران معًا؟ . هذا ما حذرته من الأحداث بعد ذلك.

بـدأت النـدوة بتقديـم المسـيري لـي بتقديـر كبير تـرك أثـاره لدى

الاتجاهات التيحضرت حتى أن بعضهم قد كرره لي بعد ذلك.

بدأت المحاضرة وكان بين أهم المعاني التي انتهيت إليها أنني اعتقد أن حكاية تقسيم المسيري هذه للعلمانية إلى جزئية وشاملة، ما هو إلا حل تحايلي أراد به المسيري التخفف من مشاكل المعارك مع العلمانيين الذين يحيطون به من كل اتجاه.

وأنه بعيدًا عما أراه من أخطاء منهجية في المقولة فإنني اعتقد أن المسيري نفسه يناقضها في فحوى الأحاديث التي أسمعها منه.

بدا المسيري بعد المحاضرة غير غاضب مما قلت، بل أقرب إلى الرضى وعندما أخذ كلمته للتعليق قال:

ـ اعترض فقط على نقطتين في المحاضرة (واعتذر للقارئ أنني قد نسيت النقطة الأولى) وأما النقطة الثانية فهي أن الأستاذ مبروك قام بتحليلي نفسيًا في المحاضرة، وأنا لا أسمح لأحد بتحليلي نفسيًا إلا لزوجتي.

ضجت القاعة بالضحك.

انتهت الندوة وكان من أبرز ما تعلق في ذهن الجماهير منها هو مدى ما يتمتع به المسيري من تسامح.

لم يكن موضوع هذه الندوة هو خلافي الوحيد مع المسيري ولكن كانت هناك عدة خلافات أخرى عميقة وعميقة للغاية ولكني كنت أتعامل مع الرجل في بعض هذه الأخطاء على أنه منتقل حديثًا نسبيًا من الماركسية إلى الإسلام وإن كان قبل المرحلة الماركسية مؤمنًا إيمانًا فطريًا ولكنه لم يكن يملك التراكم المعرفي الإسلامي المناسب، أما في سنواته الأخيرة التي اشتدت علاقتي فيها به فقد كان يعاني من

تدهور صحي رهيب (كريزة سرطان) مات على أثره بعد عدة سنوات من المعاناة، ومن ثم فقد رأيت أن الوضع الصحي للرجل لن يتحمل تعميق هذه الخلافات أو محاولة حلها.

وأشهد بما رأته عيني أن الرجل كان يصلي الصلاة بوقتها ويحاول الالتزام بأحكام الإسلام بقدر المستطاع.

أما الخلاف الذي شددت عليه فيه فهو الخلاف النابع من موقفي الدائم من السياسة.

ما شأن المفكرين بالسياسة؟!

ففي ظل هذه الظروف المختلة التي نعيشها منذ عقود فإن أقصى ما يمكن أن يقوم به المفكر إبراءً للذمة هو أن يذكر موقفه تجاه قضية ما من القضايا السياسية.

أما أن يترك المفكر قضاياه المصيرية ويقود حركة سياسية ما أيًا كانت أهميتها فإن ذلك يمثل تبديدًا للطاقة. خصوصًا عندما لا يكون هناك جدوى من ذلك مثلما كان رأيي حينذاك.

وهكذا اعترضت بشدة على قيادته لحركة كفاية .

بل ليس هذا فقط، وإنما سخرت مما يعقده من أمل في تحقيقها لأي نجاح.

ولكنه جاوبني بتحد وإصرار عنيد وفدائية أعجب.

وهكذا سحل أكبر مرجعية فكرية في مصر في ذلك العهد بسبب اعتراضه على مبارك.

وأيًا كان صحة أو خطأ موقفه ولكن الرجل قدم بذلك الدليل الحاسم على مدى إقباله على التضحية من أجل ما يؤمن به.

رحمة اللّه على المسيري.

مع المفكر الماركسى الكبير
محمود أمين العالم

بعد أن أصدرت كتابي الأول (الإسلام النفعي أو البراجماتى) والذي أشرت في موضع آخر أن عنوانه الفرعى (الآثار المدمرة للأفكار البراجماتية الأمريكية للشعوب الإسلامية الفقيرة) هو الموضوع الرئيسي للكتاب وذلك عام تسع وثمانون كنت أتجه من العتبة إلي شارع فؤاد عن طريق ميدان الأوبرا القديمة فإذا بى أجد الكتاب معروضًا في الواجهة الخارجية لفرع دار الثقافة الجديدة الكائن بالمكان.

تعجبت .. ما الذي أتى بهذا الكتاب إلي هنا؟! إن دار الثقافة الجديدة هي الدار الممثلة للفكر الماركسى في مصر (حينذاك) فكيف لهم يعرضون كتابًا لإسلامي مثلي يختلف معهم جذريًا ، وهذا أمر لم يحدث من تجاههم لغيرى علي الإطلاق؟!!! قلت ربما وجدوا في مواجهة الكتاب للأفكار والسياسات الأمريكية قدرا من الاتفاق مع أهدافهم .

ما لبثت أن نسيت الأمر في زحمة المشاكل التي أنجرف فيها فإذا بى بعد أن أصدرت أول كتاب لي في نقد العلمانية عام تسعون أجده معروضا هناك في نفس المكان علي الفور من صدوره تقريبًا فزاد عجبي هذه المرة لأن نقد هذا الكتاب للعلمانية هو نقد للصميم الفكري الذي تقوم عليه الفلسفة الماركسية من الأصل. شجعني هذا علي التواصل مع هذه الدار فكانت من أهم الدور التي تنشر كتبي بشكل متتابع، وأذكر أنه في إحدى زياراتي إليها أخبرني مديرها للتوزيع أن كتابي (الإسلام النفعي) تمت مصادرته في سوريا عندما حاولوا توزيعه هناك.

قلت: أفهم أن هذا الكتاب المضاد للفكر البراجماتى الأمريكي

يمكـن أن يصـادر لـدى احـدى الـدول الرأسـمالية العربيـة (وهـو مـا حـدث بالفعـل كمـا أخبرنـي بذلك أحـد مديـري دور النشـر الكبرى وأن الـذي فعـل ذلك بنفسـه واحد من أكبـر قيادات الأجهـزة لديها في معـرض كتـاب تلـك الدولة حيـث قال لـه: إمـا أن تلقى بهـذا الكتاب بعيـدًا وإمـا أن تجمـع أشـياءك وترحـل) أمـا أن تصـادر هـذا الكتـاب إحـدى الـدول العربيـة اليسـارية فهـذا أمـر لا أسـتطيع أن أفهمـه. فقـد يفهـم أن ترفـض توزيعـه لديهـا أمـا أن تصـادره فهـذا شـئ آخـر. فـي عام ألفين تقريبًا كنت أمـارس عملي التقليدي في معرض الكتاب من حيث إدارة توزيع كتبى علي دور النشر وأثناء تجوالي بالمعرض رأيت الأسـتاذ محمـود أميـن العالم أحد أكبر قـادة الفكر الماركسـى في العالم العربى يمشـى في ربوع المعرض لم أكن قد رأيته من قبل ولكن صورتـه ارتسـمت في ذهنى مـن التلفاز، تقدمت إليه وعرفته بنفسـى (أو عرفني أحد له لا أذكر) فإذا به يأخذنى بالحضن وهو يقول:

ـ أنت محمد إبراهيم مبروك « لقد كتبت عنك في دراستى الأخيرة وقلت أنك قد تجاوزت المفكر (........) في ورقتك بندوة العولمة.

وإذا بهـذا المفكر الماركسـى الكبيـر والذي هو بمثابـة الجد لي عمـرًا يأخذنـى إلي مقـر دار الثقافة الجديدة بالمعـرض (وقد تكون قد تغيـر إسـمها حينـذاك إلي دار العالـم الثالث) ويطلب مـن العاملين لديها إعطائى نسخة من أحد أعداد عالم الفكر (الذي هو مجلد دورى يشرف علي إصداره) ويطلعنى علي موضع حفاوته لأفكارى في دراسته الخاصة المنشورة فيه حول (العولمة والمستقبل).

شـكرته مخلصًا بعد أن أهدانى هذا المجلـد مبديًا امتنانى الكبير بذلك.

علمت بعد هذا علاقة الأستاذ العالم المحورية بدار الثقافة الجديدة وحذرت بذلك أنه هو الذي أوعز إليهم هذا الاهتمام بكتبى الذي تحدثت عنه.

وتقديـري لـلأمر أن العالم الماركسـى الكبير اهتم بكتبى لأمرين:

ـ إبرازها لـلانحياز الإسلامي للفقراء والمستضعفين في مواجهة استعباد الطاغوت الأمريكى والغربى بوجه عام للشعوب هذا من منظورى.

أما من منظوره هو فيكون الأمر هكذا:

إبرازها للبعد الانحيازى للفكر الإسلامى للفقراء والمستضعفين في مواجهة الرأسمالية العالمية المستغلة وإفرازاتها الفكرية.

أما الأمر الثاني فهو العقلانية المنهجية التي استند إليها في كتبي.

وإلي هنا انتهت حكايتي مع العالم الماركسى الكبير.

ولكـن قبـل أن أنهى ذلك بالتحدث عما كتبه عنى أو أنقل شـيئًا منه أحـب أن أتعـرض بالنقد لبعض أفـكاره ليس فقط لأهميـة ذلك، وإنما لشـعوري بالحرج أمام القارئ الإسـلامي علي وجـه الخصوص أن أذكر تقديري له وحفاوته بى دون أن أذكر شـيئًا عن مدى مخالفة أفكاره مع المفاهيم الإسلامية خصوصًا أنى لن أتعرض لذلك أبدًا في حياتي خلافًا لمـا أفعله عادة مع كبار المفكرين العلمانيين وسـأشـير بإذن اللّه لماذا كان هـذا) فأكون عرضة للاتهام مـن البعض أنني أحابي الرجل الذي احتفي بى علي حساب الإسلام.

وقبل أن أبدأ في ذلك أحب أن أشير إلي أننى في هذا الكتاب العجيب الـذي هـو حـكاوي وأفكار وشـعر وفلسـفة وديـن وخـوارق لا أتعرض للقضايا بالشكل الاكاديمى أو الاستقصائي أو المشبع من حيث الأدلة أو التأصيـل كمـا أحـاول أن أفعل فـي كتبي الأخـرى، وإلا لكنت قد

احتجت إلي مجلدات لتناول القضايا المعلنة أو المطمورة التي أطرحها في هذا الكتاب وإنما أنا أعمد فقط إلي تناول أهم محاور تلك القضايا وأهم البراهين المناسبة للسياق التي استدل بها علي وجهة نظري فيها.

يذكر المفكر الكبير محمود أمين العالم في كتابه فلسفة المصادفة الذي بدأ به حياته العلمية كرسالة ماجستير أنه حين التقى بكتاب (المادية والنقد التجريبي) لفلاديمير لينين وكتاب (جدل الطبيعة) لفردريك أنجلز، كان هذا حدثًا فكريًا في حياته قلب تصوراته الفكرية رأسًا علي عقب.

ويبدوا، أن العالم عاش مخلصًا أمينا للفكر الماركسي التقليدي ورأى فيه تحديدًا نظريًا علمية مبهرة قادرة علي تفسير أحداث العالم فرفض التطويرات الدينامية للنظرية للفيلسوف الماركسي لوكاش وصادم ماركسي المدرسة النقدية وعلي الخاصة منهم فيلسوفهم الشهير هربرت ماركيوز الذي أفرد لمواجهته كتابه فلسفة الطريق المسدود.

وتتجسد أمانته لهذه الفلسفة في التزامه بالمنهج المادي (الموضوعي) القائم علي تفسير الأحداث بناء علي العلاقات التي تفرزها قوي الإنتاج التي تحكم المجتمع وصراع الطبقات فيه وتفسير الواقع المعاصر كمخاض للصراع بين الرأسمالية العالمية وقوى الكادحين، ومن ثم كان رفضه لنظرية مثل صدام الحضارات ونهاية التاريخ والنمو الذاتي للأيديولوجيات الدينية ـ أمرًا حتميًا.

هذا الالتزام الأمين بالمنهج الماركسي القائم علي تفسير الأحداث من خلال علاقات قوى الإنتاج التي تحكم المجتمع والصراع الطبقي فيه أدى به إلي اعتبار مجرد عد م التزام المفكرين الذين يتناولهم بهذا

المنهج تحميله في الأحداث أو الأفكار أمر كاف لاتهامهم بافتقادهم الموضوعية والواقعية في التفكير.

أما الموقف الذي يتحرر في تحليله للأحداث من هذا الالتزام فهو موقفه من النظر إلي الدين، فالدين لديه ليس أفيونا للشعوب كما قال لينين ولا وسيلة المستغلين لتخدير المستغلين كما قال ماركس وإنما هو تراث إنساني يتحدد دوره السلبي أو الإيجابي بحسب موقف المتعامل معه من العالم.

يقول العالم في كتابه (مواقف من التراث) الموقف من التراث ليس موقفًا من الماضي وإنما هو موقف من الحاضر، فبحسب موقفي من الحاضر يكون الموقف من الماضي وليس العكس كما يقال أو كما يظن.

ويقول أيضا في نفس الكتاب: فيما يتعلق بالموقف من تراثنا القديم، فلا ينبغي أن نقف موقف الرفض أو الاستهانة أو الاستخفاف، ولا موقف التقديس والتقليد الأعمى، ولا موقف الانتقائية والتجزئ والنفعية، ولا ينبغي أن يكون موقفًا من المضمون دون الشكل أو من أشكال دون مضمون، التراث كله كل ما فيه من مدارس مختلفة، متصارعة، عقلانية أو لا عقلانية هو تراثي الثقافي، يستوي في هذا الخوارج والأشاعرة والمعتزلة والصابئة والشيعة والمتصوفة وما شئت من ملل ونحل ومذاهب واتجاهات أدبية أو فنية أو علمية أو إدارية. أنا لا اختار بين هذه الاتجاهات ولا انتقى، وإنما استوعب التراث كله استيعابًا نقديًا في إطار واقعه التاريخي الاجتماعي الخاص بالاستيعاب .

ولكن هذا الذي يذهب إليه العالم يفقد الإسلام الأصالة في ذاته

ويجعل منه مجرد خامة لينة قابلة للتوظيف وليس كما هي حقيقته قواعد راسخة واضحة المعالم حتى ولو خرجت عنها بعض المسارات المنحرفة.

وفي نقده لمجموعة من الرؤى الفكرية حول أسباب الثورة الإيرانية يدفع بشكل متتابع لدى هؤلاء المفكرين أن يكون الإسلام هو العامل الحاسم في اندلاع الثورة الإيرانية وانتصارها فانتقد في ذلك مفكرين علمانيين كبار أقروا بواقعية هذا العامل الديني الحاسم كالدكتور أنور عبد الملك وأدونيس وحتى الدكتور منح الصلح رغم تمييز الأخيرين بين التوظيف السلطوي الرجعي للإسلام، والفهم الجماهيري الثوري له، حيث يفسر الصلح الثورة الإيرانية بانفكاك الطبقة الحاكمة بها عن الإسلام، وامتلاك حركة الجماهير له، فيعلق على ذلك قائلاً:

ولا شك أن بما يقوله منح الصلح كثيرًا من الصواب، ولكنه ليس بكاف وحده لتفسير الظاهرة. حقًا هناك تناقض بين زعم سلطة الشاه التمسك النظري بالإسلام وبين ممارستها الداخلية والخارجية (وخاصة مع إسرائيل) لسياسة معادية لمفاهيم تقدمية للإسلام. على أن هذا ليس بكاف وحده لتحقيق تحرك شعبي ثوري إذًا لماذا لم يُحِدث هذا الانفكاك عن الإسلام بهذا المعنى جماهير الأمة العربية في أكثر من بلد عربي ضد حكامها. لماذا لم تتحرك جماهير الشعب المصري مثلاً ضد شاه مصر أنور السادات وهو أكثر انفكاكًا عن الإسلام من شاه إيران وأضعف نفوذًا وسلطانًا.

وينتهي أمين العالم بأن تحرر الإسلام من احتكار السلطة له وارتباطه بالجماهير، ليس هو العامل الأساسي الذي فجر الثورة الإيرانية، وإن يكن عاملاً من عواملها بغير شك.

وما انتهى إليه الأستاذ العالم هو بلا أدنى شك ما ابتدى به في الأساس أو ما هو ثابت لديه بشكل مسبق، فكيف يكون الإسلام أو البعد الديني هو الدافع الأساسي في تغيير الشعوب وليس علاقات الإنتاج وصراع الطبقات؟ إن ذلك يهدم النظرية الماركسية كلها رأسًا على عقب، ولذلك لابد من الدفع بهذا التفسير مهما شهدت الوقائع بعكس ذلك بل ومهما أقر به مفكرون علمانيون كالذين أشرنا إليهم.

ولكي ينحّى الأستاذ العالم هذا البعد الديني يقارن الظروف الموضوعية بين حالة الشاه في إيران وحالة السادات في مصر، وتجاوزًا عن مخالفتنا له فيما حكم به عن أي من الحالتين كان الأصعب لكن السؤال الأهم من كل ذلك للبحث عن معيار صحيح لإدراك الدافع وراء الأحداث هو:

هل كان المحرك الديني الثوري لدى الجماهير المصرية أكبر أم أقل مقارنًا بهذا المحرك لدى الجماهير الإيرانية إذا تمت المقارنة بهذا الشمول فإن النتيجة الحتمية التي يتهرب منها الأستاذ العالم هي تأكيد هذا العامل الديني لا نفيه خصوصًا من خلال معطياته هو نفسه.

ومع ذلك يحمد للأستاذ العالم كسر التابو الماركسي في الموقف من الدين عندما أقر في الفقرة السابقة أن الإسلام وإن لم يكن العامل الحاسم في الثورة فقد كان عاملاً من العوامل.

ويذكر الأستاذ العالم أنه في ندوة التراث وتحديات العصر عام ٨٤ عندما قال المفكر المغربي الدكتور محمد عابد الجابري بملائمة الظروف الدولية أمام النهضة العربية الإسلامية وأمام النهضة الأوربية، وأن هذه الظروف الملائمة كانت عاملاً أساسيًا في نجاح هاتين

النهضتيــن، ثم أضاف بـأن البعض قد يرى أنها مجـرد صدفة، وقد يرى البعـض الآخـر أنهـا إرادة اللّه، يسـارع عادل حسـين للتعقيـب على هذه النقطـة الأخيرة قائلاً: «وأنا ممن يؤمنون بأن هذه الترتيبات من التجليات التي تبدو بها إرادة اللّه».

فيعلق على ذلك قائلاً:هكذا يفضي بنا هذا الرفض التراثي للأسس النظريـة التـي يقوم عليها العلم الغربي، لا إلى علوم نظرية أخرى تخرجنا مـن هـذا العلم الغربـي العاجز، بل يفضـي بنا هذا الرفض إلى ما يشـبه الدروشة الدينية والاستعلاء القومي الذي يتكرس بهما تخلفنا الفكري وذهولنا العقلي وتزداد بهما تبعيتنا العاجزة للغرب.

هنا تغدوا مسألة التعامل مع الإسلام لا تقتصر فقط على الخلاف حول كيفيـة توظيفه كمـا يعلن العالم عـادة وإنما تتجاوز ذلك إلى اشـتراط تفريغه من المضمون العقائدي حتى يمكن قبول كونه فاعلا في الواقع مع أن هذه الفاعلية الواقعية للإسـلام لن يقوم لها شـأن أبدا إلا اسـتنادا على الإيمان الغيبي وليس على تنظير هذا أو ذاك من البشر

كانـت هـذه مجـرد مناوشـات لفكـر الأسـتاذ العالم وليس دراسـة تأصيلية له لا يسمح بها المناخ العام لهذا الكتاب .

والآن أورد هنا جزءا مما كتبه الأسـتاذ العالم عني والذي أشـرت إليه سابقا، يقول الأستاذ محمود أمين العالم:

ومع ورقة الأستاذ محمد إبراهيم مبروك نجد تفصيلاً أكثر من كلمة الدكتـور المسـيري التي كانت ارتجاليـة فيما يبدو، وكلمة الأسـتاذ مبـروك وإن تكن امتـدادا متطورًا لهـا فالعولمة عنده هي تعاظم شـيوع نمط الحياة الاسـتهلاك الغربي وتعاظم آليات فرضه سياسـيًا واقتصاديًا

وإعلاميًا وعسكريًا.

ويرى أن العولمة تكتسب عالميتها من مدى اتساع قدرتها على فرض هذا النمط على شعوب العالم وليس على أساس كونها واقعًا فعليًا يحيط بالشعوب والبلدان، ولهذا فأن طرح القضية كما يقول على أساس أنها مجرد صراع حول المصالح الاقتصادية يمثل تغييبًا لوجه الشعوب الإسلامية على وجه الخصوص باعتبار أن وجه القضية لا تمثل غير تنازع على مصالح في إطار المنظور المادي للوجود وهذا ما يخالف الغايات الإسلامية التي تتجاوز الغايات المادية الاستهلاكية إلى غايات أرحب تواصل الدنيا بالأخرة...

على أن الأستاذ مبروك يتجاوز هذه الحدود الغائية القيمية ويشير إلى الناحية الاقتصادية البحتة على حد تعبيره مؤكدًا أن الحلم التبشيري الإغوائي لدعاة العولمة بتعميم نموذج الإنسان الاستهلاكي الغربي ليس سوى فانتزيا خادعة لأن موارد العالم أجمع لا تكفي.

ولا شك أن هذه الخاتمة لتحليل دكتور مبروك للعولمة تستحق التقدير لما تضمنه من روح نقدية وتأكيد على حاجة الفكر الإسلامي إلى اجتهاد نشط ومبدع في مواجهة الأوضاع العالمية الراهنة، هذا إلى جانب تجاوز دكتور مبروك الاقتصار على الأحكام الغائية والأخلاقية في تحليله لظاهرة العولمة وتحديده للأسس الموضوعية وأكاد أقول المادية للرأسمالية في مرحلتها المعولمة فضلا عن تمييزه الصحيح عامة بين الحداثة وما بعد الحداثة

الفكر العربي المعاصر عدد أكتوبر ١٩٩٩

مع مارتن أنديك

مساعد وزير خارجية أمريكا الأسبق

لا يوجد فصل آخر ترددت في كتابته في هذا الكتاب أكثر من هذا الفصل.

فمجـرد ذكر اسـم مارتـن أنديك أمر قـد يثير الهلع فـي قلوب الذين قـرروا أن يجلسـوا جانـب الحائط أمثالي فليسـت مجـرد المناصب التي شـغلها الدكتـور مارتـن أنديك كسـفير أسـبق للولايـات المتحدة لدى إسـرائيل وسفير أسبق لها لدى مصر ومساعد وزير خارجية أسبق لشئون الشـرق الأوسط، أقول ليسـت هذه المناصب فقط هي التي تشكل ثقل الرجـل وخطورتـه وإنما ما خوله فكره وخبرته السياسـية من أن يكون أحد الأشخاص الذين يعتقد أنهم يشاركون في تحريك هذا العالم.

فمراكـز الفكـر فـي الولايـات المتحـدة مثـل مركـز أميـركان انترابرايـزر ومؤسسـة واشـنطن للشـرق الأدنى ومؤسسـة رانـد والمعهد الأمريكـي للسياسـات الخارجيـة ومركـز سـابان الدراسـات الشـرق الأوسـط الذي يديره الدكتور مارتن أنديك تمثل أحد دوائر صنع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية.

وكوننا لا نجرؤ علي الحديث عن مدى علاقتها المباشرة بالمخابرات الأمريكيـة فإن ذلـك لا ينفي ما يعلمـه الجميع من أنه ليـس المخابرات الأمريكيـة فقط ولكن دوائـر صنع القرار الأخرى كـوزارة الخارجية والبيـت الأبيـض والبنتاجـون يعتمـدون علي هـذه المراكـز كمرجعية أساسـية فـي تحديـد ماهية القـرارات التي ينبغـى اتخاذها بصدد شـتى القضايا العالمية.

وأمثـال الدكتـور مارتن أنديك هذا فـي الدول الكبرى لهـذا العالم

كأمريـكا وروسـيا والصين والهنـد واليابان والمانيا وانجلترا وفرنسـا وإسـرائيل هـم الحكام الحقيقيون لهذا العالم الـذي يحركونه من وراء الستار وأحيانًا من ورائه ومن أمامه أيضًا.

وأربأ بقارئي أن يكون من هؤلاء المسـتغفلين من الذين يسارعون إلي تفسـير الأشـياء بناء عل الاعتقاد بأن اليهود هم الذين يحركون العالم، وهـو الاعتقاد الذي رسـخته في ذهـن الجماهير تيـارات محددة تحرص دائمًا علي أن يعيش الجماهير في هذا الوهم السـاذج حتى يسـهل قيادتها وحتى يوفرون علي أنفسهم جهد الاستقصاء والتفكير والتحليل فيكفي أن تقـول بصـدد أى قضية تواجه العالم الإسـلامي: اليهود هم الذين وراء ذلـك، ثـم تسـحب الغطـاء وتنام. ومـن ثم فأنـا لا أؤمن بـأن وراء كل ما يحدث في هذا العالم شئ من قبيـل (حكماء صهيون وبروتوكولاتهم). فسواء كانوا حكماء صهيون أولئك الأسطوريينُ وجَدوا أم لم يوجدوا، موجدين الآن أم غير موجودين فإن هؤلاء المفكرين والخبراء السياسيين الذيـن يصنعون المرجعية الفكرية لاتخـاذ القرارات في الدول الكبرى ومن خلال أفكارهم المتوافقة أو المتداخلة أو المتشابكة أو المتعارضة يحركون العالم أجمع (واللّه من ورائهم محيط) هم أسياد أسياد حكماء صهيون أولئك علي افتراض وجودهم.

وعلـى الرغـم من كون مارتـن آنديك يهوديـا بالفعـل إلا أن هنتجتون وفوكويامـا اللذيـن يقتضـي فكرهمـا حتميـة الصدام مع الإسـلام لم يكونا يهوديين.

فالعبـد للّه هـو صاحـب مقولـة أن الشـيطان متعدد الجنسـيات وليس يهـودى الجنسـية، والفكرة السـاذجة التي تم ترسـيخها بـأن اليهود هم الخطر الأكبر فقط علي الإسلام وأنهم يقفون وراء شرور العالم لا تستند

فقط علي التصديق بحقيقة البروتوكولات ـ وإن كان التصديق بحقيقة وجـود البروتوكـولات لا يعنـى التصديـق بحقيقة ما جاء فيهـا ـ ولكن يستند أيضا لفهم خاطئ ـ تم ترويجه عن عمد ـ للآية الكريمة (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) المائدة: ٨٢

هذا الفهم مؤداه أن الأشـد عداوة هو نفسـه الأكبر عداوة، هو نفسه الأشد خطرًا. وهى مفاهيم متعددة وليست متطابقة.

فقـد يكون هناك من هو أشـد عـداوة، أي يحمل لي من العداوة ما لا يحمله شـخص آخر لكنه ضعيف الشـأن والقوة قياسًـا لعدو أكبر منه في الشأن والقوة.

وقد يوجد العدوان السابقان ولكن قد توجد أيضًا لحظة فارقة يوشك فيهـا الإصطدام بينى وبين عدو ثالث لا يحمل صفتى العدوين السـابقين بنفس القدر ولكنه مع ذلك قد يكون الأشد خطرًا في اللحظة الراهنة. إذن مـا الـذي يجعل شـخص قرر أن يجلـس بجانب الحائـط مثلي ويجتر الذكريات مثلي يغامر بذكر اسم شخص كهذا؟!

قد لا يعرف الكثيرون ممن لم يشـاهدوا ما أقول أن لي واقعة كبرى مع تلك الشخصية الضخمة بالنسبة لشخص (علي باب الله) مثلي .

تلك الواقعة هي أن الدكتور فيصل القاسم حين دعاني للقيام بمناظرة حول الحوار بين أمريكا والعالم الإسلامي عام ألفين وأربعة لم يقل لي من المحاور الآخر أمامي. وحسن أنه قد فعل ذلك، فربما لو علمت حينها أن المحـاور هـو مارتن أنديك لربما تهيبت الموقف لا لما يمثله ذلك من تحد فكـرى ولكن إحجامًا عن دخول شـاب ـ حينها ـ مسـكين مثلي في معتركات ملغمة لم يفكر أبدًا في السـعي إليها. فهو لم يفكر سوى أن

يكـون مفكـرًا (رجل بتاع كلام وبس) أو علي حد قول نجيب الريحاني في فيلم غزل البنات: (أنا راجل بتاع بوووووه .. كتب).

ولـن اتحـدث هنا عما حـدث في المناظـرة أو حدث مـن نجاحي فيها أو عمـا تنبأت به يومها من الرعاية الأمريكية لصعود الإسـلام الليبرالي فـي المرحلة التالية وأن ذلك ليس خيارًا اسـتراتيجيًا حتميًا وإنما هو دور وظيفـي يرتهن وجوده تبعًا لما يؤديه من خدمات للمصالح الأمريكية في ظل ملابسات عالمية متغيرة ومن ثم فقد يتم تنحيته أو تقليصه تبعًا لتلك المتغيـرات وقـد أصـدرت في ذلك كتابًـا بنفس العنوان بعـد ذلك وعلي القارئ أن يراجع أحداث تاريخ المنطقة منذ ذلك التاريخ وحتى الآن ليعلم مدى كان صدق هذه التنبؤات، ولن أتحدث عن الحفاوة التي قوبلت بها من جاليات الدول الإسلامية المختلفة في المسجد الكبير (مسجد عمر بن الخطاب) حين رأتني بعد المناظرة.

لـن اتحـدث عن كل ما سـبق، وإنما أتحدث عن شـئ واحد حدث لي بسـبب تلك المناسـبة. شـئ أعده من الخوارق حتى أنه قد يكون مناسبًا ضمه إلي فصل الخوارق الموجود بين ضفتي هذا الكتاب.

وأود أن أشـير قبـل ذكـر ذلك إلى كونـي لم أر أمرًا مـن أمور الدنيا يخالـف فيـه المسـلمون نبيهـم ﷺ مثل الرغبة فـي كثرة الطعـام مع أن نهجـه الزاهـد في التعامل مع الطعام كان نهجًا مسـتفيضًا اشـتهرت به الأحاديث بين الناس وتعجب له بعض الجاحدين أنفسـهم، وفي مثل ذلك يقول ﷺ: ما ملأ ابن آدمي وعاءً شـرا من بطن، بحسـب ابن آدم أكلات يُقيمن صلبه، «فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشـرابه، وثلث لنفسه» . رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

ويقول عليه أفضل الصلاة والسلام:

«طوبى لمن هُدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا ، ومنع». رواه الترمزي وقال حديث حسن صحيح.

وعن عائشة رضي اللّه عنها أنها قالت:

«ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض» متفق عليه.

وقالت أيضًا :

«إنا كنا للنظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول اللّه ﷺ نار».

وعن سهل بن سعد رضي اللّه عنه قال: ما رأى رسول اللّه ﷺ منخلاً من حين ابتعته اللّه تعالى حتى قبضه اللّه تعالى .

ويلخص ﷺ أمر الدنيا في قوله:

«من أصبح منكم آمنًا في سربه معافى في حسده عنده قوت يومه» .

فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» رواه الترمزي وقال: حديث حسن . وسربه أي نفسه.

ويلخص ﷺ أمر التعامل مع الدنيا في قوله:

«عش في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» متفق عليه

أقول هذا هو ما يجب اتباعه وليس هذا الذي أحكيه .

تم إنزالي من أجل المناظرة في (الفورسيزون) ولا أدرى لماذا تم إنزالي في الفورسيزون مرة واحدة وليس في الهيلتون أو الشيرتون مثلاً. المهم حان وقت الغداء في قاعة المطعم (أوبن بوفيه) ولك أن تتخيل كيف أن مسكينًا مثلي مر بما مررت به من فقر وحرمان يجد نفسه بكل هذه

العظمة في مطعم الفورسيزون أوبن بوفيه !!!!!...

جمعت أمامى (طرناطة) مما أعرف أو لا أعرف من كافة اللحوم المختلفة، وأخذت في تناولها.

أثناء ذلك رأيت مدير المطعم يطوف من حولي علي مسافة ما بابتسامة مندهشة، حدست من سيماته أنه مصري مثلي وخطر لي أنه ربما جال بباله القلق من نقص بعض أنواع الطعام لديه بسبب ما وضعته منها علي مائدتي. فدعوته إلي وقلت له:

ـ بقولك إيه، إحنا مصريين زي بعض، أعمل نفسك مش واخد بالك.

اتسعت ابتسامته ومضى لحاله.

لم يكن قد بقى علي بدء المناظرة سوى حوالي نصف الساعة عندما كنت قد قضيت علي (الطرناطة) كاملة.

ذهبت إلي الأستوديو، ومضت المناظرة لمدة ساعة ونصف فيما مضت فيه، ثم ... ثم ماذا؟!

انصرف الجميع من القاعة وظللت جالسًا مكاني لا استطيع حراكًا.

بعد برهة من الوقت جاءني أحد الإداريين.

ـ أتفضل يا أستاذ، السيارة تنتظرك.

ـ لا استطيع التحرك من مكاني.

ـ لماذا؟!

ـ من شدة الجوع.

ابتسم لي وقال:

ـ ألم تأكل في الفندق؟

ـ أكلت أكثر مما تتصور.

ـ إذن ماذا حدث؟

ـ لا أدرى ولكن لا استطيع حراكًا من شدة الجوع، إلا يمكن أن تأتوني بأي طعام حتى استطيع أن أتحرك.

ـ دقائق قليلة وتكون في الفندق وتأكل كيفما تشاء.

اضطررت ـ لا بسبب الاحراج ولكن حتى لا أعطل الرجل عن عمله ـ أن أجاهد في التحامل علي نفسى لأتحرك من مكانى وأمضي معه إلي الفندق.

قد يقول البعض: التفسير بسيط للغاية علميًا، وهو أن الطاقة التي يبددها المجهود العقلي ليست أكبر من الطاقة التي يبددها المجهود العضلي فقط بل وأكبر من الطاقة التي يبددها المجهود النفسي أيضًا. وقد يكون هذا ما يتناسب مع المجهود العقلي الذي بذلته في المناظرة.

ولكن يا سادة هذه (طرناطة) من اللحوم، وهاتان ساعتان قد مضيا من الوقت لا أكثر.

فأي طاقة وأي علم؟!

أليس هذا الذي حدث من الخوارق؟

(١)

أرادت أن تتزوجني

وكانت أفضل مما أريد

أرادت أن تتزوجني وكانت أفضل مما أريد

ولم يحدث (1)

ـ يا بنى بالله عليك اسألها: ملهاش أخت حلوة زيها كده.

ـ لأ ملهاش

هكذا كنت أسأل الشيخ رشيد عن السكرتيرة الجديدة كل بضعة أيام بمزيج من الجدية والرغبة في التنفيس عن النفس بشئ من الضحك في أيام سوداء حالكة بسبب ما حدث من انهيار في صراعي الخاص منذ أواخر عام الثالث والتسعين حتى تهاوى إلي سفحه الأخير في السنوات القليلة التي بعدها.

والشيخ رشيد هو المدير الجديد لإحدى دور النشر التي كنت أتردد عليها كثيرًا في ذلك الوقت بعد أن كان أحد موظفيها لعدة سنوات وهو أحد الشباب الذين من الممكن أن تسعد بمعرفتهم ومعايشتهم في حياتك بما كان يمتاز به من براءة وصدق وبساطة في التدين أقرب إلي الزهد ولا تكاد تفارق وجهه الوسيم تلك الابتسامة الخفيفة المحبة لجميع خلق الله علي الرغم من التزامه التقليدي الكامل بالمظهر الإسلامي السنى من لحية كثة ومرسلة وجلباب قصير وما شابه ذلك، تلك الأمور التي يجعل البعض من الالتزام بها مسوغًا له علي التجهم والترفع علي خلق الله.

عندما شاهدتها في الدار أول مرة شعرت أن صورة الفتاة التي من الممكن أن أقدم علي الزواج منها ـ إذا حدث الانهيار التام في صراعي الخاص وظللت حيًا بعد ذلك ـ تتجسد أمامي بكل وأكثر مما أريد.

فتـاة بيضـاء واسـعة العينيـن أطـول قليلاً من المتوسـط وتتفـوق علي العديد من شـهيرات الجمال مع التزام في الزى وتواضع في الحال وطيف من الحزن والانكسار يستقر في عينيها.

ولم يطل الوقت طويلاً حتى أسـفت لكونها ليسـت آنسة حيث أشرت للشيخ رشيد علي الفور أن يأت إلي لأتنحى به جانبًا واسأله:

ـ مين دي؟

ـ السـكرتيرة الجديدة.

ـ آنسة

ـ انسى .. متزوجة ولديها بنت.

ـ يااااللّه

طبعًـا الأمـر لم يكن ليمثل لي أي صدمة في هـذا الوقت لأن الهامش المتاح في تفكيرى لاحتمال الزواج من أى شـخص آخر غاية في الضآلة ومن ثم لم يبق للموضوع من أثر بعد ذلك سوى نوع من التفكـه.. التفكه علي ماذا؟

التفكه علي التالي:

يا عم الشـيخ رشيد أليس من المفترض أن هذه الدار دار نشر للكتب الإسـلامية يرتادهـا أصحاب اللحـى داخلين وطالعين، فكيف ينسـجم ذلـك مـع وجود فتـاة بكل هذا الجمـال فهذا أمـر لم يكن مـن المعتاد علـي الإطـلاق مهمـا ما تتمتع بـه هذه الفتاة مـن الأدب والأخـلاق. ولأني كنت أرثى لنفسي بعد الشهور التالية مما يعتريها من الاكتئاب وحلمها الوجـودى القديـم يقترب من حافة الانهيار، عملت علي أن أسـأل الشـيخ رشـيد عند رحيلي من الدار وأنا أهبط علي درج السـلم الذي اسـتدرجته

إليه محاولاً التفكه.

ـ أنت متأكد إن ملهاش أخت؟

ـ فيجيب بابتسامته المعهودة:

ـ ملهاش أخت

وتمر عدة شهور وأنا في نفس الحال المطابق فأعيد سؤالي

ـ يا عم الشيخ سعيد ، أنت متأكد إن ملهاش أخت

ـ فتتسع ابتسامته أكثر ويجيب.

ـ يا عم الأستاذ أعملك إيه علشان تصدق إن ملهاش أخت.

وتمر عدة شهور أخرى والحال هو الحال وأسأله مرة أخرى.

ـ يا عم الشيخ رشيد أنت متأكد إن ملهاش أخت؟

ـ لأ: ليها أخت

فتأخذنى المفاجأة وأتسمر في مكانى مزهولاً.

ـ بتقول آيه؟ إزاى؟ انت يا بنى مش اكدت ألف مرة قبل كده إن ملهاش أخت؟ تبقى مين أختها ديه؟

ـ هي نفسها

ـ يعنى إيه؟

ـ كانت رافعة قضية طلاق وخلاص أطلقت.

ـ يااه !! دى مفاجأة كبيرة قوى.

ـ فكر بقى يا حلو

كنت أدرك جيدًا أن الشيخ رشيد لم يقل هذه الجملة الأخيرة إلا تعبيرًا عن حديث جرى بينه وبينها والرجل كان بسيطًا جدًا في التعبير

عما يريد. فهل فكرت أنا هنا حقًا في الموضوع؟ أو بمعنى أدق: هل كان أفادتى يمكننى ذلك؟ إن غاية ما في الأمر هو أننى أسفت لفقدانى حالة التفكه التي كنت أتعلق بها بين الحين والحين في تلك الأيام الكئيبة حالكة السواد، أما التفكير في المسألة فهو محسوم مسبقًا مثله مثل العديد من الفرص الضائعة قبلها سواء كانت تقل عنها قليلاً أو تزيد، ولفظ (الضائعة) هذا غير صحيح في التعبير عما كان يحدث وقد يكون الأقرب إلي الصحة هو (الفرص غير الممكنة)، فرغم أنها فرص مهيئة صراحة أو ضمنًا ولكنها غير ذات محل من التحقق حيث المجال الوحيد للتحقق هو الاستمرار الدائم لذلك الصراع الوجودى رغم انحداره إلي سطح الانهيار التام حتى تأتى اللحظة التي تستقر فيها الاستحالة الوجودية التي يفتقد معها أى احتمال آخر.

ولا أنفي عن نفسي ما احتلها من الكآبة والحزن بسبب فجيعة ما يحدث من انهيار لحلمى الوجودى أما تلك الفرص العديدة التي يطلق عليها الفرص الضائعة وأقول عنها الفرص غير الممكنة فما كانت لتصيبني بالحزن أو الأسف لها (طبعا يمر ذلك في النفس كطيف عابر) لأنى كنت أرى أنها تحمل القدرية الحتمية الكاملة التي ينطبق عليها قوله تعالي (لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلي مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) وقول الرسول r (واعلم أن ما أصابك ماكان ليخطئك، وما أخطأك ما كان ليصيبك)

ـ ها فكرت

ـ حا اقولك دلوقتى أصبر علي

ـ أمال يعنى بس كنت واجع دماغي هي ملهاش أخت.. هي ملهاش

أخت.

ـ يا شيخ رشيد هو أنت مش عارف موضوعي إياه.

ـ هو الموضوع ده مش هينتهى أبدًا

ـ بصراحة أنا ما قادرش أخدع حد

ـ يعنى إيه؟

ـ يعنى الموضوع ده لا يمكن اتنازل عنه أبدًا مهما كان الأمل فيه ضعيف ومهما كانت الفرصة المعروضة علي عظيمة.

ـ انت غريب . إنت اللي اتكلمت ولما خلتها تفكر في الموضوع أنت اللي بتتراجع.

ـ شوف أنا حاقولك من غير ما تتنطط ومن غير ما يكون قصدي إني أقلل منها.

ـ خلاص

ـ هل هي ترضى إنى أتجوزها بشرط إنها تبقى عارفة من الأول إن لو الموضوع الأولانى خلص في أى وقت حمشيه راخر.

ـ ليه هو مافيش إلا انت في الكون، دا أنت نفسك كنت بتقول عليها ملكة جمال.. بقولك آيه إنسى الحكاية ديه كفاية الإحراج اللي حطتنا فيه.

يبدو أننى حين فكرت في هذا الحل ـ ولا أذكر متى كان ذلك، هل كان أثناء اللحظات التي كنت أحدثه فيها أم قبلها ـ كنت أعتقد أنه من الصعب علي أمثالها (وأقصد بذلك تحديدا الملكات للقوة الكونية الأكثر وضوحًا في الواقع التاريخي والمتمثلة في الجمال) أن تقبل بمثل هذا الحل، وبذلك أكون قد نجحت في رفع الحرج عن نفسى،

وهكـذا ذهبـت إلي الدار مرة أخرى بعد مدة ما _ لا أذكرها _ لمتابعة بعـد شـئون كتبى ولا يكاد يكون في رأسـي _ المنهـك في صراعاته _ شـيئًا عـن ا لموضوع. وفي أثناء حديثنا عـن الكتب وما بيع وما لم يبع ومشـاكل التوزيـع وتأثيرات الظروف السياسـية والاقتصادية علي وضع سوق الكتب وغير ذلك إذ بالشيخ رشيد يفاجأني قائلاً:

_ تصـدق إنهـا لما عرفـت اللي أنت قلتـه قالت: ياه هو لسـه فيه حد مخلص كده. انا بحترم الإخلاص ده وموافقة عليه وعلي إخلاصه.

ماذا يمكن أن أقول لك أيها القارئ عن حالي في هذه اللحظة؟ قل لي أنت ماذا كان من الممكن أن يكون حالي في تلك اللحظة.

_ ها ساكت ليه؟ قلت إيه في اللي انا بقولهولك.

_ سيبني النهاردة وأنا حرد عليك.

مرت فترة من الزمن _ لا أذكرها _ حتى التقيته ثانية فقلت له:

_ مش حاقدر يا شيخ سعيد.

_ ليه تانى؟ ما هي وافقت علي اللي أنت قلته.

_ تشكر لكن أنا مصيبتى مصيبة.

_ صدقنى الموضوع بتاعك ده ميئوس منه.

_ حتـى لو فيـه احتمال صغير جـدًا .مبقاش أنا اللـي قضيت عليه لو وافقت علي اللي أنتم بتقولوه.

قـد يكون هذا الذي حدث قد آثار عجب الشـيخ رشـيد والشـخصية نفسها وباقى أهل الدار ودور النشر الأخرى التي تدور حولها وتتعامل معها ويتسـرب لها مثل هذه الأخبار وقد يثير عجب القارئ نفسـه لكنه لم يثر عجبى علي الإطلاق فكما ذكرت سـابقًا أني اعتبرت ذلك قدرًا حتميًا

لابد من الاستسلام له.

أما الذي آثارت عجبي بالفعل فهو التالي:

استطيع القول أنه في عام سبع وتسعين انتهى الأمر تمامًا .. أى بلغ صراعي الوجودي حد انهياره التام، ورغم ذلك قررت مواصلة حياتى أو بمعنى أدق بداية حياة جديدة. وفي أثناء عملي التقليدي بمعرض الكتاب ومروري غير المقصود علي دار النشر التي انتقلت للعمل بها الأخت إياها إذا بصاحب تلك الدار يميل علي ويقول:

أستاذ محمد أنا عايزك تبقى تفوت علي عشان عايز أكلمك في موضوع خاص.

كانت طريقته في الكلام ونبرته ونظرته إلي لا تحتمل إلا إنه يريد أن يحدثني في نفس الموضوع شاعرًا بالثقة في نفسه أنه يستطيع إقناعى بما فشل فيه الآخرون.

وفي يوم آخر من نفس المعرض رأيت أن أضع في هذه الدار مجموعة كبيرة من الكتب كأمانة لديها كى تكون جاهزة لتوزيعها علي بعض دور النشر الأخرى القريبة منها وهو تصرف تقليدى كنت أقوم به مع بعض دور النشر التي تربطنى بها علاقات قوية كبديل مجانى لدفع رسوم قاعة خاصة بكتبى في المعرض، فإذا بى أفاجأ بوجودها وهى تتحدث إلي بصوت مرتفع عن مكان مناسب لوضع كتبي داعية بعض زملائها ـ بحماس بالغ ـ تيسير الأمر لي .

هذا هو حقًا العجيب في الأمر لا أقصد بذلك ما حدث في المعرض بالطبع ولكن أقصد موقفي أنا بعد كل الذي جرى وإصرار الناس علي موقفها ورغم ذلك كان تعاملي مع الموضوع وكأنه لا وجود له مع أننى

أعيش حرمانًا ربما يندر وجوده في التاريخ.

هل كان ذلك بسبب الظروف المادية المأساوية التي كنت أمر بها حينذاك بعد أن فقدت كل ما أملك في أزمة عام سبع وتسعين؟

استطيع أن أنفي ذلك تمامًا ليس فقط لأن هؤلاء الناس كانوا مطلعين علي الأمر، ومن الراجح أنهم كانوا سيقدرون ظروفي وإنما لأننى كنت أسعى بالفعل ـ في ذلك الوقت ـ في البحث عن زوجة رغم تلك الظروف.

هل لأن شيطانًا ما كان قريبًا من الأحداث ألمح أمامى ـ دون مناسبة معقولة ـ أنها قد تدهورت جماليًا؟

لا أعتقد ذلك لأنني ممن يستطيعون تقدير أثر الانتكاسات المعيشية علي جمال المرأة وقدرتها علي استرداد ما فقدته إثر زوال تلك الانتكاسات.

كما أن هذا الشيطان كنت أعلم جيدًا مدى حقده علي وطمعه في الاستيلاء عليها.

هل لأن هناك من وسوس لي أنه قد حدث لها توجه آخر بعد طول انتظارها لإبدائى موقفًا إيجابيًا تجاهها؟

فلماذا إذن لم أتحقق من الموضوع وأبدى أى اهتمام لتبيان حقيقة الأمر خصوصًا أننى أعلم جيدًا أن صدور تلك الاتهامات أو الشائعات أو التخرصات عن واحدة تملك هذا الجمال وغلبانة كل هذا الغلب أمر طبيعى جدًا، المهم أن هذا عة الذي حدث ولم أعد أفكر فيه تقريبًا حتى انتوائى لكتابة هذه الأوراق.

فإن كانت هذه القصة عجيبة فانظر القصة التي تليها.

(٢)
أرادت أن تتزوجني
وكانت أفضل مما أريد

أرادت أن تتزوجني وكانت أفضل مما أريد

ولم يحدث !!! (2)

ـ كيف تستطيع الانتقال من المعادى لوسط القاهرة.

ـ المسألة بسيطة خالص.. تركب المترو.

ـ وكيف لو لم يكن معك أي مال علي الإطلاق.

ذكرت من قبل أنه بعد أزمة سبع وتسعين كنت قد فقدت مالي تمامًا والـذي كان يعتمد أساسًـا علي التأليف وتجـارة الكتب، ولم أكن قد تمكنت بعد من كتابة المقالات للجرائد والمجلات التي تعطى مقابلها مالا جيدًا وقد تحقق ذلك بعد سنة أو اثنتين علي الأكثر من خلال تعاملي مع عدد منها علي رأسها جريدة الحياة اللندنية ـ وأثناء تلك الفترة كنت أعيـش علي الاقتراض أو المسـاعدات، ونظرًا لشـعوري بالوحدة القاتلة كنـت أحرص علي حضور الندوات الثقافية المختلفة حتى ولم يكن بها فائدة عقلية كبيرة فيكفي أن أجد فيها شيئًا من الترويح عن نفسي.

وعلي هذا ذهبت إلي المعادى لأحضر ندوة ما بمركز دراسـات كان كائنًـا هنـاك، ويبدو أن الندوة قد ألغيـت أو أن الصديق الذي انتويت أن اقترض منه مالاً لم يحضر.

فكان علي أن انتقل إلي أحد مراكز حقوق الإنسـان بوسـط القاهرة والذي كان يشـهد نـدوة هامة جدًا أكد صديقي علـي حضورها فماذا كان يمكننـي أن أفعل ولـم يكن معي مال علي الإطلاق .. لم يكن لي خيار.. كان علي الاعتماد علي قدمي.

ولأني أزعم أنني أكره الكذب بشكل مطلق، فلابد أن أعترف أننى لم أقطع المسافة كلها مشيًا علي أقدامى ولكنني توصلت إلي حل جزئي يمثل الحد الأدنى من إهدار الكرامة في تلك اللحظة ويخفف عنى تعب المشى علي الأقدام طوال هذه المسافة بعض الشئ وهو أن انتقل بأحد الأتوبيسات مسافة محطة أو أكثر لو أمكن علي أن أكون بجانب الباب حتى إذا انتبه إلي المحصل أنزل علي الفور قبل أن يطالبني بالتذكرة وإن انطوى ذلك علي الخطر في بعض المرات حيث يكون النزول واجبًا قبل أن يهدّئ الأوتوبيس من سرعته بطريقة آمنة استطعت من خلال هذه الطريقة أن أخفف علي نفسي جهد أربعة أو خمسة محطات أتوبيس لا تكاد تمثل ثلث المسافة، وكانت الطامة الكبرى هنا أنني ظننت أن هذا المركز كان موقعه بجاردن سيتي بينما هو كان بالمنيل، أو العكس فذهبت إلي احدهما أولاً وبعدما أدركت خطأي انتقلت إلي الآخر حتى وصلت إلي الندوة التي كانت قد بدأت بالفعل وقد بلغ بى الجهد مبلغه هذا غير ما أعانيه من جوع، وعندما وجدت صديقي قد حضر هدأت نفسي إلي حد كبير.

استمعت إلي ما يقال في الندوة، وكان من نعمة اللّه علي أنه كان مستفزًا جدًا لأنه لو لم يكن علي هذه الدرجة من الاستفزاز ما كنت قد غالبت تعبى الشديد وطلبت الكلمة للتعليق.

يبدو أن التعليق الذي قد تركوا لي إطالته كان ناجحًا وحقق قدرًا كبيرًا من الاستجابة والتقدير لما سأذكره علي التو ولما قد تسوقني الأحداث إلي ذكره بعد ذلك.

انتهت الندوة وبدأ يدور الحوار بين الثنائيات والثلاثيات والمجموعات المختلفة، من بين هؤلاء شهدت عيني قوة خاطفة ومفاجئة. امرأة مفعمة بالجمال والأنوثة في حوالي الثامنة والعشرين من عمرها وكانت سماتها

ومظهرها وطريقة كلامها وكل ذلك ينم علي أنها هانم من طبقة متميزة عـن طبقتنـا فكيف لمثل هذه أن تدخل في حـوار طويل مع ذلك الباحث المعتقل العتيد السابق حول الغرب والحركات الإسلامية؟!

لم يدم نظري للمشـهد أكثر من بضـع ثواني ثم ربما بضع ثوان آخرى والـذي خطر ببالـي تلك اللحظة هو: مالي أنا ومال هذه خصوصًا في تلك الظروف الحالكة أو سـريعًا ما حولت انتباهي عن الموضوع وعما خطر لي من لمعان عينيها بوجه خاص حين لاحظت نظرتي السريعة إليها.

مضيـت إلي صديقي وحكيت له ما عانيته حتـى حضوري إلي الندوة فقال لي:

ـ حسـن أنـك فعلت هـذا وحضرت. فأعـداؤك في الحزب والوسـط الثقافي يحيكون لك مؤامرة لقتلك معنويًا بإشاعة اتهامك بالغرور والجنون وما أجادته من حديث في الندوة كان يمثل ردًا قويا علي هذه الاتهامات.

مضت عدة أشهر علي تلك الواقعة وكنت قد بدأت نشر مقالاتي في تلك الجرائد والمجلات التي أشرت إليها من قبل وبدأت أقف قليلاً علي قدمي أو بالـكاد، بلغت درجة الاكتفاء الذاتي في الحصول علي نفقاتي وكان مـن بيـن ذلك مجلة يرأسـها مدير تلك الجمعية لحقوق الإنسـان التي دارت فيهـا الندوة المذكورة والذي يشـغل فـي نفس الوقت منصبًـا كبيرًا في مركز الدراسات التابع لأحد المؤسسات الصحفية الحكومية الكبرى.

وفي أحد زياراتي له فاجأني بالسؤال التالي:

ـ لماذا لم تتزوج حتى الآن.

ـ كانـت هناك قصة حـب قديمة، وصحيح إنهـا انتهت ولكنى في حالة مادية الآن يرثى لها.

ـ الطبيعي أن هذه الظروف سوف تتغير.

ـ لـدى الشـعور في كلام حضرتـك أن هناك امرأة محـددة تريد أن تقترحها علي .

ـ نعم توجد فتاة وأنا بالفعل أقدرها كثيرًا ولأنى أقدر عقلك بشكل خاص فأرى أن هذه الفتاة هي التي تتناسب مع ثقافتك.

ـ حـذار يا دكتور أن تعتقد أننى أبحث عن فتاة تتناسـب ثقافتها مع ثقافتي، أنا أريد أدبًا وجمالاً خاصًا قبل أى شئ آخر.

ـ أريـد أن تراهـا أولاً ثم قل بعد ذلك ما تشـاء.. هي لديها ندوة بقاعة (.......) بمكتبـة القاهـرة بالزمالـك يـوم الخميس السـاعة الثانية بعـد الظهر، يمكـن أن تراها هناك دون أى إحـراج وكأنك تزور المكتبة بحثًا عن بعض الكتب.

ذهبـت فـي الميعـاد المحدد وفعلـت ما قاله لـي وكأننـي أبحث عن بعـض الكتب ومن ابتسـامتها الخفيفـة ونظرتها المنسـحبة إلي الأرض علي اسـتحياء تيقنت أنها هي المقصودة، ولم أدر هل كان حياؤها هذا هو السـبب في شـحوب وجهها أم أن شـحوب البدلة الرمادية التي كانت ترتديها والتي لا يتناسب لونها مع لون بشرتها الخمري هو الذي انعكس علـي هـذا الوجه الوديع المدهـش. ولكن الملحوظة التي حسـمت الأمر لـدى هـو أن جيدها كان جيدًا يتسـق مـع الجمال الأوربـي وأنا في هذه المسألة بالذات مصري أصيل.

وفي الزيارة التالية قال لي .

ـ أرجو أن تكون قد حازت علي قبولك.

ـ للأسف الشديد لا ... بصراحة أنا أميل للنساء الممتلئة.

ـ هي كانت ممتلئة ولكنها قامت برجيم قاسى في الشهور الأخيرة،

وعلـي العمـوم هذه حاجة سـهلة مـن الممكن أن تعـود ممتلئة مرة أخرى.

ـ بصراحة إن نوع الجمال الذي أميل إليه هو مثل جمال سكرتيرتك فأرجو ألا تكون مخطوبة.

ـ فقال وهو يكتم غيظه الشديد وتجحظ عيناه استنكارًا.

ـ إنهـا متزوجـة .. إن كان هذا هو الجمال الـذي يعجبك فإنه يتوافر منه الكثير.

لا أذكـر ما هي المدة التي مضت علي هـذا الحديث عندما تردد في ذهنـي تلك الجملة التي قالها : لقد كانت ممتلئة ، وإذا بى أتذكر فجأة: أنها هي .. هي التي رأيتها في الندوة وجذبني جمالها بكل قوة ، فما الذي حـدث؟ غايـة ما في الأمر أن النحافة التي آلـت إليها أفقدتها الكثير من جاذبيتها بالنسـبة لي كما أن شـدة القلق التي تصيب الإنسان عند لقائه بشخص ما يريد الارتباط به تفقده الكثيرمن جماله .

فهل بعد أن أدركت ذلك فعلت شيئا؟

أبدا لم يحدث .

هل كان السبب يعد لظروفي المادية المتدهورة؟ .

كان الوسـيط يعلم ذلك ويعلم أيضا أن ذلك ليس إلا أمرا مؤقتا بل أن تدخله ذاته كان يعني جزءا من الحل.

هـل كان السـبب في ذلك هو علاقتهـا بالليبراليين مما يثير مخاوفي من توجهاتها؟ .

غيـر معقول لأنها تبدو في بدايـة الطريق من حكاية الثقافة كلها ثم أن المسألة تدور في دائرة تخصصي فكان علي ولو واجب المحاولة

فر من كبرياء المرأة
فرارك من الأســـد

إن إرضـاء المـرأة لكبريائهـا قد يكون أهـم من إرضائهـا لغريزتها أوعاطفتهـا وإن كنـت لا أملـك دليلاً حاسـمًا على ذلـك ولكنني أقطع مـن خـلال ما مررت به أو تابعته من تجـارب إن ذلك الحكم إن لم ينطبق علـى كل النسـاء أو أغلب النسـاء فإنـه ينطبق على قطـاع كبير منهم، وفـي لحظـات معينة عندمـا ينقطع الأمل فـى إرضاء الغريـزة أو العاطفة فـإن تقديـم إرضاء كبريائها حينذاك على أي شـئ آخـر يكون حكمًا شـاملاً على جميع النسـاء، وعند ذاك لا أقول للرجـل فقط عليك الهرب من أمامها، ولكنني أقول له: فر منها فرارك من الأسد.

إن قصتي امرأة العزيز وسـالومي همـا في النهاية قصة واحدة تتكرر عبـر التاريخ في كل الأماكـن والأزمنة. وفي قصة امرأة العزيز (زليخا) فإنهـا علـى الرغـم من ولهها بسـيدنا يوسـف، إلا أنها عندمـا هرب منها سـيدنا يوسـف، واستبقا الباب وحاولت أن تمسك به فقطعت قميصه من الخلف، وإذا بالباب يفتح وتجد زوجها أمامها ومعه قريب لها، على الرغم من كل ذلك اتهمته بأبشع التهم .

أقـول مرة أخـري هي التي تهيم به حبًا، وهـي التـي أغلقت الأبواب من حولـه وقالـت له: ها أنا مهيئـة لك تمامًا من كل الجوانـب: جمالا وأمانًا ورغبة، وهـي التـي جرت وراءه حين هـرب منها وقطعت قميصه بالرغم من كل ذلـك عندمـا وجدت الخطر أمامهـا اتهمت على الفـور هذا الحبيب الذي تهيم به بما يقطع رأسه!!!

يالا العجب من هؤلاء النساء!!!

لقد اتهمته بأنه هو الذي أراد اغتصابها.

كل هذا الاتهام البشع لمن؟ لمن تهيم به حباً.

ولذلـك كان هذا الحكم القاطـع الذي جاء بالقرآن في نفس القصة عن كيد النساء (إن كيدكن عظيم).

ترى إن كان هذا وصف القرآن لكيد النساء، فماذا يمكن أن يكون قد وصف القرآن كيد الشيطان حتي يمكن أن نقارن بين الكيدين؟

وصفه بالتالي:» إن كيد الشيطان كان ضعيفًا»

يا سبحان اللّٰه.

ومع كل هذا الذي حدث هل سكتت زليخا عند ذلك.

لا

لقد كان حكمها باتًا ونهائيًا.

على من؟

على من شغفها حبا

وما هو هذا الحكم؟

هو: « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكنن من الصاغرين»

ورغم كل هذا هناك من السذج الذين يتساءلون:

كيف تحب امرأة رجلاً وتعمل على أذيته؟

خذوا هذه القصة العجيبة الأخري

كانت سـالومي ابنة أخت ملك اليهود أيام سيدنا يحيي عليه السلام، وكان هذا الملك يعشقها عشقًا محرمًا ويحاول إرضائها بأي ثمن.

وحاولـت سـالومي التقـرب مـن سـيدنا يحيـي الطاهـر والـذي كان

موقفه الطبيعي من ذلك هو الرفض. هاجت سالومي جميلة الجميلات لكبريائها ، وفى إحدى الليالي أراد الملك أن ترقص له سالومي فوجدت سالومي في ذلك فرصة للانتقام من النبي يحيي عليه السلام. فوافقت الملك على مراده بشرط أن يكون لها في مقابل ذلك طلبًا خاصًا بعد رقصتها ، على الملك تلبيته أيًا كان هو ، فوافق الملك. وبعد أن رقصت رقصتها الأشهر في التاريخ ماذا كان طلبها يا ترى؟

أن يأتي الملك برأس النبي يحيى على طبق.

وفعل الملك.

ما الذى حدث بعد ذلك؟

جن جنون سالومي حزنًا على سيدنا يحيى.

تقتله وتجن حزنًا عليه؟! نعم هذا ما يفعله النساء!!!..

وعلى مثل ذلك قالوا : ومن الحب ما قتل.

ولم تكن قصة الحب المحورية التي عشتها والتي استمرت لأكثر من عشرين سنة تحمل شيئًا من ذلك. فالمسألة كانت أعقد كثيرًا من هذا ، والعجز الفاصل بين الطرفين والهدف السامي من وراء القصة كانا يقصيان تمامًا مثل تلك الأفكار.

ولكن العجيب أن هذا ما تعرضت له عدة مرات من بعد أن تجاوزت صراعى الخاص عام السابع والتسعين.

وقد حدث ذلك بالذات بعد أن بلغت قمة شهرتي في أواسط الألفينات.

فكوني شهيرًا (طبعًا بشكل نسبي) ووحيدًا جعلاً منى مطمعًا ومستضعفًا في نفس الوقت، ومن ناحية أخري فإن سعيي المتكرر للزواج من بعض الفتيات والذي قوبل بالرفض من الأمهات بوجه خاص

بسبب ما قالوه عني من كوني: قوي الشخصية (بحسب رؤيتهن) وضعني موضع الشبهة والاتهام وجعل مني صيدًا سهلاً للابتزاز والقيل والقال.

ولم يكن ما تعرضت له من مصائب في هذا السياق يعود سببه لصدي للغريزة وإنما للعاطفة.

فكان من بين من رفضت عاطفتهن من اتهمتنى افتراء وزورًا وبهتانًا بالسعي ورائها والاستماتة في خطب ودها بل وكاد يصل الأمر لدي بعضهن إلى وضعي بين خيارين إما إخضاعي بالاستجابة لعاطفتهن نحوي أو إردائي قتيلاً، نجانا الله من كيد النساء (إن كيدكن عظيمًا).

وبحسب ما مررت به من تجارب فإنه لا يحفظ المرأة من هذا النزق والإسراف القاتل في إرضائها لكبريائها سوي خوف الله فقط، لأن سعي المرأة إلى إرضاء كبريائها الجريح لا يعرف الخوف من أحد، بل ولا يعرف الخوف على أحد حتى نفسها فإن لم تخف الله عند ذلك فلن يوقفها شئ.

هل فهمي لذلك نجاني من مصائبهن؟

أبدًا.

وهذا ما شرحته فى موضع آخر (راجع فصل بعد الأزمة) في الفرق بين القدرة على توقع الأحداث وعلم اليقين بها، والخلاصة أنه مهما كانت لديك القدرة على توقع الأحداث يظل لديك احتمال بعدم حدوثها فتتوانى عن تغيير موقعك لتجنب المصائب الموجهة لك لعظم تكلفة ذلك التغبير ومن ثم يمسك السوء. وفي النهاية فإن قدر الله هو قدر الله خيرًا كان أم شرًا لن يفلت منه أحد.

وكان من أكبر المصائب التي ابتليت بها من هؤلاء تلك التي أتتني

من سـيدة كنت قد تـرددت في التقدم لخطبة قريبة لهـا ، ويبدو أن هذه الأخيـرة قد ملأت رأس تلك السـيدة بالحديث عني وكان ذلك مصاحبًا لأكثـر فتـرات ظهـوري في الفضائيـات ، فظلـت تحوم حولـي وتطارني عاطفيًـا لأكثر من أثنى عشـرة سـنة إلـى درجة أنني تركـت الاماكن التي كنت أتواجد فيها لاكثر من أربع سـنوات اتقاء للمصائب التي قد تسببها لي هذه السيدة .

وعندمـا عـدت بعد اعتقادي انتهاء الموضوع عاد الأمر إلى ما هو عليه وأكثر وعندما تركت المكان مرة أخرى ظلت تتابعني وتحوم حولي في أي مـكان أذهـب إليه إلى درجة حضورها اليومـي أحد المحال التجارية لأحـد أصدقائي ـ والذي أنا أحد شـركائه فيـه ـ بزعم أنها تبحث عن سلع معينة يحتاج البحث عنها تواجدها في المكان لأوقات طويلة. وكنا مندهشين كيف تتواجد يوميًا في هذا المكان الذي أتواجد فيه والذي أنا أحد أصحابه بعد ان ادعت علي أنني أطاردها قبل ذلك بعامين من أين يصل هؤلاء النساء لتلك الجرأة؟!!!

ولذلك كنا نتوقع أنها سـتأتي لنا بمصيبة في النهاية. وعندما تركت التواجـد فـي هذا المـكان أيضًا وذهبت إلى أماكـن أخرى حدث نفس الشـيء أيضا ، حتى علمت أنني سـأتزوج من إحدى السيدات فادعت علي إنني أنا الذي أطاردها وحشدت بعض السفهاء للاعتداء عليَ.

إن كبرياء المرأة وكيدها لا يقف أمامهما إلا اللّٰه.

ونظرًا لحساسـية مثل هذه الأحـداث فقد ذكرتها على التعميم ولعلي أتعرض لها بالشـروح والتفاصيل في أعمال أخرى كعمل روائي يستخدم صيغة المجهول لكل أبطاله.

مع الزعيم
قبل الأزمة

ـ يا بني أنا سعيد إني أتعرفت عليك.

فوقفت مذهولاً ألاحق يده الممدودة لي قائلاً:

ـ شكرًا جدًا

كانت المرة الأولي التي أقابل فيها شخصية بهذا الوزن وهذه المكانة ثم كانت المفاجأة أن ألقى منها هذا التقدير الكبير والحفاوة البالغة.

كنت حينذاك في الخامسة والعشرين من العمر وقد نشرت قدرًا كبيرًا من المقالات في عدد من الصحف والمجلات المحترمة وبمساحات كبيرة. ولكن بمتابعتي للواقع الثقافي حينذاك رصدت أنه توجد صفحة لنشر الأفكار في هذه الجريدة ـ والتي كانت رائجة للغاية في ذاك الوقت لدرجة تجاوزها انتشار الصحف القومية نفسها، بعد ذلك بسنوات قلائل ـ يكتب فيها أشهر كتاب الفكر في العالم العربي والإسلاميين منهم علي وجه خاص في ذلك الوقت ويتابعها الناس باهتمام شديد.

وكان النشر لي في تلك الصفحة بمثابة إعلان ببدأ ميلادي كمفكر، وكان أملي أن يحدث ذلك بعد جهد جهيد لا أن أتلقى هذا التقدير والحفاوة من هذه الشخصية بتلك السرعة واللذين لا يتمثلان فقط فيما حدث في لقائه معي ولكن في نشره للمقالة التي تقدمت له بها في لقائي معه يوم الخميس في تلك الصفحة في العدد الجديد في الثلاثاء التالي مباشرة وهذا أمر صعب تكنيكيًا في الجرائد الأسبوعية التي تكون الصفحات الثابتة فيها كصفحات الفكر قد تم تحديدها

من أول يوم في الأسـبوع أو حتى أثناء إعداد الأعداد السابقة، ناهيك عن تقديمـه مقالي علي مقالات كبار الكتاب الذين يتكالبون علي النشـر في تلك الصفحة.

أمـا الشـخصية التـي نحن بصددها فهي شـخصية مفكـر اقتصادي وزعيم سياسـي شهير كانت له مكانته الكبيرة لدى التيار الماركسـي وهو في تلك اللحظة في مرحلة تحول إلي التوجه الإسلامي، ورأت القيادة التاريخية لواحد من أكبر أحزاب المعارضة أنه من المناسـب أن يكون هو علي رئاسة تحرير جريدة الحزب في تلك المرحلة التي يتم فيها تحول الحزب نفسه من الاشتراكية إلي الإسلام.

تلقائيًا أدى هذا التقدير والحفاوة واستمرار النشر وتعدد اللقاءات إلي نشـوء علاقة مودة بيننا، بل يمكن القول إنها آلت إلي ترابط حميم بيننا حتـى غـدا مجرد وجـودي بالجريدة مؤذنًـا لي بالدخول إلـي مكتبه.. بل واسـتمرار وجودي بالمكتـب وهو يمارس عمله. وكان هـذا لافتًا لنظر الصحفيين والكتاب والسياسيين الذين كانوا ينتظرون عند أبواب هذا المكتـب، ويمكـن القـول أن الكثيرين من كبار الكتـاب والزعماء والسياسـيين ـ علي فرض أنهم كذلك ـ الذين نعرفهم الآن في الداخل والخارج كانوا يقفون علي أبواب هذا الرجل، إن لم يكن في ذلك الوقت تحديدًا فبعده بسنوات قلائل.

دعاني الرجل لحضور ندواته الثقافية التي يقيمها للنهوض بالمدركات الفكريـة للكوادر الجديـدة بالجريدة والحزب، لا أذكر إن كان هذا اليـوم الذي سـاتحدث عنه هو أول أيام حضـوري لتلك الندوات أو يوم تال لـه، كان الرجـل يجلس علـي المنصة ويصطف أمامـه حوالي ثلاثين أو أربعين شـخصًا أغلبهم من الشـباب، كنت متأخـرًا قليلاً وكان الرجل

يتحـدث عـن كتابه أو كتيبه الـذي أنتجه حديثًا والذي تـم توزيعه علي الحاضريـن وأوعـز لأحد الأشـخاص بمنحى إحـدى النسـخ عندما رآني أتهيئ للجلوس.

كان الكتيـب يحـاول أن يبلـور رؤيـة فكريـة مختصـرة لمواجهـة التحديـات التي يواجهها العالـم العربي والإسـلامي المعاصر ويحاول أن يؤسس ذلك إسلاميًا. وبينما هو يتحدث كنت اطلع سريعًا علي المقولات الأساسـية للكتيـب، لـم يمض أكثـر من ثلث سـاعة حتـى رفعت يدي معترضًا علي بعض النقاط الهامة التي جاءت في !

كان تصرفًا فظًا وفجًا ومسـتفزًا وخارج عن حدود الآداب منى، لقد كان في ذلك ميل للاسـتعراض علي حسـاب الآخرين ومن يكون هؤلاء الآخرين؟ الرجل الذي أحسـن إلي غاية الإحسـان، والقـارئ الذي يفاجأ أنني أدين نفسي هنا أقول له: إن رغبتي في تحليل ما مررت به من تجارب معقـدة إلـي الآخرين قـد تلهيني عن ذكـر ما يصدر عنى مـن مثالب في المواقف المختلفة التي أمر بها أثناءها كما أن ما يعترى ذلك من تكرار أو اسـتطالة أو تسـليط منفر للضوء علي النفس أمر لا يألفه فن الحكي عندنـا علي الأقل ولكن ذلك لا يعنى التسـاهل الأخلاقي في عدم ذكر الحاكـي ما شـاب تصرفاته من خلل ومثالب خصوصًـا وهو يركز علي التحليل العميق لتصرفات الآخرين وما يحتمه ذلك من ذكـر الكثير من أخطائهم ومثالبهم.

ولاشـك أن هناك الكثير من الخلل الـذي كان يحدث في تصرفاتي خصوصًـا فـي ظل الظـروف الطاحنـة التي كنـت أمر بهـا والطموحات الضخمة التي كنت أتطلع لتحقيقها علي الرغم من تلك الظروف ولكنى أرجـو مـن الله الرحمة والغفـران عما صدر منى من اسـتطالة علي الخلق

وسـوء أدب في تلـك اللحظة والذي ذكرني بما كنـت أفعله من قبل في سنوات الإعدادية ـ والذي اعتبره من أكبر ذنوبي ـ حيث كنت أتعمد الاسـتهزاء بالمدرسـين وإضحـاك الطلبـة عليهم وأنا أغرر بهـم أثناء حل المسـائل فأقول لهم أن الحل يكون يمينًا ثم شـمالاً وهكذا استعراضًا لتفوقـي عليهـم أمام هـؤلاء الطلبة وفي هذا شـر عظيم يجمـع بين كبر النفـس وتعمد الإقلال من الآخرين، نطلب من الله الرحمة والغفران علي هذا الإثم الكبير.

قال لي الرجل وهو يحاول أن يخفي إحراجه بابتسامة رقيقة:

ـ هلا قرأت الكتاب أولاً.

فقلت بلهجة صارمة وأكثر فجاجة مما قلته سابقًا.

لقد قرأته بوجه عام في هذه الثلث ساعة ولي ثلاث نقاط أريد أن أعلق عليها.

أعطاني الرجل الكلمة وشَرحت ما أريد قوله وناقشني وسط اندهاش الحاضرين وبعد حوالي النصف سـاعة إذا بطارق يسـتدعى الرجل لبرهة من الوقت وإذا به يفاجئ الجميع بما في ذلك أنا نفسى وهو يقول:

ـ تعالي هنا أجلس مكاني حتى أرجع

هـذا ما حدث بالضبط ولكن بعد سـنوات طويلة ممـا حدث في هذه النـدوة تحديدًا سـأل أحـد المقربين إليه عما كان مـن تقدير الرجل لي فقال:

ـ كان يقـول لنا عندما أترككم فإن هذا الشـاب هو الذي يجلس مكانى.

ولا أدرى هل كان يقصد بذلك فحوى ما حدث في هذه الندوة؟ أم أن

الرجـل قـال لهم ذلك بالفعل في أثناء عـدم وجودى.منذ تلك اللحظة أبدى لـي أغلـب تلاميذ الرجـل الكثير مـن التقدير والود وحتـى بعدما أنقلب عليـه أغلبهـم ـ أو أنقلب هـو عليهم ـ فقد اسـتمر هذا الـود والتقدير، كان جم هؤلاء مثقفون متمسـكين بالإسـلام دون دراية معرفية عميقة ويميلـون عاطفيًـا لبقايا الأحلام الاشـتراكية التي بشـرت بهـا المرحلة الناصريـة وتـداس بالأقدام فـي ذلك الوقـت ويكرهون معًـا التنظيمات الأيديولوجيـة الملحـدة والجماعات الإسـلامية المنغلقة، كانـوا بمثابة بـذور عاطفيـة تبحث عن مشـروع تنبت داخله وتطـرح ثمارها فيه وكان للرجـل معاركـه الطاحنـة مع التيار اليسـاري الـذي كان مـا زال يمثل غالبية الحزب، وكان قادة هذا التيار يتوجسون من الرجل الذي يريد أن يدفع بالحزب نحو الاتجاه الإسـلامي كاملاً فـي نفس الوقت الذي يعلم فيه من يعرفون تاريخ تجربته في التيار الماركسي أنه عاد منها بخبرات مؤامرتية مكثفة فكيف يقبلون الإبقاء عليه ومن ثم فقد خيروا الزعامة التاريخيـة للحـزب فـي أحد مؤتمراته بيـن إقالة صديقنـا المفكر الذي أتحدث عنه وبين اسـتقالتهم الجماعية، فـإذا بالزعيم التاريخي يرد علي تهديدهم بتخييرهم بين الإبقاء علي الرجل وبين اسـتقالته هو شـخصيًا، فرضخ الجميع.

فـي تلك الأثنـاء وبينما كنت سـائرًا فـي أروقة الجريـدة ناداني أحد تلاميذ الأستاذ قائلاً:

ـ أستاذ محمد.. الأستاذ محمد أبو نواية عايز يكلمك.

رأيت أمامي رجلاً في حلقة متوسطة من العمر بيننا أي بين عمرنا (أنا وتلاميذ الأسـتاذ) وبين عمر الأستاذ وأخبرني ذلك التلميذ أن الأستاذ أبو نواية هو أحد الصحفيين القدامى بالجريدة، وإذا ببو نواية يقول لي:

ـ يا أستاذ إن سمتك الذي أراه يقول إنك شاب ذكى وطيب ولكن يبدو أنك سليم النية زيادة عن اللزوم ولذلك أريدك أن تعلم أن هذا الزعيم الذي قد تراه قيمة عليا وشخصًا مثاليًا هو شخص أفاق (الصحيح أفاك) وكذاب ومَخادع ولا تثق فيه وفيما يقوله أبدًا. وهو يعلم جيدًا أنني أقول عنه ذلك.

كانت مفاجأة بالنسبة لي أن يقول شخص بالجريدة ذلك عن الزعيم وأن يكون ذلك علي مرآى ومسمع من أحد تلاميذه الذي أبدى الموافقة الضمنية علي ما قيل.

قلت كانت مفاجأة ولكنى لم أصفها بالصادمة فقد كانت صراعاتي في حياتي الخاصة كفيلة بتهيأتي علي التعود علي قبول مثل هذه المفاجآت بغير انفعال شديد ، كما أنني أدركت أن أبو نواية يعانى من التجني علي موقعه في الجريدة منذ عدة سنوات ومن ثم فقد تكون معاناته تلك هي دافعه للإتيان بمثل هذا الحديث ولكن ما عجبت له حقًا هو تلك الموافقة الضمنية لتلميذ الزعيم علي ما قيل ليس هذا فقط بل لما علمته بعد ذلك ورأيته بعيني أن أبو نواية كان بمثابة نواة يتجمع حولها الكثيرون من تلاميذ الزعيم ومن ناحية أخرى فقد كان هدفي الأساسي من الجريدة هو استمرار نشر مقالاتي وكانت انشغالاتي بصراعاتي الاجتماعية الخاصة كفيلة بإلهائي عما يحدث في الجريدة والحزب من صراعات.

لم تمض مدة طويلة حتى استطاع الزعيم (وليسمح لي القارئ أن أسميه بداية من تلك اللحظة بالأستاذ كامل أمين). أن يقصى جميع القيادات التي طالبت الزعامة التاريخية بإقصائه عن عضوية اللجنة التنفيذية في أول انتخابات حزبية لاحقة وكان من بينهم عدد كبير من أعضاء مجلس

الشـعب تم طردهـم جميعًا خارج الحزب بما في ذلـك نائب رئيس الحزب نفسه لتتكشف بذلك أمام الذين لا يعرفون تاريخه الماركسي القدرات التآمريـة الرهيبة للرجل الذي اسـتطاع في نفس الوقت أن يشـغل منصب الأمين العام للحزب تاركًا منصب رئيس تحرير الجريدة لقريبه المقرب.

ومـا لا يعرفـه القـراء الذين ليـس لديهم إطـلاع علي شـئون الأحزاب السياسـية إن منصـب الأميـن العام هـو المنصب الأكثـر فاعلية في أي حزب مقارنة بمنصب رئيس الحزب، فهو الشـخص الذي يمسـك بخيوط اللعبـة الداخلية للحزب ويتحكم فيها تحكمًا مباشـرًا بينما ينصب دور رئيس الحزب علي التعامل أكثر مع الخارج.خصوصًا إذا كانت الزعامة التاريخية التي تقف علي قمة الحزب قد طعنت في السن إلي الدرجة التي تعيقها عن القيام بتلك المهمة حتى لو أرادت ذلك وكان موافقًا لما يقرره دستور الحزب.

أرادت مما سبق أن أذكر خطوات الزعيم متتابعة حتى تقلده لمنصب الأميـن العام للحزب حتى لا يضيع تسلسـلها فـي غمرة ذكري للأحداث التفصيليـة لعلاقتـي بـه وإذا إننـا نعود إلي ذلـك فأذكر أنـه عند قيامي بالعمـل علـي نشـر كتابـي الأول (الإسـلام النفعي) عـام تسـع وثمانون كانت مسـاعدته لي تنحسـر في نصيحتي بالعمل علي مراجعة الكتاب بقصد تجويده ومحاولة اختصار بعض صفحات حتى يسهل قبوله لدى دار النشر التي تم تقديمه إليها، ومن ناحية أخرى قام بإرسال خطاب تزكية لـه لدى تلـك الدار التي كانت تربطـه بالقائمين عليها صـلات قوية وإن كانت صلات حديثة العهد .

وواكب صدور الكتاب اقتراحه علي أن أختص بكتابة حوالي ثلث صفحة كاملة بالجريدة (وكانت هذه الصفحة هي صفحة الفكر التي

تحدثت عنها سـابقًا) حول الإصدارات الحديثة للكتب، فاشترطت عليه أن يعـود إلي وحدي الحكم النهائي فـي تقديم الكتب التي يتم عرضها فيها وأن يكون عرضي لها عرضًا نقديًا، وألا يتعارض ذلك مع استمراري لنشر مقالاتي بالجريدة، فوافق علي كل ما سبق دون تردد.

استـدعى عملـي هذا تواجـدًا لي أكبـر بالجريدة والالتصـاق أكثر بمطبخهـا وورش الإعـداد لصفحاتهـا والاقتـراب الطويـل المتكرر من شـخص رئيس التحرير الأسـتاذ كامل حسين، حتى سـاد الانطباع لدى أغلـب العامليـن بالجريدة أو المرتاديـن لها أنني من أكثر الشـخصيات المقربة للأسـتاذ الزعيم حتى أن بعض الصحفيين الشـباب الذين يعملون في الجريدة ولم يتم تعيينهم بها سـعوا إلي حتى أتوسـط لهم عنده، فقال لي عندما حدثته في ذلك:

ـ المشـكلة أن تعيينهـم بالجريـدة يعنـى تعيينهـم بالنقابـة وهو أمر يتطلب دفع مبالغ كبيـرة للتأمينات الاجتماعية ونحن إمكانياتنا محدودة ولا نستطيع القيام بهذا العبء في هذا الوقت علي الأقل.

فقلت للناس هذه الإجابة لكن البعض ردد بعد ذلك أنهم علي استعداد لدفـع تلـك التأمينـات، ولم أسـتطع أن أعرف مـا وجه الحقيقـة في هذا الموضوع وطال الأمر.

في أثناء عرضي النقدي للكتب وقع في يدي كتاب لأسـتاذ فلسـفة ذي توجـه إسـلامي (ليكن اسـمه محمد عبد الرحيم) قـد علمت إنه قد تـم انضمامه مؤخرًا للحزب فكان سـبب حماسـي لهـذا الكتاب الذي كتبت عنه هو فرحي بالتوجه الإسـلامي لأسـتاذ الفلسـفة هذا وهو أمر نـادر بالنسـبة لأسـاتذة الفلسـفة بوجه عام، وحـدث مـرة أن صالح ذلك

الشاب الصحافي الذي عرفني علي أبى نواية أن سألني ـ وأنا أقف بجوار الأستاذ كامل أمين وهو يكتب مقاله الأسبوعي في غرفة الإعداد الأخير لإصدار الجريدة التالي ـ هذا السؤال.

ـ ما رأيك في الدكتور محمد عبد الرحيم.

ـ عقل كبير طبعًا

ـ علي هذا أيهما أقوى هو أم الأستاذ؟

كان صالح كما يقولون عقله فالتًا ، وقد كان سؤاله هذا ونحن بجوار الأستاذ دليلاً قويًا علي هذا الانفلات ولكن يبدو أن الظروف التي كنت أمر بها في صراعاتي الخاصة التي حدثتكم عنها قد أدت إلي أن يكون عقلي في بعض اللحظات في تلك المرحلة فالتًا أيضًا فرغم الذي أصابني من الحرج بسبب سؤاله هذا فقد أجبته علي الفور:

ـ طبعًا في السياسة والاقتصاد الأستاذ يفوقه أما في الفلسفة فهو يفوق الأستاذ.

حتى حكمي هذا كان حكمًا أكاديميًا أكثر منه واقعيًا ، المهم أن ما علمته بعد ذلك بعامين أن الرجل كان يتم إغراء سفهاء الحزب لمهاجمته بقسوة والسخرية منه عندما كان يلقى بكلمته في ندوات الحزب مما أدى إلي طهقانه والإطاحة به خارج الحزب.

ورغم مشاغل الزعيم المكثفة ما بين رئاسة التحرير وصراعاته في الحزب وخارجه وعلاقته الشائكة مع التيار إياه الذي يقود تحالف الحزب معه ، كان يصر إصرارًا شديدًا علي متابعة أحداث صراعي العاطفي الوجودي دون أن يتدخل في الأمر ، لدرجة أنني سألته مرة ونحن نغادر مبنى الحزب والجريدة.

ـ إنني مندهش من شدة اهتمامك بمتابعة هذا الموضوع.

فأجابني بلهجة قاطعة:

ـ ألا تعلم أن حكايتك هذه يمكن أن تكتب قصة تدخل التاريخ.

ـ إذ آن لقصتي أن تكتب في يوم من الأيام فأنا أحتاج لديستويفسكي لكي يكتبها.

بدأ يظهر للزعيم في تلك الفترة (فترة ما قبل صعوده لمنصب الأمين العام للحزب) تلاميذ جدد وبالأحرى أتباع جدد كانت سيماهم الأساسية انعدام الثقافة تقريبًا، الامتثال للانقياد التام، أن يكونوا مطلقى اللحية، أن يكونوا حاصلين علي درجة الدكتوراه في العلوم التطبيقية أى في غير العلوم الإنسانية، حتى تبعد عنهم شبهة عمق التفكير أو الثقافة، وبالطبع ليس شرطًا أن تجتمع هذه السمات الأربعة في كل شخص من هؤلاء التلاميذ ولكن يكفي أن تتوفر فيه بعض هذه السمات علي أن يكون من بينها تلك السمة الأساسية: الامتثال للانقياد التام.

وظهر هؤلاء الأشخاص مرة واحدة: دكتور جامعي به كل السمات السابقة باستثناء إطلاق اللحية ولاه أمانة الشباب ومعتقل سابق شاب يحمل كل تلك السمات باستثناء الدكتوراه ولاه أمين الشباب المساعد وآخرون يحملون سمتين أو ثلاثة ولاهم مناصب أقل، أما من كانت تتوافر فيه هذه السمات جميعًا بالإضافة إلي سمة أخرى هامة أنه ابن عائلة كبيرة نسبيًا فقد ولاه منصبًا هامًا جدًا هو أمين عام مساعد الحزب هذا الشخص وليكن اسمه حمدى زعتر فقد غدا رجله المقرب وأداته التنفيذية في القيام نيابة عنه بما يريد في كافة الشئون دون تفكير، وهناك شخص آخر على كونه لا تتوفر فيه أي من تلك السمات تقريبًا

ولكـن لديه سـمة خطيرة للغايـة وهي القدرة على فعـل أي تصرف مهما كان اتسـامه بالكـذب أو الغـدر أو النفاق أو الوضاعة أو تلك السـمات جميعًا ، وهذا الشـخص وليكن اسـمه حامد العروسـي برز له دور فاعلٌ فـي الجريدة أقرب إلى المدير التنفيذي ، وقد سـاعدته ثقافته المتسـعة نسـبيًا مقارنة بأغلـب الصحفيين الآخرين من التدخل في أقسـام عديدة من الجريدة.

والتحق بالجريدة أيضًا عدد من الصحفيين المنتمين للتيار إياه وشـغل كبيرهـم منصب مديـر التحرير ولكـي تكتمل التوليفـة العجيبة جاء الزعيم بأحد أصدقائه من الماركسـيين القدامى وأسـند إليه الإشراف علـى صفحة المقـالات الفكرية وكان رجلاً غامضًـا صامتًا لم تبدو له أية هوية .

أمـا الصحفيين القدامى من أمثال محمد أبـو نواية فقد تمت الإطاحة بهـم تمامًـا ، واختفـى من المشـهد أيضًـا تلاميذ الأسـتاذ السـابقون من الصحفيين الشـباب ومن العجيب أن الاسـتثناء الوحيد منهم الذي ظل مع الزعيم حتى يوم رحيله هو صالح عشـري أكثرهم شـغبًا وانفلاتًا والذي أشرت إليه فيما سبق.

واتضحت من ممارسـات هؤلاء جميعًا أن الرجل ضمن من خلال وضع هـؤلاء المقربيـن في هذه الوظائـف حوله أن تتـم إدارة كل الأمور كما يريـد تمامًـا. فيكون قد نجـح بذلك في تخفيف العبء عـن كاهله بعد أن كان يضـع أنفـه فـي كل صغيرة وكبيـرة . والأهم من ذلـك هو أنه يكـون قد نجح بهذه الطريقة في دفع المسـئولية عن نفسـه فيما يحدث في مثل هذه الشئون من مؤامرات وخدع وأذى وتجني على حقوق وتغاضى عن حقوق ، وإلقاء تهم وتشـنيعات وتربيطات وتحالفات ونقض لتحالفات

وربما ما هو أكثر من ذلك، على أساس أن كل قسم في الجريدة ومثل ذلك في الحزب يقف عليه شخص مسؤول عما يفعل مع أنه في الحقيقة قد تم اختيار كل هؤلاء على أساس أنهم مجرد أدوات تنفيذية لفعل ما يريد الزعيم. حتى مدير التحرير المنتمي للتيار إياه فقد كان ـ بعكس العادة ـ رجلاً طيبًا جدًا تم وجوده المفاجئ ضمن تفاهمات معينة في التحالف القائم. وكان الرجل يعرف حدوده جيدًا في ظل السيطرة المطلقة للزعيم خصوصًا أنه لم يكن يتمتع بأكثر من الثقافة العادية الطبيعية لتيار، ومع ذلك لم يدم الأمر به لأكثر من عامين وتم الإطاحة به تمامًا خارج الجريدة ضمن التعديلات، التي قام بها القريب المقرب حين حل مكان الزعيم في منصب رئيس التحرير.

في هذه الأثناء انصرف الزعيم بكل طاقته للعمل السياسي والمقالات السياسية، فلم يعد يهتم بتنشئة الكوادر وتنميتها الفكرية، ولم يكتب كتابًا فكريًا بعد ذلك إلى أن وافته المنية. ولم تتخذ الجوانب الفكرية في مقالاته المطولة إلا شكلاً محدودًا واستثنائيًا. ولكنه برع في مقالاته السياسية التي امتدت إلى صفحة كاملة من الجريدة وربما ألحق مساحة إضافية إليها في صفحة أخرى.

وكانت تنطوي هذه المقالات على معلومات مكثفة وتحليلات عميقة وحماس إسلامي يجذب الانتباه حتى غدا مقاله الأسبوعي في التسعينات هو أهم مقال سياسي في مصر، تنفعل العقول به ويدور حوله الجدال. وقد رأيت بأم عيني عميدة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية المعاصرة ـ لبعض سنوات تلك الفترة ـ تقول له عند تعرفها عليه أثناء حضوره لإحدى ندوات الكلية:

كلنا نقرأ مقالات حضرتك كلمة .. كلمة بمتعة فائقة ولا نتركها

حتى تنتهى.

ولكن كان يعيبه أحيان في كل ذلك المبالغة في الرجاء التي تدفع بالتحليل إلى التأويل وتخلط الحلم بالواقع، والمبالغة في التأييد التي تتعدى مناصرة الجماهير إلى التغرير بهم وتعميتهم عما يحدث بالفعل.

بعد الغزو العراقى للكويت وهزيمة صدام وانسحابه منها ومحاصرة الأمريكيين له من داخل الأراضي العراقية ذاتها، تأسفت بالفعل لما عناه ذلك من سقوط الكثير من تحليلات وتأويلات وتبريرات الزعيم (وليس للانسحاب نفسه) وكنت مسافرًا أو متغيبًا خلال الأشهر الثلاث التي وقعت بها الأحداث تقريبًا وعندما لاقيته بعدها قلت له بصدق وإخلاص.

ـ إننى أواسيك لما أحدثته هزيمة صدام من صدمة لك.

ـ فأجاب بثقة ظاهرة:

ـ وعلام تواسيني؟ الرجل لم يهزم، وإنما انسحب بجيشه كاملاً تحت سحب الدخان الكثيف للبترول الذي أحرقه.

فقلت في نفسى، الرجل يكابر في الاعتراف بالخطأ حتى أمام المقربين إليه.وتساءلت: إذا لم تكن هذه الخسائر العظمى دافعة لنا على الاعتراف بالأخطاء فما هو حجم الخسائر إذن التي من الممكن أن تضطرنا لذلك.

ثم أضاف الرجل إلى كلامه:

ـ من كان يمكنه تصور أن تشترك أغلب الجيوش العربية في محاربة الجيش العراقي أو يتصور أن يفتح مبارك قناة السويس لعبور القوات الأمريكية والغربية لضرب الجيش العراقي.

بالنسبة لى كان كل ذلك متصورًا جدًا ليس بناءً على معلوماتي

السياسـية السـاذجة فـي هـذا الوقت ولكن بناء على دراسـتي للفلسـفة البراجماتية، وكيف كانت تسيطر على عقول زعماء العالم بعد سقوط الاتحاد السـوفيتي فـي تلك السـنوات تحديدًا. وكان يسـهِّل ذلك كون الغزو نفسه فاقد للشرعية.

فـي أوائل عام ١٩٩٣ كنت قد أصدرت كتابَـي الرابع والخامس معًا «كـن قويا بالإيمان »، و«الصراع حـول المادة وجوهر الحياة»، الكتاب الأخير شبه مفقود الآن وهو كتاب صغير لم يكد يلقى اهتمامًا من أحد فـي ظل صدوره مع الكتاب الأول .وكان الاسـتثناء الغريب من ذلك هو اهتمام بعض المدارس العلمية الاندونيسـية به، فقد استرعى نظر إحدى دور النشـر القائمـة على توزيع الكتـاب توافد طلبة العلم الاندونيسـيين بالأزهر على شرائه وعندما أطلعونى على ما يحدث لم تمر سوى لحظات قليلة حتى رأيت ذلك بعينى وعندما تعرف هؤلاء الطلبة على فوجئوا بصغر سـنى حينذاك (أنت البروفيسور المؤلف! أنت البرفيسور!) وأخبروني أن الكتاب تم ترجمته في إحدى مدارسهم العلمية.

أما الكتاب ذو الأثر الأكثر أهمية فهو (كن قويا بالإيمان) وللكتاب عنوان فرعي هو (منهج فكري في بناء الشخصية القوية) وللكتاب قصة عجيبة لها انعكاسها على موضوعه وأسلوبه فهو عبارة عن رسالة طويلة جدًا (قد تكون أكبر رسـالة في التاريخ) اتحدث فيها إلى أهم شـخص فـي حياتي وأحاول اسـتنهضه من الظروف المريعـة التي يعيش فيها على أسـس إيمانيـة إسـلامية ولكنني كنت أضع في ذهني فـي نفس الوقت أني اتحدث أيضًا إلى كل إنسان آخر وأعمل على أن تنطوي الرسالة على هذا الشـمول، وهو أن اسـتنهض هذا الشـخص الخاص بى وأي شـخص آخر بوجه عام وبعد أن بلغني ثناء مفكرين كبار كالدكتور المسيرى

نفسه ـ كما أشرت إلى ذلك في موضع آخر من الكتاب ـ بل وثناء الزعيم نفسه عليه وإخباري أن بعض الجهات اعتمدته كمرجع لها، بل وأن التيار إياه نفسه اهتم به وعمل على توزيعه في مكتباته واتتني فكرة قد تكون على درجة كبيرة من الخيبة في ذلك الوقت، وهى لماذا لا اقترح أن يكون هذا الكتاب مرجعًا فكريا لتربية كوادر الحزب خصوصًا أن الحزب في ذلك الوقت يكاد يكون خاليًا تمامًا من المرجعيات الفكرية وهو يعبر مرحلة انتقال من حزب اشتراكي إلى حزب إسلامي كما يصرح قادته. ونظرًا لجهلي السياسي بمراتب القادة السياسيين للأحزاب في ذلك الوقت فقد توجهت بالاقتراح إلى أمين التنظيم بالحزب على أساس اعتقادي أنه يمثل أعلى سلطة في الحزب بعد زعيمه التاريخي فإذا بالرجل لا يجد كلامًا يستطيع أن يرد به علي، ولإغرائه بالموافقة على اقتراحي أبلغته أن الأستاذ كامل أمين (الزعيم) أعجب بالكتاب فإذا بالرجل يجد في كلامي هذا قارب النجاة للخروج من الموقف حيث قال لي في الحال:

ـ إذا كان الأستاذ كامل أمين أعجب بالكتاب فاقترح عليه الموضوع، فهو الذي يملك القرار في مثل هذا الشأن.

علمت بعد ذلك أن منصب الأمين العام هو المنصب الأعلى من منصب أمين التنظيم وبالنسبة لحالتنا هذه فقد كان الأمين العام (الذي هو الزعيم كامل أمين) هو كل شئ في الحزب، وعلمت أيضًا أن القائم بمنصب أمين التنظيم هو الآخر ليس سوى أداة للزعيم قد وضعها في هذا المنصب.

توجهت للزعيم وعرضت عليه الموضوع فبدا له مفاجئًا وظهر عليه شئ من الارتباك ولم يجب بشئ علي سوى التسويف في الأمر.

والخيبة التي وصفت بها اقتراحي هذا تعود إلى أنه لو كنت أقّدر هذا الكتاب حق قدره ما كنت قد اقترحت أن يكون مرجعًا لأحد الأحزاب لأن ذلك قد يعطيه بعدًا تنظيميًا ينفر الآخرين منه كما نصحنى بذلك بعض المقربين كما أن الحزب لم يكن به من الكوادر ذات الشأن منذ أن تولى الزعيم قيادته الفعلية وحتى وفاته.

بعد مضي بضعة أشهر على توليتي إصدار باب عرض الكتب النقدي بالجريدة بدأت ألاحظ انتقاص بضعة أسطر من الباب أو حذف بعض فقراته ولأنني كنت غارقًا تمامًا في صراعي الخاص في ذلك الوقت تحديدًا لم أهتم للأمر كثيرا ، ولم أكن أحصل على مقابل إزاء كتابتي لحوالي ثلث صفحة أسبوعيًا وكان هدفي من قبول قيامى بهذا العمل فتح المجال ـ بحسب الطاقة ـ لحركة جدلية حول الأفكار الكبرى التي تطلق على مستوى العالم الإسلامي وعلى ذلك فقد كتبت مقالات نقدية وتحاورية حول كتب أهم المفكرين في هذا العالم الإسلامي والكتب الفكرية التي تحاول اللحاق بها لكتاب أقل شأنًا كما كان هدفي الخاص من وراء ذلك هو انتشار أفكاري في إطار تلك النقاشات، بجانب ما أصدرته من كتب وما أنشره من مقالات، وبالإضافة إلى موقفي الأخلاقي في التزام الحياد التام فيما يتم تقديمه من كتب والالتزام بقيمة المحتوى دون مجاملة لأحد ، فقد كان من صالحي الشخصي الالتزام بهذا القدر العالي من المستوى الفكري فيما يتم عرضه ومناقشته واقتران اسمي به.

ونظرًا لنجاح الباب فقد توافدت عليه الكتب من كل مكان من مؤلفيها آملين الكتابة عنها عتها وأذكر من بين ذلك أن الأستاذ كامل أمين استدعاني مرة وألقي أمامي كتابًا وقال لى:

ـ أنظر هذا الرجـل (.......) كتب ماذا ، لقد وجع دماغي بتليفوناته ، وانتبه لأنه غالبا ما سيتصل بك.

كان الكتاب يتعلق بالملك فاروق وكان صاحبه أحد أهم الشخصيات المقربة للملك قبل الإطاحة به وكان يدافع عن الملك دفاعًا قويًا خصوصًا من الناحية الأخلاقية ولم أكن في تلك الفترة مطلعًا اطلاعًا تفصيليًا على مرحلة الملك وكنت من بين الأجيال التي رسخت في ذهنها منذ الطفولة الدعاية الناصرية عن فاروق أنه الملك الخائن، الفاجر، الفاسد ، العربيد أما بعض العوام كبار السن فقد كانوا يقولون لنا أن سيارات حرسه الخاص كانت تنطلق لخطف الفتيات التي يغتصبها ، والمشكلة أن الزعيم الأستاذ كامل أمين (الصديق الشخصي لمحمد حسنين هيكل) كان هو في ذاته دون أن يتحدث جزءًا من هذا الموقف السوداوي من الملك كما عبرت عن ذلك ابتسامته الساخرة وهو يلقى بالكتاب أمامى حتى وإن لم يتفق مع تلك التفاصيل، فأنىَّ لي وهذا هو الحال بالنسبة لنفسى وبالنسبة إلى الزعيم (رئيس التحرير) أن أتقبل مجرد النقاش حول كتاب يذكر صاحبه فيه أن الملك كان وطنيًا مخلصًا وأنه لم يشرب الخمر قط، وأنه لم يرتكب الفواحش مع النساء لسبب بسيط هو أنه كان مصاب بالقصور الجنسي وأن الدعاية عن علاقاته الجنسية كانت قد بدأت في ظل حكمه هو نفسه وقد سكت عليها لأنها تمضى في صالحه كجزء من التغطية عما قد يتسرب عن هذا القصور، أما لعب القمار فيعترف به الكاتب تمامًا.

اتصل الرجل بى فعلاً ورددت عليه بشئ من الأدب مراعاة لسنه الكبير وشئ من الاستهتار لما كنت اعتقده حينذاك أن فتح المجال للدفاع عن الملك هو أمر منافي للعقل والأخلاق.

وألـح على الرجل إلحاحًـا صعبًا أن أهتم بالموضـوع ولكنني رفضت رفضًا قاطعًا.

وعندمـا قرأت تاريـخ تلك المرحلـة التاريخية تفصيليًا بعـد ذلك بمدة طويلـة من عدة مصـادر عربية وأجنبية تأكد لـى أن وطنية الملك فاروق وإخلاصـه لمصر مسـألة محسـومة ويكفي في ذلك مـا أكدته الوثائق الأجنبيـة أن الرئيـس إيزنهاور رئيـس الولايات المتحـدة الأمريكية عند خلافـة بلاده لإرث الإمبراطورية البريطانيـة بعد الحرب العالمية الثانية، جـاء إلـى المنطقة وضغط على فاروق لقبول أمريـن لا مناص من قبولهما عنهمـا وهمـا: التنازل عن السـودان وإقامـة علاقة مع الدولـة الصهيونية الناشئة، ورفض الملك رفضًا قاطعًا الأمرين ومن الطبيعي أنه كان يعلم جيدًا حجم ما كان سيخسره ثمنًا لهذا الرفض.

أما ما يتعلق بسلوكه الشخصي فأمر يصعب حسمه ولكنه على الأقل ليس على تلك الصورة العدوانية الشنعاء التي تم ترسيخها في أذهاننا.

وعندما أدركت كل ما سـبق ندمت بشـدة على الطريقة التي عاملت بهـا ذلـك الرجل الذي كان مقربًا من ملك البلاد وأراد أن يدافع عنه بعد مـرور كل تلـك العقـود على زوال عرشـه. وما يتعلق بفاروق لـه ما يماثله فيمـا يتعلـق بعبد النـاصـر كالصورة التـي يحاول البعـض وضعها له من كونه كان مجرد طاغية متهور هـي أيضًا صورة كاريكاتورية لا تماثل الحقيقة فعبد النـاصر رغم أخطائه الصعبة التي لا مجال لمناقشـتها هنا كان منحـازًا للقاعـدة الاجتماعية من الشـعب انحيازا شـبه كامل وقد نهض بهذه القاعدة الاجتماعية نهوضًا لم يفعله غيره.

وتكـرر أن طلـب منى بعض صحافيـي الجريدة أن أعـرض في الباب

مؤلفـات لـكتــاب مقربين منهـم أو من الجريـدة أو من الحــزب ورفضت لتدنــى قيمتهــا أو لاختلافهــا مع الرؤية الإســلامية وكـان مــن بين هؤلاء أسـماء كبيرة، مما آثار حفيظة بعضهم واذكر كيف صرخ في وجهى أحــد المنتميــن للتيار إياه حيــن رفضت عرض كتاب لأحــد المفكرين المرضــي عنهم من هذا التيار وهو يقــول كعادتهم دائمًا مع من يخالفهم من الإسلاميين: ومن أنت حتى ترفض كتاب هذا المفكر؟

فقلـت له: أنت ليس لك علاقة بالفكر فاســأل المختصين بذلك وهم يقولون لك من أنا.

بـل أن الزعيم نفســه قال لى وهو يطلب منــى تناول بعض كتب معارفه: يــا أخي لا توجد أية جريدة في الدنيا إلا وبها بعض المجاملات وكنت أرد علــى مــن يلح علي في هذا الموضـوع قائلاً: يا جماعة أنا لسـت ديكتاتور على هذا الباب، من يريد أن يكتب عن أي كتاب فليتفضل ويضع اســمه عليه، أما اسمى أنا فأنا حر فيه ولن أضعه إلا على الكتاب الذي أقتنع به.

وطلب منى العروسي أن أعرض كتابًا لشخص يهمه فقلت له:

ـ أتركني أطلع عليه أولاً

ـ الكتاب جيد وأنا قرأته.

ـ إذن اتفضل اكتب عنه انت

ـ لا خلاص.

بعـد فتـرة لم يعد البــاب تحذف منه بعض السـطور أو الفقـرات وإنما بدأت تتقلص مساحته أو تنقل من مكانها أو يتم رسمها بطريقة مبتذلة، ســألت من المسـئول عن ذلك، فقيل لي أنه العروسى، فقلت: لماذا يفعل ذلـك وهو الــذي لا ينادينى إلا بالعبقري؟! فقالوا: إنك لا تعرف شـيئًا عن

العروسي.

شكوت للزعيم فاستقام الأمر قليلاً ثم عاد كما كان، ثم شكوت له فتكرر ما حدث وهكذا.

من ناحية أخرى بدأ رفيق الزعيم في المرحلة الماركسية الذي ولاه على صفحة الرأي يرفض مقالاتى، حتى لم يعد ينشر لى مقالاً إلا بالكاد، وكان مبدعا في التماس الحجج عند رفضه لكل مقال ثم يسألنى في كل مرة بهدوء شديد واستفزاز بالغ:

ـ أستاذ محمد. أريد أن أعرف ما هو عملك بالضبط؟

ـ هل حضرتك لم تر كتبي.

ـ رأيتها ولكن أليس لك عملاً آخر.

ـ لا.

وكأنه كان يريد أن يقول لى أبحث لك عن عمل آخر.

في تلك الأثناء نصحني عدد من صحفيي الجريدة أن أطالب الأستاذ الزعيم بتقديم أوراقي للحصول على عضوية النقابة وعندما قلت لهم: ولكنني كاتب ولا أعمل بالصحافة فقالوا:

ـ إن عرض الكتب في التقاليد الصحفية هو أعلى درجات العمل الصحفي. وأنت تقوم بفعل ذلك منذ فترة.

ـ ولكن ما أهمية هذا الموضوع إن كل ما يهمنى هو نشر مقالاتي بالجريدة.

ـ النقابة تعطيك ضمانات اجتماعية كثيرة، ثم أن حصولك على عضوية النقابة سيعينك على تثبيت وضعك بالجريدة ويدعم رغبتك في نشر مقالاتك بها دون أن يتلاعب بها هذا أو ذاك.

اقتنعت بالأمر وحدثت فيه الزعيم فأجابني بأن الظروف المادية للجريدة والحزب لا تسمح بدفع التأمينات الاجتماعية للصحفيين التقليديين بالجريدة فما بالك بوضع استثنائي مثل وضعي، ومع ذلك فقد وعدني بأنه سيكون حريصًا على وضع اسمى ضمن أول قائمة يتم تقديمها للنقابة.

في أوائل عام ٩٤ تقريبًا عندما تولى القريب المقرب رئاسة تحرير الجريدة بدلاً من الزعيم الذي تولى منصب الأمين العام قام بعدة تغييرات في الجريدة كان من بينها إلغاء الباب الذي أشرف عليه وكنوع من الترضية المؤقتة لي وافق علي اقتراحي أن أكتب سبعة مقالات أسبوعية أناقش فيها أفكار أحد المفكرين الإسلاميين الكبار المثيرة للجدل، ثم أكتب ولو مقالة شهرية بعد ذلك وهو الأمر الذي لم يسلم طبعًا.

قد يثور التساؤل لدى القارئ: لماذا كل هذا الإصرار من جهتى علي الكتابة في هذه الجريدة بالذات.

المسألة أن الجرائد التي كان مسموحًا بها حينذاك كان كل منها يتبع اتجاه فكري أو سياسي محددولا تسمح للنشر لأصحاب الاتجاهات الأخرى وحتى لو كانت هناك بعض الجرائد الأخرى التي تسمح للنشر لأصحاب الاتجاه الإسلامي فلم تكن هناك مقارنة من حيث قوة انتشارها وبين قوة انتشار هذه الجريدة التي فاقت انتشار الجرائد الرسمية نفسها في بعض سنوات التسعينيات. كل ذلك حتى فتحت جريدة الحياة اللندنية أبوابها للإسلاميين بقوة منذ أواسط التسعينيات وحتى أوائل الألفينات.

رغم العلاقة التي توترت بيننا بسبب تلك المعاكسات المستمرة التي تحدث لي بالجريدة ــ وهو الأمر الذي لا يحتاج تفكيرًا كثيرًا لإدراك

أن الأسـتاذ كامل أميـن ذاته يقف وراءاها ـ فلم أسـعد بتوليته لمنصب الأميـن العـام وتفرغـه للعمل السياسـي، فقد كنت أرى فـي ذلك ضررًا لمصلحته كمفكر، صحيح أن الأسـتاذ أمين لم ينتج شـيئًا متخصصًا فـي الفكر الإسـلامي، ولكـن ما كتبه فـي المرحلة الماركسـية أو فـي عقلانيـة التوجه نحو الإسـلام فـي مرحلته الانتقالية، تكشـف عن إمكاناتـه الكبيـرة كمفكر خصوصًا في الناحيـة الاقتصادية وكل ذلك سيتم قتله تدريجيًا بالتفرغ السياسـي.

قلت له مرة بإخلاص:

ـ إننـي أسـف لتفرغـك السياسـي هـذا، فذلك سـوف يضـر عملك الفكـرى تمامًـا، إننا لا نملك مشـروعًا فكريًـا ناضجًا في هذه المرحلة، فما قيمة المكاسب السياسية إذا لم نتقدم في المشروع الفكري، وحتى لو اسـتطعنا الوصول إلي السـلطة فما قيمة ذلك إذا لـم يكـن هناك مشـروعًا فكريًا نعمل علي تطبيقـه، التاريخ يقـول أن التجـارب الناجحة هـي التجارب التي قامت علي مشـروع فكـرى عميق وحتى ماركس نفسـه يقول ليـس هناك عمل ثوري ناجح قبل أن تكون هناك نظرية ثورية صحيحة.

ـ أنا معك فيما تقول ولكن لا يشترط أن ما يحدث في الواقع الفعلي يكـون بهذا الترتيب، فقد ينجم عن أحداث الواقع فرصة تاريخية مواتية للوصول إلي السلطة أولاً، فماذا نقول لها حينذاك؟! انتظرينا حتى نبنى المشروع الفكري أولاً!

لـم أكن أملك وقتها الوعي السياسـي الكافي للرد علي هذه الحجة ومـع ذلـك كان يـدور بخلدى حينها قـول المودودى ما معنـاه: ماذا أفعل

لو قيل لي استلم السلطة وأنا لا أملك الإداريين الذي لا يملكون الوعي بالمشروع الفكري الذي يجب تنفيذه. وقول الأستاذ خالد محمد خالد أمامي نقلاً عن الشيخ الغزالي إبان نجاح الإسلاميين في انتخابات الجزائر ما معناه أيضًا : يالا خوفي علي الدعوة الإسلامية إذا استلم هؤلاء الجهلاء السلطة ورغم ذهابي إلي أن المشروع الفكري أولاً ـ وقد تحدثت عن ذلك بشئ من التفصيل في عدة كتب لي ـ .

ولكنني أعترف أنني ظللت متحيزًا لعدد من السنين بصدد الموقف الذي ينبغي اتخاذه تجاه الساعين إلي السلطة من الإسلاميين دون أن يكون لديهم مشروعًا فكريًا حقيقيًا حتى رأيت بأم عينى ما حدث في واقعنا القريب وتأكد لدي مدى جثامة المهازل والمصائب التي تحدث عند الوصول أو حتى الاقتراب من السلطة دون أن يكون هناك مشروع فكري حقيقي.

أعود للحوار بينى وبين الأستاذ كامل أمين

قلت له : إنك متمكن تمكنا خاصا في الاقتصاد فلماذا لا تعمل علي وضع التصور الخاص للاقتصاد الإسلامي السني في مقابل التصور الخاص للاقتصاد الإسلامي الشيعي الذي وضعه باقر الصدر؟

ـ أنا بالفعل أفكر في التهميش علي كتاب باقر الصدر علي أن تكون هذه مساهمتي في هذا المجال.

كان كتاب الاقتصاد الإسلامي لباقر الصدر يبهرنا جميعًا مقارنة بالكتب الأخرى التي وضعها الإسلاميون في هذا المجال ولكنني أود أن أشير هنا أنه عند كتابتي لكتاب نقد الليبرالية عام ألفين وأثني عشر وضعت فصلاً عن الأسس النظرية للاقتصاد الإسلامي وعملت

وأنــا بصــدد ذلك علي مراجعة أغلب الكتب الإســلامية التي تناولت هذا الموضوع ومن ثم فقد راجعت كتاب الصدر ـ الذي قال إنه اســتند فيه للتدليل علي مقولاته علي أصول ســنية مثلما استند علي الأصول الشيعية مقولــة ..مقولــة علي الأصول الســنية فوجدته بعيــدًا كل البعد عن ذلك.. أى أن الكثير من هذه المقولات والأســس العامة لها لا تتفق مع الأصول الإســلامية الســنية. ومــن ناحيــة أخــرى لا تتوافــر لــدى الوعــي الكافي بالأصول الشــيعية لأحدد مدى اتفاقــه معها وإن كان يبدو لي أن العلامة باقر الصدر كان متأثرًا بالفكر الماركســي الســائد حينذاك (أواخر الخمســينات) حيــث يذكر بعض الماركســيين العراقيين ـ وإن كنت أرى أن ذلــك يحمــل الكثير مــن المبالغة والدعايــة ـ أن أعضاء الحزب الشيوعي كانوا حوالي سبع ملايين حينذاك أى أكثر من نصف سكان العراق في ذلك الوقت.

في لقاء تالي مع الأستاذ الزعيم قلت له:

ـ إن الحــزب يكاد يكون خاليا مــن المرجعيات الفكرية الخاصة بــه، فلمــاذا لا نعمل علي وضع مجموعة مــن الكتيبات تحمل رؤى الحزب في القضايا المختلفة.

ـ هي بالفعل فكرة مهمة ولكن إعطنى فرصة لدراسة الموضوع.

بعد بضعة شــهور قابلنى الدكتور حمدى زعتر الأمين المســاعد وقال لي:

ـ الحــزب قرر كتابة عــدة كتيبات عن تصــوره للقضايا المعاصرة وخولــك للكتابــة عن موضوعيــن همــا: الموقف من الفــن، ورأي الإسلام في قضايا المرأة المعاصرة.

تمهلت قليلاً وقلت له:

ـ أوافق علي موضوع الفن أما موضوع المرأة فاعتذر.

ـ لماذا

ـ لأنني لم أتزوج بعد ومن ثم فلا أستوعب ما الذي تعنيه المرأة استيعابًا كاملاً.

ـ هه.. هه. ماذا تقول؟! إنك دائمًا غريب.

غدا رأيي هذا مدار تندر بعض قادة الحزب وأنَّى لأمثال هؤلاء أن يستوعبوا أما أذهب إليه من أن التجديد الفكري في طرح رؤى الإسلام في القضايا المعاصرة لابد أن يقوم علي ثلاثة مقومات هي: ـ

الاستيعاب العميق للنصوص، والاستيعاب العميق للواقع، والاجتهاد العقلي النشيط والمبدع في ربط العلاقة القويمة بينهما ، وبما أنني لم أتزوج ومن ثم لا أستوعب واقع المرأة استيعابًا كاملاً فلا استطيع أن أكتب تنظيرًا صحيحًا في هذا الموضوع لرؤية حزب يُفترض فيه ـ كما يزعم ـ أنه يضطلع بريادة الحركة الإسلامية في مصر علي الأقل من الناحية الفكرية.

لم يكن للحزب رؤية محددة في أي شئ ولا يحزنون خصوصًا في مجال الفن ومن ثم فإن ما كتبته كان رؤيتي أنا ، وهكذا جاء كتابي (أو كتيبي) نظرية الفن الإسلامي وبعد أن أطلع عليه حمدي زعتر قال لي: ـ

ـ ما هذا الذي كتبته؟ إننا كنا نريد أن تكتب عن الأحكام الشرعية لقضايا الفن وليس هذا الكلام.

هذه الأمور يمكن أن تجدها في الكتب الفقهية أو في فتاوى الأزهر

وإنمـا ما قمـت به هو اسـتخلاص الأسـس الفكرية من هـذه الأحكام الشرعية التي من الممكن أن تقوم عليها نظرية أو تصور لمفهوم الفن ثم أقمت هذه النظرية.

بدا لا يفهم ما أقول ثم ادعى بعد ذلك أنني قد أخذت أفكاري في هذا الموضوع من مفكرين آخرين.

ودون أن اسـتطرد في أحداث أخرى تكشـف الموقف الذي ظل ثابتًا للدكتور حمدي زعتر الأمين المساعد من شخصي أقول أن خلاصة هذا الموقـف هـو العمل علـي الإنقاص من قدري علي الدوام إرضاء لشـئ في نفسه، لقد كان يحاول أن يبدو مفكرًا وكان الرجل يجتهد في الإطلاع معانـدًا حقيقـة أن هـذا الأمـر ـ فضلاً عن الأمـور المتعلقة بالاسـتعداد الذاتـي ـ يقـوم علـي تراكـم معرفي يمتد لعشـرات السـنين وقد قضى حياتـه متفرغًا للعلوم التطبيقية التي يعمل من خلالها كمدرس جامعي، هذا بله التجارب الإنسانية العميقة التي تضع الإنسان علي حافة الحقيقة أو تدفعه للنفاذ إليها، وهذه أمور لا علاقة لأمثال حمدي زعتر بها، وإنما هو يريد أن يتمظهر بالفكر بين كوكبة من يصفون بالمفكرين الذين كانـوا يتوافدون علي الحزب في تلك الفتـرة. وهكذا لخص الأمر أحد القريبين منه: إنه يحقد عليك لأنه كان يتمنى أن يكون مفكرًا.

في ظل هذه الأحداث اقترح علي أحد المثقفين الشـباب بالحزب أمرًا لـم أفكـر فيـه من قبل وهـو أنـه إذا كان الترويج لأفـكاري من خلال الجريدة هو سبب انضمامي للحزب فلماذا لا أدعم ذلك من خلال حصولي علي عضوية اللجنة التنفيذية، بل والارتقاء إلي ما بعدها أيضًا. ولأن هذا الشـاب كان ينوي الترشـح إلي عضوية تلك اللجنة فيبدو أنه قد رأي أن اقتران اسمينا معًا كمرشحين أمرا قد يدعم موقفه.

كان هذا الشـاب هو محمود الفقى، شخص ذو ذكاء خاص، شديد المكـر والدهـاء، وكانت مشـكلته وما زالت ـ أن عينـاه تفضح هذا المكـر والدهاء وتكشـف عـن ميل خـاص للتآمر مما يثيـر القلق حتى ولـو لم يكن الرجـل ينوى هذا التآمر بالفعل. أما مشـكلتي أنا معه فهو عـدم التزامـه الالتزام الدائم علي الصلاة وهي مشـكلتي مع كل الذين يتصفون بتلك الصفة بوجه عام.

حدثت الزعيم في الأمر فقال لي:

ـ علـي العموم أنت واحد من الذيـن يجب أن يكون لهم اتخاذ القرار في هذا الحزب ولك أن تقوم بهذه التجربة.

ـ بـدت حالـة مـن التوتر لدى رجـال الزعيم مـن القيـادات حول هذا الموضوع وبدأوا ينصحوني بالابتعاد عن محمود الفقي وقالوا لي:

ـ ألا تعرف أنه شيعي.

ما عرفته عن محمود أنه كان أسـتاذ علاقات متعجل الطموح لدرجة التهور أحيانًا وفي هذا الإطار ارتبط بعلاقات قوية بكبار مناصري الثورة الإيرانيـة فـي ذلك الوقت مثل المستشـار الدمـرداش العقالي والدكتور فهمـي الشـناوى ولكنـه كان أيضًـا أحد تلاميـذ الدكتور المسـيري ومسـاعديه فـي إخراج موسـوعته، وله أيضًـا علاقات متعـددة بغيره من المفكريـن والسياسـيين المشـاهير، وكانـت له معلومات مسـتفيضة بما يحدث في الأوسـاط السياسية والثقافية وكانت هذه الصفة بالذات تضيف إلي شـعور الآخرين بالخطر منه خطرًا أشـد، أما حكاية تشيعه هذه فأعتقد أنها لا تعدوا مسـالة سياسـية في مرحلة ما ولا تصل لدرجة التمذهـب والاعتقاد، والتناقض المسـتفز في هذا الأمـر هو أن القاصي

والداني يعرف أن الزعيم نفسه وقريبه المقرب الأستاذ حمدى أمين فربما بعض المقربين الآخرين وربما لهم علاقات وثيقة بأعلي السلطات في الدولة الإيرانية وليسوا مجرد مناصرين لها في مصر، ولم يجرؤ أحد علي اتهامهم بتهمة التشيع ولكن يبدو أن التخوف من تصعيد محمود يعود إلي التالي.

كان من بين المعلومات التي يحملها محمود والتي تظهر مدى خطورته بالنسبة لهم ما حاكاه لي أنه علم من أحد معارفه الكبار من مناصري الثورة الإيرانية أن الزعيم كامل أمين بعد صعود نجمه في الساحة السياسية المصرية عمل علي إقناع بعض المسئولين الإيرانيين علي إنشاء كيان إعلامي كبير في مصر والشرق والأوسط والذي قد تبلغ تكلفته (وذكر أمامي مبلغًا خياليًا) وكاد الزعيم أن ينجح في الأمر لولا أن تدخل أحد المناصرين القدامى (والذين يرجح أنهم قد تشيعوا بالفعل)، وحذر الإيرانيين من أنه ليس بالشخص الذي يؤتمن علي مثل هذه الأمور.

ما هو مدى حقيقة هذه القصة؟ الله أعلم. ولكن يكفي أن يتفوه محمود بمثل هذا الكلام ـ والذي لاشك أنه يتسرب إلي الزعيم ـ حتى يكون تصعيده مستحيلاً.

أما بالنسبة للموقف منى في هذا الشأن فسيؤجل الحديث عنه قليلاً.

لكي يتم ترشيحي أنا ومحمود الفقي إلي اللجنة التنفيذية لابد أن نقدم صورة ضوئية من العضوية العاملة بالحزب، ذهبنا إلي الموظف الإداري المسئول عن هذه الأوراق فوجدناه في صورة من يبدو عليه الإجهاد وهو يقلب أرشيف الحزب هو ومعاونوه، وقال لنا إنه قد علم بسعينا للترشيح وأنه يعمل بكل جد لكي يصل إلي أوراق عضويتنا ، ولم يمر وقت طويل

حتى قال:

ـ أنا أعتذر لكم جدًا لقد فعلت كل ما استطيع ولم أجد هذه الأوراق.. هل أنتما متأكدان بالفعل أنكما قد مضيتما علي استمارتي عضوية؟

وأعترف أن هذا الحل الزعيمي العجيب للمسألة لم يكن مفاجئًا لمحمود الفقي.

مع كل هذا الذي يحدث سواء إعاقتى أو عن نشر مقالاتى مع استثناءات قليلة ، وتوليتي لمنصب قيادي في الحزب كان للزعيم معي في مقابل ذلك مواقف إيجابية جدًا في نفس الفترة تحديدًا ، أهمها استقبال كتبي استقبالاً مجيدًا وذلك بمنحني مساحات جيدة جدًا للكتابة عنها في الجريدة وإقامة ندوات عنها ثم إعادة كتابة حصيلة هذه الندوات وإعادة نشر ذلك مرة أخرى، هذا فضلاً عن إسهامه في تكلفتها بما يقارب عشر تلك التكلفة.

وكان من المفاجأة لي ترحيبه الكبير بكتابي (موقف الإسلام من الحب) ليس لتناقض ذلك مع شخصيته الجادة لأن هناك من أخبرني أنه قد تزوج عن قصة حب أيام نضاله الماركسي، ولكن لأن ذلك يخالف ما يفترض أن تكون عليه الصورة العامة للحزب وقائده بحسب التقاليد المشاعة في تلك الفترة خصوصًا أن الكتاب يكسر تابوهات راسخة في هذا الموضوع، ولكن الزعيم لم يمنح الكتاب فقط مساحة قد تصل إلي النصف صفحة في الجريدة، وإنما حضره لأول مرة الندوة التي تقام للحديث عن كتبي ودافع عنه دفاعًا مجيدًا في مواجهة بعض الحاقدين الذين تصوروا أن هذا الكتاب هو

بمثابة الفرصة التي تسمح لهم بالانقضاض علي وكان من أعجب ما فعلوه في التعبير عما يملأ صدورهم من غل نحوي دون اعتبار لدين أو شرف أن أحدهم اتهمني بالاستدلال علي مقولاتي بالكتاب بأحاديث ضعيفة وذكر أحد الأحاديث التي تدل علي ذلك، مع كوني لم استدل بهذا الحديث علي شئ، بل أوردته لأذكر ضعفه وأنقض ما فيه، ولكن أمثال هذا الشخص لا يهمهم في شئ حقًا ولا باطلاً، ولا يهمهم فضح كذب ما يدعونه في ثانية واحدة، ولكن المهم إدخال الجمهور الذي لم يطلع علي الكتاب في حالة من البلبلة تسئ إلي كاتبه والسلام.

كانت لمواقف الزعيم المتناقضة تجاهي آثارها المحزن في نفسي ليس فقط أسفًا علي ما يضعه أمامي من معوقات ولكن أسفًا أيضًا علي علاقتي الخاصة به التي كنت أعتقد أنها مهيأة لكي تكون أفضل كثيرًا من تلك الحالة التي تنعكس عنها هذه الأمور الآن، كل هذا دفعني للحديث عن الموضوع مع كتاب وسياسيين أعرفهم جيدًا، وهم في نفس الوقت علي دراية بالرجل، تنفيثًا عن نفسي ومحاولة لفهم أكثر لما يفكر فيه، كان رأي الكاتب السياسي والناشر الذي أشرت إليه سابقًا سريعًا وقاطعًا: يا بنى من حقه إنه يخاف منك لأنك لديك مشروع وهو ليس لديه مشروع، أما الزعيم اليساري الذي أضحي زعيمًا كبيرًا وإشكالاً سياسيًا بعد ذلك فوقف بدبلوماسية السياسي عند حدود قوله: إنه يحتاجك أكثر مما تحتاجه. أما المسيرى فقد قال قبل أن تبدأ علاقتي به تعليقًا عما يرويه تلاميذه عن المكائد التي تحدث

لي:إنهم يحاربون مبروك لأن لديه مشروع وهم ليس لديهم مشروع.

قال المسيرى ذلك بصيغة معممة فقد كانت بينه وبين الزعيم أواصر قديمة يحترمها غاية الاحترام، ورغم مناصرة المسيرى لي تجاه مواقف

الزعيـم منـى خصوصًا فـي الفترة اللاحقـة لما حكيتـه، ولكنه كان دائمًا يحافظ علي تلك الأواصر.

أمـا ما انتهيت إليه أنا نفسـي في هذا الموضـوع فهو أن الرجل بعد أن دفعني حوالي عشرة أعوام إلي الأمام بعد اللحظة الأولي من مقابلتي معه رأي أنـه لا يجـب أن أتقدم أكثر من ذلك لما في هذا من خطورة عليه هو شـخصيًا مـن منظور هدفه الراسـخ في الحفاظ علـي الزعامة الفكرية ـ وليس السياسـية فقط ـ للحزب ومن ثـم فمجهودي الفكري المتمثل أساسًـا في الكتب يتم الترحيب به لأنـه يمثل إثقالاً لفكر الحزب الذي أحسـب عليه مثلما يمثل قيمة إضافية لي شـخصيًا أما أن يتم اسـتقوائى من خلال النشر المتتابع لي أو تولية المناصب في الجريدة والحزب فهذا معنـاه تجـاوزي للقدر المحدد المحسـوب، ليس هناك خطـرًا أن تكون مفكـرًا فـي مجتمع تحكمه البراجماتية بشـكل كامـل كالمجتمع المصري فمهما يكون الذي تقوله من أفكار فأنت تحتاج إلي عشـرات السنين لينتبه إليك المجتمع إذا كانت عبقريتك وصدقك يسمحان بذلك ما دمت لا تملك القدرات المادية القدرة على دعم هذه الأفكار.

مع الزعيم
بعد الأزمة

مـا سـأذكره هنا بـإذن اللّه من شـذرات مما حدث في أزمـة ٩٧ لابد أن يفهم أنه يأتي فقط في سـياق ما يسـتلزمه ذكـري للعلاقة بيني وبين الزعيم ليس إلا .

اغلـق السـتار على صراعـي الكوني بالانهيـار التام، ولـم يعد هناك منفذ للإرادة لفعل شيء.

وهذا الستار ليس من القماش أو من الحديد أو حتى من الجبال ولكنه من الاستحالة التامة.

وأود أن أشير هنا إلى الحدث الأخير الذي أدى إلى غلق هذه الستارة تمامًا بـلا ذرة منفـذ ، لا لأهميته بالنسـبة للحديـث الذي نحن بصـدده ولكن اسـتغلال لتلـك المناسـبة لطـرح مسـألة فكريـة هامة حيـث يمثل هذا الحدث الأخير النموذج الأوفى لانطباق هذه المسألة الفكرية عليه.

المسألة هي ما الفرق بين علم الغيب والقدرة الفائقة على توقع الأحداث إلى درجة قد تصل إلى تسـعين أو خمس وتسـعين في المائة، وكيف من الممكن أن تتوقع الاحداث إلى هذه الدرجة، ورغم ذلك يصيبك السـوء وكأنك تنتظره انتظارًا وهل ذلك يتناقض مع الآية الكريمة: «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء».

لقـد كنـت أردد فـي السـنوات الأخيـرة من الصـراع أننـي أزعم أني اسـتطيع توقع الأحداث الاجتماعية بنسبة تسعين في المائة، بل أن فريقًا كبيرًا من خصومي في الصراع أنفسـهم عندما تم التقارب والمودة بيننا فـي فترة من الفترات كانوا يشـهدون لي بهذه القدرة ويناشـدونني توقع ما سـيفعله الخصوم في الصراعات التي تخصهم، بل أن الأدهى من ذلك

أن الشخص الذي كان يقف على رأس هؤلاء الخصوم كان يعاني من انسداد السبل والفقر والإحباط في فترة الوفاق بيننا ، والعبد لله هو الذي توقع له الغنى الفاحش، وهو ما حدث بالفعل في سنوات محددة للغاية ووقعت نتائجه فوق رأسي.

والمسألة ليست تنبؤ أو ضربًا بالغيب وإنما هي خبرات اجتماعية مكثفة وتحليل نفسي ودراسة للأحوال الاجتماعية القائمة وعقل منطقي لتعليل وربط عناصر الأمور مع بعضه البعض ومع الأخذ في الاعتبار لحجم الفراغ المناسب اللامنطقي فيها . ولكن المحور الأساسي في كل ذلك هو التجارب المعمقة الناجمة عن الاعتراك في صراعات الحياة فإذا ثبت أن لدي القدرة على التنبؤ السياسي كما حدث في كتابي (الإسلام والغرب الأمريكي ـ والإسلام الليبرالي) فإن ذلك يعود في الأساس لتدريبي على هذا التنبؤ في الصراعات الاجتماعية وتكاد تكون متطلبات الأمرين واحدة مع الأخذ في الاعتبار بمراعاة المتغيرات التي يقتضيها كل مجال منهما. فعلى سبيل المثال فإن الخبرات الاجتماعية المكثفة يتم الاستعاضة عنها بالاستيعاب التاريخي المعمق، ويزيد الفضل لو تم تدعيم ذلك بالاضطلاع بأدوار كبرى من الممارسة السياسية المكثفة.

وعلى ذلك فقد قلت لأحد أهم عناصر فريقي في الصراع محذرًا وراجيًا :

ـ تعلم جيدًا أننا لسنا لدينا فريق ولا يحزنون وغاية ما في الأمر أننا نستغل الصراعات والتناقضات الاجتماعية القائمة لنقرب بين بعض الأطراف التي على خلاف أو تنافس مع خصومنا الأشداء لنح إليهم أننا لنا تكتلنا القادر على تحديهم، ولقد نجحنا في ذلك سنوات

طويلة، وقد حدثت مناوشات هنا وهناك تراوحت بين الخسارة والمكسب، ولكننا مازلنا على نفس القدر من التكافؤ بوجه عام، أما إذا حدث صدام قوي حقيقي فسينكشف الأمر، ولن نجد أحد من المتحالفين معنا بل أن النتيجة الحتمية لذلك أن ينضم هؤلاء الحلفاء الافتراضيين إلى الخصوم ضدنا لأننا أوقعنا بهم في التعرض لمشاكل ومخاطر في صراع لا ناقة لهم فيه ولا جمل.

والأحداث تقول إن الخصوم يريدون جرّك أنت تحديدًا إلى المواجهة لأن الذين تعتمد على الاستناد إليهم في تلك المواجهة لن يسندوك وإنما سيدفعونك بعيدًا عنها ثم سينضمون إلى خصومي للانتقام مني، وعلى هذا فأرجوك ألا تذهب إلى المحل الفلاني في اليوم الفلاني في الساعة الفلانية حتى لا يحتك بك الشخص الفلاني فينهار الموضوع كاملاً فوق رأسي:

أعيدها لك مرة أخرى.. أرجوك .. أرجوك

- لا تذهب إلى المحل الفلاني.
- في اليوم الفلاني.
- في الساعة الفلانية.
- حتى لا يحتك بك الشخص الفلاني.
- فينهار الموضوع كاملاً فوق رأسي.

لكن هذا الشخص أخذته العزة بالإثم، وكان قد اعتقد اعتقادًا ساذجًا أن انتمائه العائلي سيؤدي إلى إحجام الخصوم عن المواجهة رهبة من قوة هذا الانتماء وذلك بما يناقض ما تفاقمت إليه الأحداث كما شرحت له إخلاصه لما يسعى له من الفخر الذي يريد تحقيقه من وراء

ذلك كان أكبر من إخلاصه لي أضعافًا مضاعفة.

والنتيجة أنه قد حدثت العناصر الخمسة حرفيًا:

- ذهب إلى المحل الفلاني.
- في اليوم الفلاني.
- في الساعة الفلانية.
- فتعرض له الشخص الفلاني.
- فانهار الموضوع كاملاً فوق رأسي.

إذن نسبة التوقعات هنا تكاد تطابق اليقين ومع ذلك أصابك ما أصابك فما معنى ذلك.؟

أقول تعليل ذلك في التالي: إنه مهما كانت دقة توقعات الإنسان فلن تصل أبدًا إلى درجة اليقين فهناك نسبة من الاحتمال ألا تحدث توقعاته ولتكن خمسة في المائة أو حتى أقل من هذا . فإذا كانت إمكانات الشخص كبيرة إلى الدرجة التي تؤهله لتغيير موقعه دون خسائر كبيرة فإنه يستطيع بذلك التعويل على النسبة الأكبر من التوقعات وتفادي المصائب التي يتوقعها ، أما إذا كانت إمكاناته محدودة ولا يستطيع من خلالها تحويل موقعه إلا بخسائر كبيرة ، فإنه يمني النفس بحدوث النسبة الأقل وتفادي وقوع تلك الخسائر ، ويغريه في ذلك أن هذه النسبة الأقل هي النسبة الأكبر توقعها عند الكثيرين من الناس.

أما الفارق في حالة اليقين وعلم الغيب فبسيط للغاية وهو أنه لا وجود معها لنسبة الاحتمال الأقل على الإطلاق التي من الممكن التعويل عليها لتمنية النفس بتفادي الخسائر الكبيرة بسبب تحويل الموقع. لأنه عند ذلك اليقين لا يكون أمام النفس إلا فعل أي شيء للإبتعاد عن الخطر

اليقيني القادم وبذلك تهون أي خسـائر أخرى من الممكن التضحية بها لتحويـل الاتجـاه وتفادي الخطر .. وهذا هـو المعنى اليقيني الذي جاء في الآية الكريمة: "لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء" .

انتهى الامر السـاعة العاشـرة والنصف مسـاءً. أو انتهـت حياة كاملة السـاعة العاشـرة والنصف مسـاءً وبـدأت حياة جديدة السـاعة السـابعة صباحًـا أو قبلهـا بقليل، مـا الذي حدث ما بين الزمنيـن، من العجيب أن هناك أكثر من ثماني سـاعات بين الزمنين لا أتذكر عنها أي شـيء. لا أتذكر إلا أنني مع بواكير الصباح الأولى كنت أجلس أمام بيت الزعيم انتظر أن تدق السـاعة السـابعة صباحًا حتى أضغط على زر جرس الشقة لأبدأ هذا الحضور العجيب في هذا التوقيت العجيب.

فتح لي الباب فأخبرت من قام بذلك، والذي لا أذكر أيضًا من هو ـ من أكون وأن هناك أمرًا كبيرًا جدًا يجعلني أحتاج مقابلة الزعيم في تلك السـاعة، لم يقابل حضوري بأي بقدر من الاسـتياء أو النفور لا في لحظة دعوتي الأولى إلى الدخول، ولا في نهاية وجودي بعد أن عُرِفت الأسـباب وراء حضـوري المفاجـئ هذا . ففضلاً عن الأخـلاق العملية الفاضلة التي يتمتـع بهـا البيت فإنـه يمتلك خبـرات حياتية مكثفة حملـه بها عراكه في النضال السياسـي بوجه خاص وكان من المؤكد أنني معروف لدى الأسـرة، ومن الراجح للغاية أنهم يعرفون التفاصيل الأساسـية لحكايتي الخاصـة . بعد برهة من الوقت حضر الزعيـم بعينين منخفضتين وكأنه قد توقع تمامًا ما حدث بالفعل، حكيت له خلاصة الأحداث بما يعني أن كل شـيء قد انتهى ولابد من بداية حياة جديدة، وطلبت منه مسـاعدتي فـي السـفر إلى إحدى الـدول العربية، ولأنها منقسـمة سياسـيًا بين هذا

وذاك فلابد أن أسافر إلى دولة بها كل الآراء لاستطيع أن أعبر عن أرائي فيها بحرية من خلال مقالاتي وكتبي، إذن فالبلد التي يتوفر بها المجال لعملي هذا هو لبنان.

كانت دهشتي أن البلد التي اقترح علي مساعدتي في السفر إليها هي ليبيا، رددت على اقتراحه هذا بشكل قاطع، وأثناء جدلي معه بهذا الشأن إذا بزوجته تنادي عليه بغضب من الداخل، بعد برهة عاد إلي مؤجلاً البت في الموضوع ومنتقلاً بالحديث إلى وجهة أخرى، حدست وقتها بشكل يقيني أنها تعاطفت معي ونهرته عن هذا الاقتراح ومن الطريف أن الزعيم اليساري الذي أشرت إليه سابقًا عندما علم بهذا الاقتراح علق عليه ساخرًا:

ـ أيقترح عليك الذهاب إلى ليبيا؟! . وماذا ستكتب هناك؟! . في ليبيا لا تستطيع أن تكتب حتى دفاعًا عن القذافي نفسه .

أما بالنسبة لي فقد تأكد لدي أمر عجيب كنت أفكر فيه في تلك اللحظات التي كنت انتظر فيها أمام منزل الزعيم قبل الصعود إليه . لقد كنت أفهم ـ كما شرحت سابقًا ـ كان هو قلقًا من تضخم حجمي الفكري قبل تلك الأزمة ومن ثم أعاق تقدمي في الجريدة والحزب درءًا لذلك، فيا ترى ماذا سيفعل الآن؟ إن الصراع الذي كان يبدد الجانب الأكبر من طاقتي قد انتهى أيًا كانت ظروف أو شكل انتهائه، لأن هذا يعني أن الفرصة قد تكون متاحة أكبر كثيرًا لزيادة هذا التضخم، وإرسالي إلى ليبيا يعني إما أن أقتل معنويًا بنفاق القذافي وإما أن أقتل حقيقيًا إذا عارضته، وإذا كنت قد رفضت قبل ذلك إحدى الدعوات لزيارة ليبيا للمشاركة في مؤتمر يقوده القذافي خوفًا من أن أتفوه خطأ بعبارة مناهضة له فتطير معها رأسي فكيف من الممكن أن أعيش في

بلده؟! .

إنتهى الحوار بيني وبين الزعيم على أنه سيفكر في الأمر وأعطاني مبلغًا من المال يكفيني لسد الجوع الضروري من الطعام والإقامة في أسوأ لوكاندة لمدة ثلاثة أو أربعة أيام على الأكثر، وطبعًا بعد قيامي من النوم لم يكن هناك مكان من الممكن أن أتواجد فيه سوى الجريدة أو الحزب وعلم الجميع بالأمر وغدا الزعيم يمنحني مالاً يكفيني بنفس الكيفية التي أشرت إليها لمدة يوم أو يومين، وفي إحدى هذه المرات قال لي مستنكرًا أمام بعض من أصدقائي في الجريدة والحزب ولم يكن قد مضى على الأمر أسبوعًا أو أسبوعين:

ـ هل أنت استكنت لذلك؟ ابحث لنفسك على حل يمكنك أن تأتي بدخل منه.

كان هذا أسوأ ما تفوه بي أمامي بالنسبة للعلاقة بيننا حتى هذه اللحظة، وكأنها كانت اللفتة الأولى المعبرة عن انتواء تصفيتي هذه المرة وليس مجرد تحجيمي، ففي ظل هذه الأزمة الخانقة التي يرى الجميع بأعينهم وخصوصًا من حولي من المثقفين إنني أنقل قدمي على الأرض بصعوبة بينما هو بالتعبير المصري الدارج (بيتفرج علي) وكان بإمكانه ـ كرجل الحزب الأول أن يقوم على الأقل ـ بتعييني ولو مؤقتًا بأي عمل بالجريدة أو الحزب، حتى أقف على قدماي وأحدد مصيري، وحتى يصرفهم عن النظر إليه كمقصر في مساندتي فإنه يحملني أمامهم ـ وفي ظل ما أعانيه من انعدام مالي معجز ـ مسئولية البحث عن مصدر يمكنني من الحصول على دخل، ويتهمني بالسلبية تجاه ذلك.

فقلت له مستنكرًا بتحدٍ:

ـ في ظل العجز المادي الذي أعيشه لا استطيع أن أفكر إلا في

كيفيــة الحصول على أجــرة اللوكاندة التي يفترض أني ســأبيت فيها كل يوم بيومه، ولكن أعطني المال الذي يؤمن عيشي لمدة عشرة أيام فقط وأنا استطيع أن أفكر في البحث عن حل .

لا أتذكــر هل كانت أجرة أول غرفة ســكنتها في منطقة الجيزة ــ حيث أشــار علي بذلك محمود الفقــي ــ هي من مال أعطاه لي الزعيم أم مــن بين مائــة جنيه أعطاها لي قريبه المقرب الأســتاذ حمــدي أمين بعد أن ذهبــت إليــه في بيته وشــرحت له حالــة الانهيار المالــي الكامل الذي أعانــي منــه . المهــم أن أمــوري بدأت تســتقر قليــلاً على الأقــل من حيث وجود مكان يؤويني أما أصحابي المثقفون الفقراء في الجريدة والحزب فكانوا يســاعدونني في الحصول علــى وجبة لإطعامي كلما ذهبت إلى هنــاك، أثنــاء ذلــك كان يتولى منصب ســكرتير رئيس التحرير شــاب مثقــف مــن أصدقائنا ومن تلاميذ المســيري، وكانت لــه أحوال عجيبة فقد كان يدير مكتبه بكفاءة عالية، وفي نفس الوقت يعلن نقمته على تلك العائلة (رئيس التحرير والزعيم أمين عام الحزب) .

ويقول أمام الجميع:

ــ إن كل ما يحدث في الجريدة والحزب ما هو إلا مشــروع شــخصي لخدمة هذين الشخصين.

والغريب أنهم ظلوا يحتفظون له مع ذلك بوظيفته في الوقت الذي يشيع عنــه رجالهــم بالحزب تهمًا مالية. وفي ظل نقمتــه على ضعف مرتبه الذي كان يطالبهم بزيادته صرخ أمام عدد من المنتمين للجريدة والحزب:

ــ هــم يفكــرون من أكــون . هل يعتقــدون أنني مثــل محمد مبروك أقصــى طموحي هو أن أحصل على بضع سندوتشــات فول وطعمية ثم أعود إلى بيتي.

حكى لي هو شخصيًا هذا الموقف على أساس أنه قد قال ذلك متعاطفًا معي ومستنكرًا لما حدث. أيا كان الأمر فقد ضحكت كثيرًا عند سماعي لذلك، وعلى الرغم مما كان فيه من الفضيحة فقد كان ملخصًا للواقع المزري لكل الأطراف في ذلك الوقت تلخيصًا تامًا في تلك الأثناء برز إلى الساحة مشروع قانون الأراضي الزراعية لعام ١٩٩٧ والذي عارضه اليسار المصري بقوة وبرز في هذه المعارضة الزعيم الناصري الذي أشرت إليه سابقًا، بينما وجدت فيه بعض التيارات الإسلامية فرصة لمد حبال الود مع الحكومة إضافة إلى تماهيها مع الاتجاه الليبرالي بوجه عام).

كانت الظروف التي أمر بها تجعلني في شغل شاغل عن ذلك لكن الدكتور محمد مورو أقنعني بضرورة الانضمام إليه في معارضة المشروع على الرغم من الظروف التي أمر بها، كان من بين الأشياء التي فقدتها في تلك الأزمة ـ التي فقدت فيها كل شيء ـ المراجع التي اعتمد عليها في البحث والدراسة، فكيف يمكنني دراسة هذا الموضوع وأنا لا أملك تلك المراجع؟ خصوصًا أنني من غير الأشخاص الذين يناسبهم الاعتماد في دراساتهم على المكتبات العامة.

اعتمدت على دور النشر التي امتلك معها علاقات وثيقة ويحسب لدار النشر التي تحدثت عن مشاكلي معها في موضع آخر هنا أنها كانت من أهم دور النشر تلك على الرغم من التوقع الغالب للقائمين عليها أن دراستي ستكون في اتجاه مضاد لاتجاه التيار المنتمين إليه وربما تدخل في هذا الأمر كثافة المشاكل التي كانت بيننا قبل ذلك والتي لم تكن تحتمل المزيد في ذلك الوقت ومراعاة الظروف التي أمر بها، ولذلك ساعدوني في إتمام مهمتي رغم اعتراض بعضهم على ذلك، ورغم الضرر المادي

الـذي قـد يلحق بالمراجع الضخمة التي اسـتعرتها لأقوم بتصوير الأبواب الفقهيـة المتعلقـة بالموضوع ثم أعيدهـا مرة أخرى، هـذا بالإضافة إلى بعض المراجع النادرة التي استطعت اقتناءها من هنا وهناك .

نَجَـم عن هذه الدراسـة كتابٌ كاملٌ تقترب صفحاتـه من المائة في حوالي شهر أو يزيد قليلاً في ظل هذه الظروف الطاحنة وبعيدًا عن معوقات النشـر التي اتعرض لها في الجريدة اسـتطعت نشـر مقالين مأخوذين من الدراسـة فـي جريدتين آخرتين تابعين لليسـار بمسـاعدة الدكتور مورو وكانـت مـن بينهمـا مقالة مشـتركة بيننا فـي حوالي ثلثـي صفحة في جريـدة جديدة حققت انتشـارًا كبيرًا منافسًـا لجريدتنـا وحصلت منها على مقابل مادي معقول.

كان من بين رجال الزعيم أحد قيادات الحزب الذين مازالت تلح عليهم ميولهم اليسـارية من أبدى فرحته أن تصدر هذه الدراسة التي تتقارب مع ميولـه مـن أحد الإسـلاميين، فعرض عليَّ أن أعطه نسـخة من الدراسـة لعرضهـا على القيادات الأكبر من أجل طبعها في كتاب لتكون معبرة عن رؤية الحزب في هذا الموضوع .

فقلت له:

ـ ما تفكر فيه مستحيل، زعيمك لن يقبل هذا أبدًا .

ـ متى تكف عن تلك العقد ، الزعيم لا يحب أحدًا مثلك .

ـ سـواء اتفقت أو اختلفت معك في حكاية الحب هذه، فهذا شـيء وموافقته على هذا الموضوع شيء آخر.

أمـا الزعيـم نفسـه فعندمـا أطلعته ـ باسـتفزاز ـ على مقـال لي عن الموضـوع منشـور في جريدة أخـرى تغير لونـه ونظر لواحد مـن قيادات الجريدة كان قريبًا منه في تلك اللحظة محاولاً إخفاء ارتباكه بابتسامة

ودودة وهو يقول:

ـ ألم تكن جريدتنا أولى بمثل تلك الأعمال؟

وتركنا إلى حيث انطلقت سيارته.

قلت للرجل:

ـ لقد عُرض عليهم الأمر، فماذا فعلوا؟!

بعد حوالي أسبوع أو اثنين من ذلك قابلت ذلك القيادي الذي كان متحمسًا للدراسة، فقلت له بابتسامة ساخرة:

ـ هه .. ماذا فعلت هل استطعت إقناعهم.

ـ بصراحة .. أنا غير قادر على فهم .. لماذا رفضوا ذلك.؟

ـ قلت لك إن الزعيم من المستحيل أن يوافق على ذلك، والمسألة ببساطة أن الأراضي الزراعية هي موضوع اقتصادي في الأساس، أي أنها تدخل في صميم اختصاص الزعيم، ومع ذلك لم يطرح هو نفسه رؤية ما بصدد الموضوع، فكيف يترك لغيره طرح تلك الرؤية تعبيرًا عن موقف الحزب، وأنا لا أدعي أني أنافس الزعيم في الجانب الاقتصادي لكن المسألة لها جانب آخر هو الجانب الأصولي الذي يجب أن تؤسس عليه، وزعيمك بضاعته قليلة في هذا الموضوع، لأن انتقال الرجل للإسلام من الماركسية هو انتقال حديث نسبيًا والتأسيس الأصولي للمسائل الاجتهادية ليس أمرًا من أمور الفهلوة وإنما يقوم على تراكم معرفي يحتاج سنوات طويلة، وربما عشرات السنوات.

جاءت النجدة المالية الأساسية من حيث لا احتسب على الإطلاق فقد ظننت أن الطالب الخليجي ـ الذي أشرت إليه سابقًا ـ قد انتهى من

دراسته لكليته، وكنت قد انقطعت عن تدريس له طهقانًا من معاملته السيئة وتفرغًا لصراعي الخاص في نفس الوقت، فإذا به يستطيع أن يتصل بي عن طريق معاونه الذي ينتمي لأحد العائلات الكبرى ببلدتنا، فاستطاع معاونه هذا أن يترك لي خبرًا بالجريدة يطالبني الاتصال به.

أدركت أن الخليجي لم يكمل دراسته بعد، ولديه مادتان قد رسب بهما هذا العام سيعيد امتحانهما في سبتمبر.

يا فرج الله، سأقوم بالتدريس له حوالي شهرًا ونصف وأيًا كان تضييقه علينا في المال فإن ما سينجم في النهاية عن ذلك قد يمثل ثروة بالنسبة للظروف القاحلة التي أمر بها.

أما الأمر الذي قد يكون أهم من ذلك فإن الإقامة مع الرجل والمجموعة التي تصاحبه في فترة الامتحانات في إحدى الشقق الفخمة بمنطقة عباس العقاد تمثل فترة من العيش الرغد سكنا وطعامًا وضحكًا تلى تلك الفترة الطاحنة من الجوع والتشرد التي استمرت حوالي شهر ونصف بعد أزمة منتصف السابع والتسعين.

تقريبًا أثناء وجودي مع الخليجي ومتابعتي للجرائد والمجلات لاحظت اهتمامًا بالغًا للتيار العلماني بإحياء المئوية السابعة لما يقال أنه ذكرى رحيل الفيلسوف الأندلسي ابن رشد وكنت أعلم أن هناك فيلمًا يتم إنتاجه بمساعدة فرنسا عن ابن رشد للمخرج يوسف شاهين. كان ابن رشد فيلسوفًا تابعًا أمينا للفيلسوف الأغريقي أرسطو الذي يمثل العصب الفكري للفلسفة الإغريقية التي تمثل القاعدة الأولى للحضارة الغربية المعاصرة ومن ثم رأيت أن الترويج البالغ لهذا الفيلسوف يراد منه النفاذ بالفكر العلماني داخل هذه العباءة الإسلامية المفترضة إلى العمق الفكري للأمة الإسلامية.

وبعد إنهاء مهمتي مع الخليجي قابلت الزعيم وأقنعته بأهمية إقامة ندوة تجمع كبار المفكرين لمواجهة الأمر . خصوصًا أن فيلم (المصير) بدأ عرضه السينمائي بالفعل.

حضر الندوة التي أشرفت على الدعوى إليها وإدارتها فضلاً عن المشاركة فيها كوكبة من أهم المفكرين في ذلك الوقت:

الدكاترة عبد الوهاب المسيري وحسن الشافعي ومحمد عمارة وجلال أمين (لا أذكر على وجه الدقة هل حضر بالفعل الدكتور عمارة أم اكتفى بمحاضرة مكتوبة) وتمت مهاجمة الفيلم ويوسف شاهين هجومًا عنيفًا ، أما ابن رشد نفسه فقد اكتفيت أنا والدكتور حسن الشافعي بعدم حاجة الفكر الإسلامي في تلك المرحلة لما تثيره فلسفته من بلبلة وإن كنا قد دافعنا عنه كفيلسوف من الصورة المهلهلة التي صوره بها يوسف شاهين في فيلمه.

* * * * *

كتبت مقالة عن الموضوع فتم الموافقة عليها ثم أجلت ثم ثم الموافقة عليها ثم لم أجدها في العدد المتفق عليه ثم حدد لها موعد آخر، فراقبت لحظات إعداد الجريدة للنشر وسألت نائب رئيس التحرير فأجابني بأنها قد تم وضعها في الصفحة المحددة لها فذهبت لأراجع (ماكيت) تلك الصفحة فلم أجدها ، وكان الجميع يردد أن اللاعب المباشر وراء ذلك هو العروسي وأن مؤلف أغاني الفيلم هو احد أقرباء العروسي، بل وكان هناك من يردد أيضًا أن مؤلف الأغاني هو العروسي نفسه وما قريبه هذا إلا صورة يختفي وراءها وأن ذلك قد تم الكشف عنه في إحدى المجلات، الله أعلم. ولكني عدت إلى النائب وكان بجانبه حينذاك الأستاذ حمدي أمين رئيس التحرير وقلت له: المقال لم ينشر كما تقول.

فنظر النائب غاضبًا إلى رئيس التحرير وهو يقول:

ـ أنظر (ياريس) لعب العيال الذي يحدث .

فأمر رئيس التحرير أمرًا باتًا بنشر المقال، وكادت ألا تنشر أيضًا على الرغم من ذلك.

يبدو أن يوسف شاهين قد ارتعد للأمر، فرغم ما يعرف عنه من تعال جاء إلى الحزب بنفسه وقابل الزعيم الأستاذ كامل أمين، بل وقابل الزعيم التاريخي رئيس الحزب نفسه، وأبدى اعتراضه على الهجوم الذي تم على فيلمه بالندوة.

كنت قد أفرغت كتابة شرائط التسجيل الخاصة بالندوة ثم أعددتُ ملخصًا لها على أمل نشره بالجريدة وقدمت للمسئولين كل ما يخص ذلك من أوراق، فتم تأجيل نشر الملخص أسبوعًا بعد أسبوع حتى انتهى عرض الفيلم وسحب من دور السينما، حتى يئستُ تمامًا من نشر هذا الملخص وكنت أعجب كيف يفعل الزعيم ذلك بما فيه من استهانة بتلك الكوكبة من المفكرين، وبعد مرور أكثر من شهر على ذلك تقريبًا إذا بي أفاجأ عند زيارتي للجريدة بنشر ما جاء في محاضرات مفكري الندوة شبه كاملاً في حلقات مسلسلة بالجريدة والتنويه على ذلك بخط كبير أعلى الصفحة الأولى.

تعجبت مما حدث ولكن يبدو أن الزعيم استطاع بذلك إرضاء كل الأطراف، ولكن السؤال المطروح هو: ما الذي ترسب في ذهن المراقبين لهذا الموضوع في الجريدة والحزب؟ من الذي تصدى لهذا الموضوع الكبير الذي أقل ما فيه هو التعرض لفيلم يوسف شاهين وأصعب ما فيه هو التصدي لفكر فيلسوف مثل ابن رشد ؟. ومن الذي لم يستطع الاشتراك في التصدي لهذا الجانب الأصعب بينما تحايل

لمراضاة الجميع في الجانب الأسهل؟ وما هو انعكاس ذلك على العلاقة بيني وبين الزعيم؟.

وهكذا .. كان المتحمسون لي في الجريدة والحزب يرددون في السابق أني المفكر الثاني في الحزب (بعد الزعيم طبعًا) الآن بدأوا يتهامسون: لقد أثبت أنه المفكر الأول وليس الثاني، ولأن الزعيم وقريبه المقرب لرئيس التحرير صنعا الكثير من العداوات بسياستهم الإدارية القائمة على الدفع بالموالين لهم بشكل شخصي وتام ليس للمناصب القيادية فقط في الجريدة والحزب وإنما أيضًا إلى اجتناء الثمار الممكنة في ظل وضع الحزب القائم كأكبر حزب معارض والمتحالف مع أكبر قوة في القوى السياسية الموجودة بالبلد وأكثرها غنى، والمدعوم من دولة من أهم الدول المؤثرة في الشرق الأوسط، هذا غير الاستفزازات البالغة والحادة لرئيس التحرير الأستاذ حمدي أمين من حيث تكريس صفحات الجريدة لما يخدم أغراضه بشكل شخصي إلى الدرجة التي تم فيها تكريس بعض الأعداد كاملة لأحبار اعتداء أمني عليه ادعاه ـ والله أعلم بصحته ـ وردود الفعل السياسية والجماهيرية ـ لثائرة ـ التي نجمت عن ذلك. كل ذلك أضاف إلى المتحمسين لي أولئك الذين أرادوا مكايدة الزعيم وقريبه المقرب رئيس التحرير وهكذا تحول الهمس إلى كلام معلن.

أما من يفترض فيهم أنهم منافسون لي من خصومي وقد أخذوا يرددون في سخرية: هو فاكر نفسه من كي يناقش ابن رشد.

الغريب أنه بعد عامين من ذلك أصدرت كتابًا عن ابن رشد صممت إليه الندوة المذكورة التي شكلت ما يقرب من نصف الكتاب، أما القسم الآخر منه فقد كان دراسة خالصة عن فكر ابن رشد، انتهيت

فيها إلى أنه بعيدًا عن موقفه من الإسلام فإن تبعيته العمياء لأرسطو وتقديسه لمنطقه الصوري أعاق التقدم العلمي القائم على المنطق التجريبي، وضربت مثلاً لذلك هو اشتراطه على طلاب علم الطب دراسة المنطق الأرسطي أولاً لمدة عامين حتى إتقانه لكي يتمكنوا من استيعاب علم الطب بعد ذلك، أي أن ابن رشد كان معيقًا للتقدم وليس دافعًا له، ومن ثم فإن هذا الاحتفاء الغربي والعلماني لابن رشد يأتي في سياق العمل على نفاذ المرجعية العلمانية لعمق العقل الإسلامي من خلال تلك العباءة ليس إلا، وعندما نشر مختصر دراستي في إحدى المجلات الغربية الناطقة بالعربية جاء في تقديم هيئة التحرير لها: إن ما ذهب إليه الكاتب في هذا المقال لم يسبق فيه أحد من القدماء أو المعاصرين. وهو نفس تعليق الدكتور المسيري بعد قراءته للكتاب.

ومن الطريف أنني كنت حينذاك في حاجة إلى أرشيف إحدى الجرائد الثقافية الحكومية، فقلت في نفسي عند ذهابي إليها: من المناسب أن أمر على رئيس تحريرها أولاً لأسلم عليه.

وكان من بين الكتب التي أحملها في يدي كالعادة كتابي هذا عن ابن رشد والذي كان يمثل غلافه الوجه الظاهر من تلك الكتب التي أحملها وإذا برئيس التحرير هذا يفاجئني وأنا داخل إليه ـ وقبل حتى أن أسلم عليه ـ بقوله:

ـ عنوان كتابك هذا لخص الملعوب كله.

وكان عنوان الكتاب تحديدًا هو: ابن رشد وفيلم المصير ويوسف شاهين وفيلم الآخر وعولمة الحرب ضد الإسلاميين.

وهكذا يعترف العلمانيون صراحة في لقاءاتهم وجلساتهم الخاصة بكل ما يدور الجدل حوله في الكتب والجرائد والمجلات والقنوات

بين النفي والإثبات . وإن كنت ذا قدرة خاصة في نقد العلمانيين فإن ذلك يعود ـ في جانب كبير منه ـ لصداقتي القديمة معهم والتي يمكن القول إنها لم تتغير كثيرًا على الرغم من نقدي الحاسم لهم.

ومن الطريف أيضًا بتلك المناسبة أن رئيس التحرير هذا ترجاني في هذا اللقاء أن أكتب في جريدته هذه ـ وهو أمر لم يخطر على بالي إطلاقًا عندما قررت لقاءه ـ فاعتذرت له وبينت له أن ذلك يعود لاختلاف توجهاتي مع توجهات الجريدة وأنا لا أريد أن أسبب له إحراجًا بذلك . وعندما وافقت بعد إلحاحه عليّ نشرت لديه ثلاث أو أربع مقالات فترجاني بعدها ألا أنشر لديه .

وقد تعلمت من ذلك أن بعض الجرائد الجديدة تعمد في أول أمرها إلى العمل على النشر لديها للكُتاب المشاهير من شتى الاتجاهات لتكسب نفسها مصداقية أمام الجماهير أنها تعطي الفرصة للرأي والرأي الآخر فإذا ما استقر الأمر احتفظت بكتَّاب اتجاهها فقط . أما الكتَّاب الآخرون فإما إنهم يتم تطويعهم (من خلال المال بالذات) أو يتم تنحيتهم بعيدًا.

وتبعًا لهذا الدرس فقد فوجئت في عام ألفين وثلاث أو أربع بشخص هام يتصل بي تليفونيًا ويقول: إن هناك جريدة ليبرالية كبرى مزمع إصدارها قريبًا وقد تم إدراج اسمك في كتابة مقال أسبوعي وأجر ثابت بعقد مكتوب ونريد أن نعرف عنوان منزلك لنرسله إليك.

فرفضت رفضًا قاطعًا وأنا أقول في نفسي: إنهم لا يريدون من أمثالي سوى إكساب الجريدة مصداقية أمام الجماهير . وفعلاً مالم يحدث معي، حدث مع غيري . وهذه الجريدة هي الآن إحدى أهم الجرائد في العالم العربي.

أعود لحكايتي مع الزعيم

فــي إحدى زياراتــي المعتادة للجريـدة والحزب بعد موضوع ابن رشــد هذا ، سمعت من بعض أنصاري وبعض مكايدي الزعيم ورئيس التحرير حكاية كوني المفكر الأول للحزب وليس الثاني فقلت لهم محذرًا :

ــ إياكم من ترديد هذا إنكم بذلك تعجلون بنهايتي هنا.

وبالفعل تعقدت للغاية أية خطوة تقدم لي في الجريدة والحزب، وبدت العلاقـة بيني وبين الزعيم يشـوبها التوتر الشـديد والاتهامات المتبادلة، وابتـدع الزعيـم ذريعـة مختلقة ليبـرر مواقفه تجاهي أمـام الضغوط التي يمارسـها المثقفون عليه وعلى رأسهم الدكتور المسيري نفسه لإعطائي دورًا أوسـع فـي الجريـدة والحزب وهي إنـي ناجح حقًـا فكريًا ولكني فاشـل إداريًـا ، ومن ثـم لا يمكن الاعتماد علي في شـيء من ذلك. فقلت يكـذّب هذا نجاحي فـي إدارة ندواتي وندواته ، ومـا أوقف تلك الأخيرة إلا سـطوه هـو علـى إدارتها بدلاً مني وفشـله في ذلك، وعندمـا ألح عليه المسـيري بالعمـل على انضمامي للنقابـة قال له: أوعـدك أنني لن اتقدم بالقائمـة إلا وهـو أول اسـم فيهـا . أمـا مـا يتعلـق بتعويـق نشـر مقالاتي ومـا يحـدث لها من حذف أو إخراج فني مسـيء، فزعـم الزعيم أن حامد العروسـي هـو الـذي يقف وراء ذلـك إنه غيـر مطالب بالتفرغ لمشـاكل الجريـدة وإن هـذا الذي يحدث مظهر من مظاهر فشـلي الإداري لأني لم أستطع أن أحل مشاكلي مع العروسي، بل مع كثيرين غيره في الجريدة والحزب أشـكو من حربهم علي وتدبيرهم المكائد لي . فقلت لمن نقل لي هذا :

ــ إن يد العروسـي الطليقة في الأذى لي ولغيري كما تعرفون جميعًا ليسـت هـي يد العروسـي حقيقـة وإنما هي يـد الزعيم نفسـه، إن

العروسي هو بمثابة مستر هايد الذي يؤدي الأعمال القذرة بدلاً من الدكتور جيكل الطيب الذي يمثله الزعيم والذي يريد تلك الأعمال ولا يستطيع القيام بها بنفسه.

كان من الممكن أن تتهم العروسي بأي تهمة من الاتهامات دون أن يلومك أحد . فالكثيرون قد قاسوا من لدغاته والجميع قد شاعت بينهم أفعاله، وشاهدوا بأعينهم كيف كانت تتم صفقاته الثقافية من خلال الجريدة، وإذا كنت الطرف الأساسي الشاهد على ما فعله في موضوع ابن رشد ويوسف شاهين، فالروائي السياسي الشهير شهد لي ولآخرين عن الدور المزدوج المشبوه للعروسي بين الإسلاميين والعلمانيين في القضية الشهيرة التي أثارها حول إحدى الروايات. وأما ما كان يرويه عنه البعض من أعمال ابتزازية لجهات محددة في مقابل صفقات مشبوهة، فلا أعلم عنه شيئًا وهو أمر طبيعي لكوني بعيدًا عن مثل هذه الأمور، ولكنه حتى إن صدق هذا فإنه يهون، أما أعماله التي ذكرتها والتي يجب وصف الشق المتعلق بالقضايا الثقافية الحساسة منها بالأعمال المريعة.

ولم يعدم العروسي مع كل أفعاله هذه أن يصنع لنفسه دورًا بطوليًا محسوبًا أمام الدائرة الفاعلة في الجريدة والحزب، فقد شاهدته بعيني يصيح ساخرًا بعد دخول ابن الأستاذ حمدي أمين إليه عقب تعيينه رئيسًا للتحرير:

ـ افسح يا ابني أنت وهو لرئيس التحرير القادم .

وعلق على تخصيص أمين عدد الجريدة على حكاية الاعتداء عليه من جهة الأمن بقوله:

ـ هذا العدد لرئيس التحرير، والعدد القادم لعم رئيس الحزب،

والذي بعده لشخص أيضًا من عائلتهم.

أمـا العجيـب حقًـا هو أنـه في خضـم خلافاتي مـع الزعيم عام سـبع وتسـعون تقريبًا فوجئت بأحد اثنين: العروســي والصحفي المنتمي للتيار إياه والذي أشـرت إليه من قبل أنه خلف العروسـي في مسـألة تعويق نشر مقالاتي، وهو الصحفي الوحيد الظاهر ـ لأن كثيرًا ما أفاجأ بتكثيرين يعملـون من الباطـن ـ المنتمي لهذا التيار الذي اسـتمر بالعمل بالجريدة إلـى آخـر لحظة .. أقول فوجئـت بأحد الإثنين ـ لا اتذكـر من الذي بدأ بذلك ـ يذكر الزعيم في الجريدة بأشـنع الصفات كالأفاق والمحتال والنصاب، والآخر يؤكد عليه، ويردد نفس الكلام بشـكل علني أمام الناس بالجريدة.

وطبعًا شـككت أن المسـألة قد تكون بمثابة فخ لي فانسحبت من أمامهما، ولكنها بالطبع أكبر من مجرد ذلك .

هـذا مـا يتعلق بجانب العروسـي في حكاية ضربي المثـل بالدكتور جيـكل ومسـتر هايد، أما ما يتعلـق بالزعيم فحدث ولا حرج، فأبسـط الأشـياء أنه قد ترسـخ الوعي لدى الجميـع بالنهاية الحتميـة لوضعي في الجريدة والحزب وأن المسـألة مسـألة وقت، وبدأ رجال الزعيم يتعاملون معي على هذا الأساس، أما المتحمسون لي فدفعهم الإشفاق عليّ بتقديم وصـلات النصائح لي بالملاينة والمداهنـة والتحايل والمداراة، بل وحتى التزلـف والنفـاق. أما الأمر الذي شـاع بين الجميع أن مبـروك قد يكون مفكرًا حقًا، ولكنه ليسـت له خبـرة بالحياة والدهاء واللف والدوران، فهـل يصدق القـارئ أني كنت أقابل هـذا الكلام بالضحك الشـديد، (طبعًـا مـا تبقـى لـدى من مـال الخليجي قد سـمح لـي بالتنفـس ومن ثم الضحك بعد الظروف إياها)

فكنت أقول لمحدثي بذلك: أأنتم الذين تقولون ذلك عني "أنا الذي قضيت عشرات السنين في شوارع شيكاغو .. إن كل الاحتيالات و المؤامرات والصفقات والأفخاخ والكمائن التي تحدث في الجريدة والحزب أنظر إليها على أنها لعب عيال بالنسبة لما واجهته في صراعي المصيري الخاص، ولقد قابلت من الدهاة في هذا الصراع أشخاصًا لو قورن بهم أعتى الماكرين لديكم لغدوا بالنسبة إليهم أناسًا تافهين .

وهذا ما يجعلني أنظر إلى كل ما يحدث من هذه الأمور ككتاب مفتوح.

أما حكاية النصائح التي تقدم إلي بالمداهنة والتزلف والنفاق فبعيدًا عما من الممكن أن أدعيه من موقف أخلاقي فإن هذه الأمور قد تستلزم الضعيف في مواجهة الأقوياء، ولكني لست كذلك على الإطلاق ولا يلزمني غباءُكم إذا كنتم لا ترون ذلك، بل الأدهى من هذا إني لا أرى في هذه الجريدة والحزب من هو أقوى مني، ولكي تفهموا هذا ولا تتعجبوا من كلامي فإن المسألة تتعلق لدى الإنسان بما يريد، وأنا أريد شيئًا وحيدًا فقط هو أن أكون مفكرًا ذا دور رسالي وفي هذا السياق فإنني أعلم جيدًا أنني ساتجاوز زعيمكم هذا الذي ترتعشون أمامه، هذا إذا لم أكن قد تجاوزته بالفعل، أما مسألة اتساع الشهرة فماهي إلا مسألة وقت . وعلى هذا فلماذا أقدم التنازلات التي تتحدثون عنها؟!

طبعًا الكثير من هؤلاء نظروا إلي على أنني مجنون .

في ظل هذا التوتر البالغ جاء ميعاد السفر إلى الطالب الخليجي .

كان الخليجي قد أطلع من خلال معاونه على الكثير من الأمور التي حدثت لي فاستغل الموقف غاية الاستغلال، وعلى الرغم من أن هذا الشخص من دولة يضرب بها الأمثال بطيبة أهلها ـ وقد لمست ذلك

بنفسـي أثنـاء زياراتـي لها ــ إلا أننـي قد ابتليت بهذا الشـخص على وجه الخصوص ولأن حكايتي معه تسـتحق فصلاً مسـتقلاً فإنني سـأختصر هنا الأحداث الهامة من تلك العلاقة المرتبطة بهذا السياق.

كان الرجـل قد حاول اسـتغلالي وخداعي بعدم حصولي على كامل حقي من تدريسـي له في السـنوات السـابقة لدراسـته التي دامت لحوالي عشر سنوات دون فائدة بعد أن خدعني في السنة الأولى منها فقط . وقد آل ذلك في دخيلة نفسه السوء إلى رغبة في الانتقام (فكم أنا قد أجرمت بحقـه لكونـي لم أخـدع إلا مرة واحـدة) وعندما علم بما حـدث وجدها فرصة سـانحة لكي يملي عليّ شـروطه خصوصًا أنه قد وجد مني رغبة في السـفر إلى بلاده بحثًا عن عمل مناسـب حتى أخرج من هذه المصيبة التـي نجم عنها فقداني كل ما أملك . وعلى ذلك اشـترط علي أن كلفة السـفر هذه المرة على حسـابي وليس على حسابه كما كان يحدث في كل مـرة ، وممـا يرتبط بذلـك أن أحدًا ممن يحتاج إليهـم من المصريين أتى إليه بشخص مسـكين للغاية ارتضى أن يعمل طباخًا لديه على الرغم من حصوله على ليسـانس الحقوق . هذا المسـكين كان يبكي أمامه كالطفل لكي يسـاعده في الحصول على فرصة للعمل في بلاده ، ولما وافق بعد إلحاح وطول بكاء اشترط عليه أيضًا أن تكون تذكرة السفر على حسابه .

كان عام سبع وتسعون الصعب قد انتهى ونحن تقريبًا في شهر فبراير من الثامن والتسـعين ، اتصل بي الخليجي لاستعد للسفر برفقة الشخص الآخـر ، كان مـا تبقى لـدي من مال تدريسـي له في المرة السـابقة أقل كثيـرًا من ثمن تذكرة السـفر (ذهاب فقط) فحاولـت أن أكمل الثمن من الآخرين واضطررت ــ رغم العلاقة المتوترة بيننا ــ أن أكلم الزعيم

فـي الأمر وحدثتـه عن عزمي على البحث عن عمل يناسـبني هناك، بعد بضعة أيام أرسل لي مع حمدي زعتر جزءًا كبيرًا من ثمن التذكرة.

عاملنـا الخليجي معاملة لا يمكـن توقعها، لا لأن له من الأخلاق التي تردعـه عن ذلك ولكن لأن ذلـك يصطدم مع أخلاق وتقاليد من يحيطون به من أصدقاء وأهل خصوصًا الذين يعلمون منهم من أكون. ولكن يبدو أن ما كان يحمله من حقد تجاهي دفعه إلى تجاوزه ذلك.

وضعنا في فندق قد يكون الأسوأ في تلك البلاد بعد ان كان يسكني معه في فيلته في الزيارتين السـابقتين، وعندما مر بنا أحد الأعياد العيد الكبير على ما أذكر تركنا ثلاثة أيام محبوسين في الفندق دون طعام ودون قدرة على الخروج لانعدام المال.

في هذه الأيام الثلاث تعرف الشاب مرافقي على سالم اليمني وهو رجل أربعيني يعمل لدى إحدى الشـركات الاسـتثمارية، كان الرجل اليمني يحمـل صفـات العرب الأصيلة التي نقرأ عنها في الكتب، فقد اسـتطاع إسعافنا بالطعام في اليوم الثاني أو الثالث لا أذكر، واصطحبنا معه في رحلة عمل حيث كان يطوف في مدن الدولة ليتعرف علي أسعار حقائب السـفر المنافسـة لشـركته، وفـي أثناء ذلـك أعجب بي الرجـل إعجابًا شديدًا وصار يحتفي ويشيد بي في كل مكان وطلب مني بإلحاح شديد طلبـا خاصًـا، هـو أن أدعـوه لحضور حفـل زواجي إن حـدث، وهو ما لم يحـدث حتى الآن. أما صلتي به فقـد انقطعت بعد ذلك بوقت غير طويل، علي الرغم من أنني أذكر انه اتصل بي مرة بعد عودتي إلي مصر ولكن تلك هي الأيام.

من جهتي في هذه الأيام الثلاثة قد اتصلت تليفونيا بجمال محمود وتاج أحمـد وهمـا صحفيان من تلاميذ الزعيم القدامى فـي مرحلته الانتقالية

الاشتراكية مع انتمائهما الإسلامي الواضح خصوصًا فيما يتعلق بجمال محمـود. فيمكـن القول أنـه كان أكثر تلاميذ الزعيـم القدامى ثقافة وكان يحمـل لـي منـذ علاقتـي القديمة بالزعيـم معزة خاصـة كباقي تلاميذه هؤلاء. وأذكر ذلك الجدل اللطيف بيننا حول قائل عبارة: وكل صحابي في الحقل والمحجر ...... يحبون الشيوعية

فقال إنه محمود درويش

ولا أدرى أنـا كيـف اختلـط علي هـذا المقطع من القصيدة الشـهيرة لمحمود درويش (سـجل) بمقطع آخر لسميح القاسم هو: ربى الشيوعيون شعرك.

وكان الحـق معـه وطبعًـا دار حوار غيـر قصير بيننا والـذي أدركت مـن خلاله عمق ثقافة الرجـل الأدبية والفنية فكانت بيننا صداقة لطيفة انقطعـت حيـن اختفي فجأة ـ كأغلـب تلاميذ الزعيـم القدامى ـ بعد فترة وجيزة من معرفتي بهم.

حيـن اتصلـت بهما في هذه الرحلة دار بيننا حوار طويل حول ما يحدث فـي الجريـدة والحزب ولم أجد أي اسـتغراب لديهما فيما كنت أحكيه عن ذلك، ولكن الذي فوجئ هو أنا، فقد أخبراني أن الاسم الذي كان متـداولا بينهـم أيام الزعيم الأولي عن العروسـي هو المجوسـي، وعندما اعترضت عليهما لما يحمل هذا اللقب من فحوي عقائدي لا إسلامي، قالا لـي أو قـال لي جمال محمود تحديدًا: إنك لم تسـمع مثلنا بعض هرطقته. (ملحوظة: حدثني عن هرطقاته هذه مصدر آخر)

سألته:

ـ إذا كان الأمـر كذلك فلماذا يقربـه الزعيم منه ويجعله رجله في الجريدة.

ـ لأنه (..........) وهو يحتاج لهذا النوع لينوب عنه في بعض ما يريد.

(أي نفس المعنى الذي توصلت له حين ضربت بهما المثل بدكتور جيكل ومستر هايد).

كان الحديث تليفونيا وحين أخبرته عن الظرف الطارئ الذي أعيش فيه مع الخليجي أرسل لي مع تاج مبلغًا من المال يمكنني الاستعانة به في أزمات تخلي الخليجي عنا في الطعام والشراب.

حدثتهما عن مساعدتي في اللحاق بالعمل في أحد جرائد تلك الدولة أو حتى نشر مقالاتي فيها فأخبراني أن ذلك صعب حقًا خصوصًا بالنسبة لي وذلك بسبب اتجاهات القائمين علي تلك الصحف ولكنها سيحاولان ذلك. وحينما تفرغت قليلاً لدراسة جرائد تلك الدولة وجدت أن ذلك مستحيلاً لسيطرة العلمانيين الماركسيين تحديدًا علي أغلب جرائد تلك الدولة في ذلك الحين، ومع ذلك قمت بعدة محاولات فاستقبلت بتقدير كبير ورفض تام. أما الشئ الوحيد الذي رحبوا به من أفكاري فهو كتابي (موقف الإسلام من الحب) لدرجة أن أحد رؤساء التحرير هؤلاء اتصل بي أكثر من مرة بعد عودتيإلي مصر للحصول علي نسخة منه.

بعد اتصالي بجمال محمود بعامين علمت أن جمال محمود قد رحل إلي رحمة الله.

حزنت كثيرًا جدًا كان جمال محمود علي ما أعتقد ـ بحسب ما رأيت من هيئته ولكنته أحد أهل النوبة الأفذاذ الذين تقذف بهم إلي القاهرة، ذكيًا عميق الثقافة، هادئ الطباع، ملتزمًا إسلاميا رغم عواصف الإلحاد التي يقحمه فيها المجال الثقافي الذي يعمل فيه، نحسبه كذلك ولا نزكى علي الله أحدًا وهو أكثر تلاميذ الزعيم

القدامى الذي دفعني للتساؤل: كيف يترك الزعيم شخصًا كهذا يفلت من يديه، بل ويتمرد عليه، لقد كان للزعيم ثروة من الشباب الذين كان من الممكن تنميتهم في اتجاه إسلامي أكثر فاعلية مقارنة بالاتجاهات الإسلامية الأخرى مع الواقع المعاصر يستطيع التعامل مع الفن والفكر والسياسة ويكون له دور ريادي في تبنى قضايا الفقراء والمستضعفين بمنظور إسلامي، لكن الزعيم ترك كل تلاميذه وأهمل دوره الفكري بوجه عام من أجل الصعود إلي الزعامة السياسية وقبل أن أنهى هذه الفقرة أشير بقدر كبير من الأسى إلي أنني شاهدت بعيني أحد هؤلاء التلاميذ المتميزين جدًا وكان تخصصه المجال الفني أيضًا وتحديدًا المسرح في ظروف مادية شديدة السوء بعد أكثر من عشرين عامًا من إهمال الزعيم له.

ولشعوري بالحميمية أثناء كتابتي لهذا بيني وبين تلاميذ الزعيم القدامى ثار لدى التساؤل: لماذا لم أفكر أن أقود هؤلاء التلاميذ الذين كنت أضمن ولاء أغلبهم علي الأقل لي ليس فقط لما كانوا يعاملونني به من احتفاء وحميمية ولكن لما كانوا يعاملونني به بشكل معلن كمرجعية.

فوجدت أن هذا الفرض كاد أن يكون مستحيلاً ليس فقط لاستغراقي في صراعي الكوني الخاص، ولكن لما أردده دائمًا من كون الفكر صناعة ثقيلة يكاد يمثل دور رأس المال فيه نفس الدور الذي يمثله في الصناعات الثقيلة. فإذا كان إصراري علي إنتاج فكرى المستقل في ظل ظروفي الاقتصادية الخاصة ينظر إليه البعض علي أنه عمل جنوني. فما بالك بالحرص علي بناء واحتضان تيار فكرى. ونفس الأمر بالنسبة لهؤلاء الشبان في ذلك الوقت. فرغم نواياهم الحسنة وطموحهم لإقامة

مشروع فكرى وسياسي لا يصطدم مع دينهم، بل يكون قائما علي قواعده ومبادئه ويكون منافسًا للتيار الديني إياه والتيار الماركسي اللذين كانا سائدين في ذلك الوقت، فإن ذلك لم يكن يتسع له واقعهم المرير حيث يعيشون علي الوفاض الكريم وأقصى ما يطمحون إليه للخروج من هذا الواقع الطاحن هو التعلق بمشبك النقابة ومن ثم ضمان الاستقرار في عمل يضمن لهم القدرة علي الكفاح من أجل بلوغ العيش المعقول .

نعود لحكايتنا مرة أخرى.

استمريت في محاولة اللحاق بعمل في الجهات الثقافية في تلك الدولة وأثناء ذلك فاجأني الخليجي بحلول ميعاد رجوعي وبأني مطالب بدفع ثمن تذكرة الرجوع، أذهلني ما يقول، فصرخت فيه:

ـ نحن لم نتفق علي ذلك.

وأفهمته جيدًا أن يرتدع عن هذه اللعبة وإلا سأسبب له فضيحة كبرى.

أضطر أن يدفع ثمن تذكرة العودة علي أن أسبقه إلي مصر ثم اللحاق به في شقة مدينة نصر بعد حضوره بعدى بقليل للاستعداد لفترة الامتحانات.

بمتابعتي للمجلات الثقافية الكبرى الناطقة بالعربية أثناء وجودي في الخليج ثم عودتي إلى مصر أدركت أن محور الاهتمام الفكري العالمي يدور حول شئ واحد في ذلك الحين هو: العولمة.

برغم الأبحاث الكثيرة التي قرأتها والتي تتحدث عن آراء الاتجاهات المختلفة حول الموضوع فلم أجد بين ذلك بحثًا واحدًا يتحدث عن ذلك من وجهة نظر إسلامية فجاءتنى الفكرة في أن أجمع أكبر قدر من أصحاب العقول الإسلامية الذين يطلق عليهم صفة المفكر الإسلامي

سواء كان ذلك عن استحقاق أم لا ، بالإضافة إلي عدد من الأكاديميين من ذوى نفس التوجه والمتخصصين في المجالات الهامة المتعلقة بالموضوع كالفلسفة والاقتصاد وعلوم التقنية وإقامة مؤتمرًا إسلاميًا حول الموضوع.

انتهت امتحانات الخليجي وعدت مرة أخرى إلي الجريدة والحزب وأنا خالي الوفاض ماليًا سوى ما تبقي أجرى عن التدريس له ، استقبل البعض الموقف بالأسف لي والبعض بالشماتة وأغرب أشكال الأخيرة ما جاء علي لسان أحد المعتقلين السابقين اللذين أشرت إليهما فيما سبق ، إذ قال معلقًا وبسخرية شديدة:

_ الذي يسمع إنك ذاهب إلي هذه الدولة يقول إنك ستفتح عكا ، لا أن تأتى هكذا : أبيض يا ورد.

تعجبت حقيقة من قوله هذا ، فعلي الرغم من كوني أعلم أنه ورفيقه يحملان لي حقدًا مريرًا لما حققته من مكانة فكرية حتى صارًا يشنعان علي في كل مكان ويتهمانني بالغرور والجنون ولكننى لم أتصور أن يمتد ذلك الأمر إلي الغنى والفقر أيضًا فيترقب أحدهما حدوث غنايا بالحقد والضغينة ويتلقى واقع فقرى بالشماتة والسخرية.

وقلت: كيف من الممكن أن يكون أمثال هذه النوعية من البشر قد شاركت في قيادة بعض التيارات الجهادية ، ألا يفسر هذا الكثير من التخبط والعشوائية والأعمال العدوانية الحقودة التي تقع من بعض هذه التيارات وجود أمثال هؤلاء في صفوف قيادتها والذين لا أعلم عنهم سوى البحث عن السلطة أو الشهرة والمال بأية وسيلة. لا أعمم ما أقوله من صفات فقد قابلت ممن كانوا ينتمون إلي هذه التيارات الجهادية من هم علي أعلي قدر من الإخلاص والأخلاق الإسلامية العليا ولكن فيما

يتعلـق بفقرهم في الوعي الثقافي ومـدركات الواقع ومرونة التعامل معه فحدث ولا حرج.

أمـا هذان اللـذان أتحدث عنهما فإن ما حدث مـن تحولهما في النهاية إلي التيار الليبرالي بشكل كامل هو أمر طبيعي جدًا بالنسبة لما خبرته عنهما من أمور.

عرضت فكـرة انعقاد مؤتمر حول (الإسـلام والعولمة) علي الزعيم، وأبلغـت بهـا بعض قيـادات الحـزب الآخريـن فأعجب الجميـع بالفكرة ورأوا في مبادرة الحزب بالقيام بأول مؤتمر حول هذا الموضوع مكسب كبيـر لـه ولقياداتـه الذين ربمـا لم يسـمع معظمهم بشـكل واضح عن كلمـة عولمـة حتى هذه اللحظة، ولذلك لم يحـاول أحد مجرد المحاولة فـي خطف الكرة التي كنت امتلكها جيدًا في يدي أو حتى منافسـتي عليها لدراسـتي للموضوع لعدة أشـهر سـابقة لذلك، ولـم يكن ممكنًا للزعيم وهو الشخص الوحيد الذي يفترض تخصصه الاقتصادي التصدي لذلك ـ أن يترك قيادة الحزب ويتفرغ لموضوع المؤتمر.

إذن لا منـاص من تسـليمي اللعبـة كاملة وهكذا أختصـر الموضوع الزعيم حين قال:

ـ معك (كارت بلانش).

طبعًـا كان من المسـتحيل لشـخص مثلي أن يطمئن ببسـاطة أو بغير بسـاطة لاستسـلام الزعيم لي في هذا الموضوع أو تسـليمه أياى فأكون بذلك أول شخص يدعو إلي إقامة مؤتمر إسلامي حول هذا الموضوع الذي يهـز العالـم أجمع في العالم العربي ويحدد أسـماء محاضريه (مشـاركًا هـو نفسـه كمحاضر) فضلاً عن إدارة المؤتمر نفسـه وتحديد جلسـاته ومحاضراتـه، أي فعليًـا أن أكون رئيـس المؤتمر وليس مجـرد مديره،

وإن كانت هذه الصفة الأخيرة هي التي اكتفيت بالتعامل من خلالها شكلاً حيث أن الواقع الثقافي والسياسي في مصر لا يمكن أن يسمح بأكثر من ذلك بالنسبة لشخص في مثل سني حينذاك علي الأقل.

إذن لا يمكن للزعيم أن يترك الأمر هكذا وإلا تكون كل الأحداث السابقة هي مجرد عبث في عبث.

ترى ماذا سيفعل الزعيم؟ كيف من الممكن أن أؤمن نفسي مما يمكن أن يمكره لي؟

ليس بيدي سوى شئ واحد هو أن أأمن نفسي من خلالها أسهل يد يمكنه أن يضربني، وأكون جاهزًا لمواجهة ما سوى ذلك، وأسهل يد هذه لاشك هي العروسى.

قلت له بصراحة تامة:

_ لي شرط للقيام بهذا المؤتمر.

_ ما هو؟

_ العروسي لا يتدخل من قريب أو بعيد في هذا الموضوع.

_ ولما يتدخل؟

_ حتى كصحفي لا يكون له شأن من قريب أو بعيد في تغطية المؤتمر.

_ لك هذا.

_ أؤكد عليك. اتفقنا علي ذلك.

_ اتفقنا. ولكن لم تقل لي كم تحتاج من الوقت لإعداد هذا المؤتمر؟

_ مجرد أسبوعين.

_ أرنا الهمة .

لكـــي تعقــد مؤتمرًا لابــد أن تضع له أيامًا ومواقيتــا محددة، هذا من ناحيــة ومــن ناحية أخــرى فــإذا كان العــدد المفتــرض للمحاضرين في المؤتمر حوالي خمســة عشر محاضرًا فلابد أن تكون لك قائمة بحوالي ضعــف هــذا العــدد حتى تســتطيع من خــلال عمليــة معقدة مــن التباديل والتوافيق أن تختار أفضل مجموعة ممكنة تتناسب مواعيدها مع أفضل الأوقــات الممكنة، وبهذا تــم تحديد يومي المؤتمــر بالضبط، وتحديد قائمــة محاضريه ومواعيد محاضراتهم وإذا لــم تكن القائمة قد جمعت كل المحاضرين الذين رغبت في حضورهم فهي لاشك قد جمعت أغلب أفضــل العقــول الإســلامية الشــهيرة في ذلــك الوقت (وصفهــم المفكر الماركسي الكبير محمود أمين العالم في تعليقه علي المؤتمر ـ كما أشرت في موضع آخر ـ بأنهم من أهم رموز التوجه الإسلامي). فيكفي أن تجمــع هذه القائمــة الدكاترة: عبد الوهاب المســيري ومحمد عمارة وكلاً من محمد الجليند وأحمد عبد الرحمن أســتاذي الفلســفة ومحمد عبــد المنعــم البــرى عميد كلية الدراســات الإســلامية بالأزهر الأســبق وســيد دسوقي أســتاذ هندســة الطيران بالإضافة إلي الزعيم نفسه (وهو من هو في عالم الاقتصاد علي الأقل) لكي نقول ذلك.

انتهــى اليوم الأول من المؤتمر بجلســتيه علي خير، وكذلك الجلســة الأولــي من اليوم، وبقيت الجلســة الرابعة والأخيــرة وكان من المقرر أن يتحدث في هذه الجلســة أربعة أشــخاص: الدكتور المسيري والدكتور أحمد عبد الرحمن الذي أرسل من ينوب عنه في قراءة ورقته عن موضوع المؤتمر، والدكتور عبد المنعم البرى عميد كلية الدراسات الإسلامية بالأزهر ســابقًا، وكاتب هذه السطور. وكان من المقرر أن يتحدث أولاً الدكتور المسيري.

وفجأة ظهر حمدى زعتر أمين مساعد الحزب ومعه اثنان من أعضاء اللجنة العليا له وهما أستاذان جامعيان كبيرا السن والحجم وكلاهما منهما برتبة عميد كلية، هذا إن لم يكن قد تولي العمادة بالفعل وكان أحدهما يتبع التيار إياه ويزعم انفصاله عنه، مصطحبين معهم من؟

العروسي!!!............

وإذ بزعتر يقول:

ـ الأستاذ العروسي له كلمة يلقيها في المؤتمر .. أتفضل يا أستاذ عروسي، خذ مكانك بين المحاضرين كل الأشياء وكل أجزاء الصورة جمعت أمامي في أقل من الفونتو ثانية لقد قرر الزعيم البتر التام لكي يرتاح من هذا الورم المتضخم الذي أمثله له، أما هذا الصعود الأخير الذي يمثله نجاحي في هذا المؤتمر فسوف يقضى عليه بضربة واحدة وذلك بإقحام أشد أعدائي في المشاركة بأهم جلسات المؤتمر وإعطائه من المكانة ما هو يصغر أمامها بآلاف المرات، وإظهاري بذلك أمام الجميع خصوصًا المحاضرين والصحفيين الموجودين في القاعة أنى لا أملك من أمر المؤتمر شئ وأنى لست مديره ولا الداعي إليه ولا يحزنون، وإنما دوري هو مجرد سكرتير ينوب عن الأمين العام. وليس هناك أية أى ثانية من الوقت للتفكير ولا حاجة لذلك من الأصل، فالعروسي يصعد بالفعل إلي منصة المحاضرين.

خرج صوتي الممتلئ غضبًا:

ـ إنزل مكانك ثم متجها علي الفور إلي زعتر وأنا أقول.

ـ كيف يحدث ذلك وقد اتفقت وأنا متفق مع الأمين العام بعدم تدخل العروسي من قريب أو بعيد في المؤتمر كصحفي، فكيف

يشارك فيه كمحاضر.

ـ نحن أتينا إلي هنا من بيت الأمين العام وهو الذي قال لنا ذلك.

ـ إذن الأمين العام هو الذي انقلب علي اتفاقنا وأنا مدير هذا المؤتمر ولن يحدث فيه إلا ما تم الاتفاق عليه.

اشتعلت القاعة توترًا بكل ما فيها سواء كانوا من الجمهور أو المحاضرين أو المتعاركين الوقوف ولكن لم يشأ أن يتدخل أحد ، فكل الموجودين إما أنهم من غير المرتبطين بالحزب ولا يفهمون ما يدور ولكن يشعرون أن هناك شيئًا ما وراءه دون أن يعرفوه. وإما قريبون من الحزب ويفهمون ما يحدث بالضبط ، والقلة منهم التي هي ضدي يكفيها العناتلة الذين يقودون المعركة ، أما الغالبية من المرتبطين بالحزب المتعاطفة معي فأنى لها أن تنحاز إلي في معركة مثل هذه تقف فيها أغلب قيادات الحزب في جهة وشخصي الضعيف في الجهة الأخرى بينما يقبع الأمين العام خلف المشهد متأهبًا لافتراس كل من تراوده فكرة الانحياز إلي بطرده خارج الحزب ومن ثم قطع كل ما يربطه به من المصالح (طبعًا أقول مصالح وهل تتصور عزيزى القارئ أن هناك أى ارتباطات بمثل هذه الأحزاب إلا التعلق بالمصالح)

أرجو ألا يكون استطرادى هذا قطع حبل مواصلة ، هذه المواجهة المشتعلة والمتصاعدة التي كانت بينى وبين القيادات الثلاث في المؤتمر.

رد علي هذه المرة أحد قيادات اللجنة العليا فقال بطريقة عسكرية آمرة:

ـ إذا كنت أنت مدير المؤتمر فنحن قيادات الحزب والذي يقام المؤتمر فيه والأمين العام هو الذي فوضك بإدارته ، وعليك أن

تأتمر بأوامرنا.

رغم ان هذا الكلام حاز علي سخريتي ولكن الغضب من مجموع ما يحدث وخصوصًا من فجاجة الغدر الذي ينهى به الأمين العام العلاقة بيننا أقول كان الغضب قد أستبد بى تمامًا وبدأ صوتي يتهدج والأنفاس تتلاحق وصوتى يتقطع ويبح.

ـ هذا الكلام الذي تتحدث حضرتك عنه عليك أن تنفذه في أموركم الحزبية .. أما هذا المؤتمر ... فهو مجرد اتفاق بينى وبين الأمين العام... ويخرج عن هذه الأمور.

أراد حمدى زعتر القفز فوق هذا الجدل فقال مشيرًا إلي العروسى.

ـ الناس غير فاضيين لهذه الحوارات، إصعد يا عروسى واجلس علي المنصة.

ـ أقول لك لن تبدأ الجلسة .... إلا ـ .. عندما ينزل .. من علي المنصة.

ـ يا دكتور المسيرى أترك هذا الكلام الفارغ وابدأ محاضرتك (كان المقرر حسب جدول الجلسة أن يبدأ المسيرى أولاً).

هنا حدثت الصاعقة التي أذهلت القاعة كلها. فقد قال الدكتور المسيرى:

ـ لن أبدأ الجلسة إلا لو أذن لي الأستاذ مبروك.

وبعد أن حاولوا امتصاص الصدمة قالوا له:

ـ حضرتك يا دكتور قد أتيت إلي المؤتمر استجابة للحزب أم استجابة لمبروك.

ـ لقد أتيت استجابة للأستاذ مبروك لا الحزب.

ضجت القاعة باللغط.

قوى صوتى مرة أخرى عندما صحت:

ـ قلت لكم لن تبدأ الجلسة إلا بعد نزول العروسى..

قولوا للشخص هذا أن ينزل.

توجه حمدي بالحديث إلي الدكتور عبد المنعم البرى اعتقادا منه أنه قد وجد حلاً.

ـ اتكلم أنت يا دكتور بري.

ـ لن أتحدث إلا لو أذن لي الأستاذ مبروك.

حلقت الدهشة فوق وجوه الحاضرين.

ـ يا دكتور برى هل أتيت إلي هنا من أجل الحزب أم من أجل مبروك.

ـ أتيت هنا من أجل الأستاذ مبروك.

أرتفع اللغط في القاعة بينما صحت أنا :

ـ أنتم تكسرون كل قواعد اللياقة والنظام.

ـ النظام هو ما يحدده الحزب ونحن ننفذ أوامر أمين عام الحزب.

ـ الأمين العام هو الذي غدر باتفاقي معه وهو يحاول بتلك المكيدة أن يجعل منى أراجوز.

ـ أحذر من الكلام الذي تقوله ، أنت عضو في الحزب ونحن قياداته ونأمرك أن تنفذ كلامنا .

ـ حـزب أي حزب هـذا الذي تتحدثون عنه؟!، هـذا أمر لا يهمني في شئ اعتبروني مستقيلاً بعد نهاية هذه الجلسة.

بيـن اللغـط القائم توجـه إليهم الدكتـور المسـيري بالحديث بلكنة شديدة الترفع.

ـ اسـمعوا ما أقوله. أنا رجل برجوازي وأعيش حياة برجوازية، وليس لدى استعداد أن أتحمل هذا التهريج.

بينما توجه الدكتور البرى لنا جميعًا قائلاً:

ـ يا جماعة غير معقول هذا الذي يحدث يجب أن تتفقوا علي حل.

قـام بعـض الحـاضريـن مـن الجمهـور عمليا باقتـراح حل للخـروج من المشـكلة بأن أتوا بكرسـي وطاولة صغيرة ووضعوهما أسـفل المنصة وقالوا للعروسي: فلتجلس هنا.

يبقى شئ واحد أود الإشارة إليه في هذا المشهد، وهو ملاحظة لا أعتقد أن أحدًا أنتبه لها سواي أنا والدكتور المسيري في كلمة العروسي التي قرأها من ورقة سبق تحضيرها، نظرًا لما اعتقده من استهانة الحاضرين. بكلمته بسبب الصورة التي ظهر بها في هذا المشهد.

هـذه الملاحظـة هـي أن كلمـة العروسـي المكتوبـة أي التي سـبق تحضيرها دون أن يرتبط ذلك بما حدث في الجلسة تكاد تكون موجهة للسـخرية من فكر المسـيري، فالعروسـي واحد من مجموعة سـطحية التفكير تتوسـطها كاتبة من جيل المسـيري والزعيم ومنتقلة أيضًا من اليسـار إلـي التوجه الإسـلامي أيضًا ويعيب هـؤلاء علي المسـيري عمق فكره الذي يكشـف سـطحيتهم فأقصى ما يسـتطيعونه خصوصًا تلك الكاتبة هو كتابة مقال حماسي ذي بلاغة جيدة، وأذكر أن المسيري قـد ذكـر أمامـي مرة أنه قد أجاب شـخصًا سـأله: لمـاذا تهاجمك هذه الكاتبـة بـكل هـذه الشراسـة؟! فأجابـه بقولـه! لأنها كانـت تريد أن تتزوجنى وقد رفضت وكان يتبع ذلك بقوله:

ـ طبعًا هذا لم يحدث ولكني أضحك.

الأهـم مـن كل هـذا أنـه يسـتحيل عقـلاً أن كل هـذه المؤامـرة قد

حيكت دون أن يعلم السيد الزعيم الأمين العام أن الفحوى الأساسية من ورقة العروسى التي تم تحضيرها مسبقًا هو السخرية من فكر المسيرى صديقه القديم.

أما العروسي فقد أضحى الآن أحد منظري شاشات المعارضة الإسلامية في الخارج يمارس فيها تحليلاته البلاغية ومتاجرته بأوهام الجماهير وتنبؤاته السياسية الخطيرة التي لا تسفر عن شئ ذا بال في النهاية.

انتهى المؤتمر وانفض الجمع، وما كان لمثلي أن يفكر في العودة فيما أعلنه أمام الجميع من تعهده بقطع علاقته بالحزب بعد المؤتمر. ولكن الفكرة التي راودتنى هي مقابلة الزعامة التاريخية لإطلاعه علي الأحداث كلها لا لقدرته علي إنصافي وإنما كيدًا في الزعيم لا أكثر بإعطاء الزعامة التاريخية أوضح صورة لما أنزلق إليه الزعيم.

ـ الذي شارك بالقدر الأكبر في صنعه ـ من تآمر مسف.

طبعًا لأن الزعيم هو المسيطر علي كل صغيرة وكبيرة في الحزب فقد أبلغته سكرتارية الزعامة التاريخية عزمى مقابلته وكيف أنهم موهوا علي مواعيد حضوره في زيارتي التالية للجريدة بعد الذي حدث في المؤتمر بادرني أحد الصحافيين بالقول: ـ

أعلمت الذي كتبته الأهالي عن المؤتمر لقد قالوا أن أهم محاضرتين فيه هي محاضرة المسيري ومحاضرتك وعلي هذا فالأستاذ كامل أمين صار شكله (وحش قوي).

في زيارتى التالية هذه لمقابلة الزعامة التاريخية مررت أيضًا علي الجريدة والتى هي تقع بالدور الأسفل من الدور الذي يقع فيه الحزب بنفس المبنى للتحدث العادي مع بعض أصدقائي فيها، شعرت بجو من

التوتـر تجاهي يسـود الجميـع والذين يتحدثـون معى يتحدثـون بقدر من التحفـظ، لـم تمض لحظـات حتى فوجئت بالعروسـي يحـاول خنقي من الخلـف وإلقائـي علي الأرض أعتـرف أنه ما كان يخطـر في تصوري أن الموضوع سيبلغ هذا المدى من الابتذال، كان العروسي هزيلاً جسمانيًا ومـا جـرأه على فعل أمر كهذا إلا ما يمور داخله من حقد واسـتناده علي دعـم الزعيـم، لـم أحتج إلا لحركة بسـيطة لأتخلص منـه وألقى به علي الأرض وأنا أصرخ فيه:

ـ ماذا تفعل أيها المجنون؟!

يحدث هذا بينما يشـاهد الصحفيون الموجـودون في المكان ما يقع في صمت تام دون حركة.

جاء صحافيان من الغرف المجاورة أحدهما كبير السن له صلة قرابة قوية بالزعيم والآخر شاب أظنه من التيار إياه، وهما يصيحان:

ـ أتفضل أخرج من هنا، أنت شخص غير مرغوب في وجوده.

نصحنـي بعض الصحافيين القريبين منى بالخـروج بعيون لا تحتاج أن تقول إن الأمر مبيت له ومحكوم.

ـ أنـا كنت أسـلم فقـط علي أصدقائـي، ومن قال لكمـا إنى أريد التواجد أصلاً، سأخرج أنا لحالي.

أمسك بتلابيبي قريب الزعيم وهو يقول:

ـ لا ستخرج بالغصب عنك.

أمسك بتلابيبي أحد السعاة الأشداء عاملاً علي حملي إلي الخارج.

كانت المقاومة معناها الإصرار علي الاسـتمرار في معركة بدنية لا طائل من ورائها وذات خسائر كبيرة. أما من الناحية الأدبية فالأمر كله

يلحق أشد الإساءة بهم لا بى، ومن ثم لم أقاوم.

تعالت الضحكات من الداخل معلنة الانتصار الكبير لفريق الزعيم.

لم تمر بضعة أيام حتى علمت أن مجموعة تلاميذ المسيري المرتبطة بالحزب قد ثارت جدًا عندما علمت بما حدث من اعتداء علي، لكن الطريف أن أحد أثنين (طالب دكتوراه غدا بعد ذلك بعقد ونصف وزيرًا في أحد الحكومات المصرية، والآخر مستثمر صغير خريج كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وأحد أبطال مصر السابقين في رياضة الجودو) أو كلاهما معًا قد اقترحا وجوب الرد علي ما حدث بالاعتداء علي الزعيم نفسه ليس تضامنًا معي فقط ولكن باعتبار أن الاعتداء الذي وقع علي هو بمثابة اعتداء علي كل المثقفين المرتبطين بالحزب، وعندما علمت بذلك لمته أو لمتهما عليه.

فمن غير المعقول أن نعتدي علي رجل كبير في السن، كما أننا إذا فعلنا ما يفعلون فما الفرق بيننا وبينهم.

في إحدى محاولاتي للخروج من بوتقة الزعيم عام ست وتسعين توجهت بمقالة ضخمة هي مختصر كتيبى (نظرية الفن الإسلامي) إلي جريدة الحياة اللندنية كان من فرج الله لي أن رئيس مكتبها حينذاك كان الدكتور وحيد عبد المجيد المفكر الليبرالي الشهير. استقبلني الرجل استقبالاً جيدًا فسألته:

ـ هل حضرتك تعرفني.

ـ طبعًا.

لم تمض مدة طويلة حتى نشرت المقالة في حوالي نصف صفحة، وبمكافأة مالية كانت بالنسبة لي حينذاك حلم من الأحلام، ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي يفسح فيها الدكتور عبد المجيد لي المجال

فـي إحـدى الـدور الإعلامية رغم نقـدي لفكره بعد ذلـك بعد صراعات النصف الأول من عام سبعة وتسعين في موضوعي الخاص والتي لم تترك لـي أي قـدر من التنفس في الكتابة توجهت إلي جريدة الحياة مرة أخرى فأدركت أن الدكتور وحيد قد ترك المكتب وتولي الأمر شخص آخر.

طلبت من أحد الإداريين مقابلة رئيس المكتب الجديد ، فتعلل لسبب من الأسـباب فلما أصررت علي ذلك افتعل مشادة بيني وبينه ، ثم اصطنع تمثيلية الدخول إلي رئيس المكتب وعاد إلي قائلاً :

ـ إنه يرفض.

ـ يرفض مقابلتي.

ـ يرفض التعامل معك من الأصل.

هذا الكون تحدث فيه أشـياء لا يمكـن إدراكها فربما لو لم تحدث هذه الواقعة لما كان لكل هذه الأحداث المؤسـفة التي وقعت بعد أزمة سـبع وتسـعين وجود مـن الأصل وربمـا لو توجهـت حينها إلـي الدكتور وحيد عبد المجيد لحل لي الإشـكال ببسـاطة ، ولكن لمن لا يفهم تلك أقـدار اللّه التـي تدفعـك أحيانا للقيـام بأصعب الأعمال بينمـا قد تلهيك عن أبسـطها علي الرغم مما قد يأتى مـن ورائها من نتائج خطيرة ولكن أن تتبعت هذا التسلسـل فإنك قد تجد تقديرك لهذه النتائج به من الشـر أكثـر مما به من الخير ثم يتفرع هذا الفرع إلي فروع والفروع إلي أكبر منهـا ولا تجـد لعقلـك أي قدرة علـي الإحاطة بما تحمله الأقـدار وما هي إسـرارها ولا تجد ما من الممكن أن تعتصم به في التعامل مع كل هذا إلا ما جاء في الإسلام من أن «لو تفتح عمل الشيطان» و «أن ما أصابك ما كان ليخطئك، وما أخطأك ما كان ليصيبك».

بعـد نهاية علاقتي بالزعيم كنت أزور أحد أصدقائي فإذا به يحدثني

عن علاقته الجديدة بالحياة اللندنية فحكيت له ما حدث لي مع الشخص الإداري.

فقال لي: سوف أستعلم عن الأمر.

بعـد مـدة قصيرة اتصل بى ليعلمني ان رئيس المكتب لا يعلم عن هذا الأمر الذي ادعاه الشخص الإداري شيئًا ، ابتلعت غيظي.

تم استئناف نشر مقالتي بالحياة اللندنية مرة أخرى.

من حيث المكانة فإن من ينشـر في الحياة اللندنية يحق له أن ينشـر في أي مطبوعة أو موقع إعلامي باللغة العربية في العالم. وتبقى بعد ذلك مسألة التوافق بين الاتجاهات.

فـي خـلال عـام واحـد أو عامين بدأت أنشـر في عدد كبيـر من أهم الجرائـد والمجلات (لم تكن مواقع النـت قد بدأت حينذاك أو لم أكن أعلـم عنها شـيئًا علي الأقـل) أما الحيـاة اللندنية فكنـت أكثر كاتب مصـري نشـرًا فيهـا علـي مسـتوى كل الاتجاهـات الفكريـة والأدبيـة باسـتثناء أصحـاب العواميد والأبـواب الثابتة. والحق يقـال أنه فضلاً عن القيمـة الأدبيـة الكبـرى للحياة اللندنيـة ـ التي فتحـت أبوابها في ذلك الوقت للإسـلاميين ـ فإن بعض الاسـتقرار المادي النسـبي الذي كنت أتمتع به قبل أزمة سبع وتسعون قد عاد لي من خلالها فاستطعت أن أؤجر شقة متواضعة، وأجد طعاماً يشبعني وأوفر بعض المال.

إلا أن لها فضلاً علميًا آخر هو أن ارتباطي بالكتابة للجريدة ومتابعتي لما تنشـره قـد أقحمني فـي الكتابة السياسـية فبعـد أن كنت أكتب المقـال الفكري، فالمقال الفكر سياسـي، بـدأت ـ بعد رصد متتابع وتراكـم معرفـي بمتغيـرات السياسـة العالميـة القائمة أكتـب المقال السياسي البحث وما عدت أقول بعد ذلك ليس لي في التحليل السياسـي،

وإن كان اشمئزازي من السياسة بوجه عام مازال مستمرًا حتى هذه اللحظة .

في حوالي عام ألفين تقريبًا التقيت صالح الصحافي تلميذ الزعيم القديم الناقم عليه والوحيد من رفاقه الذي ظل يعمل معه إلي آخر لحظة قدرًا بوسط البلد.

لم يُرد صالح في تلك اللحظة أن يتعرض للنزاع بيني وبين الزعيم، ولكنني اختصرت عليه الأمر حين قلت له:

ـ أرجو أن تبلغ الزعيم عن لساني أن مبروك الذي حاربته كل هذه الحرب . هو الآن يكتب في عدد من الجرائد والمجلات الهامة في داخل مصر وخارجها التي لم تستطع أن تكتب فيه وأنت نفسك في يوم من الأيام.

كان الزعيم قد أشحذ جهوده منذ منتصف التسعينات في مواجهة السلطة المصرية في الداخل في عدة قضايا محددة بدلاً من شحذها في مواجهة الخارج (التحالف الصهيوني الأمريكي) كما كان يفعل من قبل.

كان لديه الحق في بعض هذه القضايا ولكنه اتخذ شكل المبالغة في البعض الآخر.

أهلته هذه المواجهة الشرسة والحادة والتي يعلن أنه ينطلق فيها من موقف إسلامي إلى تفاعل الغالبية العامة من الجماهير المتابعة معه. وعلى الرغم من حزبه الهزيل ـ والذي زادته سوء إدارته والكراهية الناجمة عن مؤامراته الداخلية هزلانًا ـ فإنه يكاد يكون أكثر الأحزاب من حيث القاعدة الشعبية مقارنة بالأحزاب المصرية الكرتونية بوجه عام في ذلك الحين، بالإضافة إلى أن تحالفه مع التيار إياه ـ أكبر

التنظيمات ذات الأرضية الشعبية على الأرض والذي لم يكن يملك من القيادات من يمكن أن يقترب من قدرات الزعيم الفكرية والسياسية ـ كل ذلك أهله لأن يكون الزعيم الفعلي للمعارضة المصرية لخمس سنوات على الأقل.

أما ما حكيناه هنا عن عقله التآمري وافتقاده للقيم المتماسكة وعدم التزامه بالقواعد الإسلامية الدعوية والأخلاقية فهو لم يكن حكرًا في هذا، بل ربما كان أفضل من الكثير من القطاعات الأخرى بما في ذلك بعض التيارات الإسلامية ذاتها وهذا ما يطلعنا أشد الإطلاع على أسباب فشل مثل هذه التيارات في التغيير دائمًا.

ولكن كل ذلك جاء على حساب تفريط كامل في قدراته الفكرية وإثقالها بشكل حقيقي بالأصول الإسلامية، ومن ثم القدرة على إبداع فكر إسلامي قادرٍ على التفاعل مع قضايا العصر والمشاركة بذلك في إنتاج المشروع الفكري الإسلامي الذي يهم الواقع التاريخي للعالم الإسلامي أجمع وكان مؤهلاً لذلك، فكيف يهمل كل هذا لدرجة أنه لم يترك كتابًا واحدًا في الفكر الإسلامي.

وجاء أيضًا على حساب إهمال فرصة تاريخية في تنمية وتربية كوادر إسلامية واعية ورشيدة تكون أكثر قدرة على التفاعل مع العصر من التيارات الإسلامية الاخرى وذلك من خلال الحزب الذي كان يملك ناصيته. وكان بذلك قد ترك جيلاً يتبعه جيل تكون له القدرة على المشاركة في تحمل مسئولية الأمة.

حتى المعارك المحلية التي خاضها وكان معه الحق فيها وشحذ فيها كل جهوده، علام تمخضت.؟!

لا شيء.

ما كان يراد له أن يتم فقد تم .

والكل كان يعلم ذلك.

لا أقول إنه كان يجب أن يتوانى عن مواجهة هذه القضايا .

ولكن أقول كان لا ينبغي أن يشحذ كل جهوده فيها ويبالغ في بعضها إلى الدرجة التي نظر فيها إلى الموضوع أن الأمر يشوبه شأن شخصي ومن ثم تمت تصفيته.

فقد تم إغلاق الجريدة.

وتمت تصفية الحزب الذي انقسم إلى أربع أحزاب، يقتصر كل منها على العشرات، كل بما لديه فرحون.

ومات الرجل بالانفجار في المخ.

***

محمد إبراهيم مبروك

صدر له:

ـ ثلاثون عامًا من التشرد

ـ نقد الليبرالية

ـ لماذا نقول لا للنموذج التركي والتونسي؟

ـ الإسلام الليبرالى بين الإخوان المسلمين والعلمانيين والوسطيين.
طبعة ثانية

ـ الإسلام الذي تريده أمريكا : الإسلام النفع.ي
طبعة ثانية

ـ الإسلام والغرب الأمريكى بين حتمية الصدام وإمكانية الحوار.

ـ حقيقة العلمانية "جـ ١ ، جـ ٢".

ـ تزييف الإسلام وأكذوبة المفكر الإسلامى المستنير.

ـ موقف الإسلام من الحب بين الرجل والمرأة.
طبعة ثانية

ـ كن قويًا بالإيمان ،
طبعة ثانية.

ـ مواجهة المواجهة.

ـ الصراع حول المادة وجوهر الحياة.

ـ الإسلام والعولمة طبعة ثانية.

ـ ابن رشد وفيلم المصير.

ـ علمانيون أم ملحدون.

ـ نظرية الفن الإسلامي.

ـ العلمانية طبعة ثانية

ـ دمي على يديك ..شعر

ـ أنت أعطيت البراءة لقاتلينا "شعر".

ـ الرد على بابا الفاتيكان وهجوم الغرب على الرسول ﷺ.

تحت الإعداد للطبع:

ـ الإسلام الليبرالى بين الإخوان المسلمين والعلمانيين والوسطيين. طبعة ثالثة

ـ قصائد همجية"شعر".

ـ نقد المذاهب والتيارات المعاصرة.

ـ غرام تلميذة "شعر".

فهرس

إشارات ٩
من أين؟ وإلى أين؟ ١١
في مغارة خالد ١٩
لمسات من الفقر ٦١
خوارق في حياتي ٧٥
رأيت ظهري ٧٩
ما هذا النور؟ ٩٣
اذهب من هنا ٩٩
ليس المكان مكانك ٩٩
مواجهة مع المجهول ١٠٥
فوق السطح ١٠٥
يا فلان الذي لا أعرفك أنت اسمك كذا ١٠٩
الأحلام والمستقبل ١٣٥
مع خالد محمد خالد ١٤٣
مع د. عبد الوهاب المسيري ١٤٩
المسيري وقصة أعجب من العجب ١٦٧
نقد المسيري أمام المسيري ١٨١
مع المفكر الماركسى الكبير محمود أمين العالم ١٨٥
مع مارتن أنديك ١٩٥
أرادت أن تتزوجني (١) ٢٠٣
أرادت أن تتزوجنى (٢) ٢١٣
فر من كبرياء المرأة فرارك من الأسد ٢١٩
مع الزعيم قبل الأزمة ٢٢٥
مع الزعيم بعد الأزمة ٢٥٧



هذا الكتاب

- أقول لمن اعترضوا على هذا الكتاب وعلى عنوانه خاصة: هذا الكتاب واحد من أهم كتبي.
- ليس المقصود بالثلاثين عامًا التي جاءت بعنوان الكتاب هي نفسها ثلاثون حكم مبارك بل أن موضوع الكتاب يمتد لأكثر من ثلاثين عامًا.

من إشارات المؤلف

هذا الكاتب

أما الكاتب فهو المفكر المعروف محمد إبراهيم مبروك الذي حقق شهرة كبيرة وراسخة من خلال كتبه العديدة ولقاءاته المتجددة في مختلف القنوات الفضائية في شتى القضايا الفكرية والإنسانية المختلفة فهو مفكر مستقل له مشروعه الخاص الذي يجمع بين الأصولية والتجدد، وإن كان في هذا الكتاب ينفذ بنا إلى عالم آخر

الناشر

الحضارة العربية

التجديد
٠١١٥١٨٠٢٠٦٠

ج
٧٥